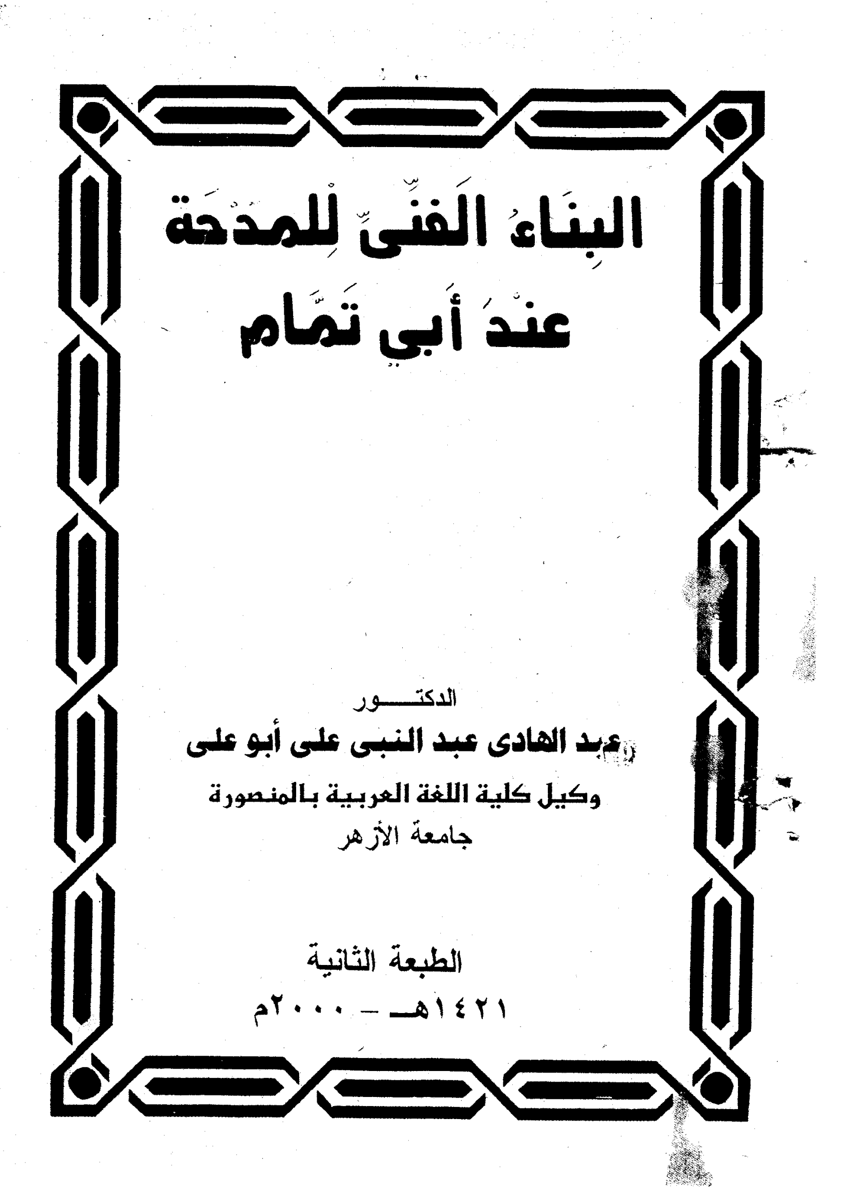
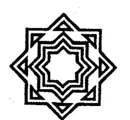
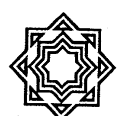
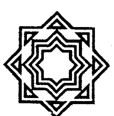


# البناء الفني للمدحة عند أبي تمام

الدكتور
عبد الهادى عبد النبى على أبو على
وكيل كلية اللغة العربية بالمنصورة
جامعة الأزهر

الطبعة الثانية
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

# " مقدمـــة "

الحمد لله رب العالمين ، خلق الإنسان وعلمه البيان ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين وكل من آمن به ودعا بدعوته وسار على منهجه إلى يوم الدين .

وبعـــد

فهذا بحث موضوعه : " البناء الفنى للمدحة عند أبى تمام " وهو بحث جدير بالدراسة والبحث حيث لم يتعرض له الباحثون والدارسون قديما أو حديثا وليس هناك بحث منفرد ومتخصص فى هذا الموضوع على الرغم من كثرة الدراسات والبحوث التى تناولت أبا تمام وشعره فضلا عن أن البحث يتعلق بشاعر عملاق له بصمات واضحة فى دنيا الشعر العربى .

لقد كان أبو تمام - الشاعر العملاق - وشعره ومذهبه موضوعات خصبة لكثير من المؤلفات التى تناولته أو تناولت شعره ومذهبه الفنى بالبحث والدراسة والتحليل والنقد والموازنة قديما وحديثا ربما بلغت العشرات من الكتب والأبحاث والمجلدات الضخمة .

فلقد تعرض لشعره وجمعه وشرحه كثير من الباحثين قديما أمثال : " أبو بكر الصولى " و " حسين الرافعى " و " على بن حمزة الأصفهانى " و " أبو العلاء المعرى " و " أبو حامد الخارزنجى " و " المرزوقى " و " أبو منصور الأزهرى " و " الخطيب التبريزى " وغيرهم ، كما تناول شعره ومذهبه بالبحث والنقد والموازنة كثيرون أيضا ، فكتب " الصولى " "أخبار أبى تمام" ودافع فى مؤلفه كثيرا عن الشاعر ، وكتب " الآمدى "

كتابه " الموازنة بين أبى تمام والبحترى " وقد تحامل فيه كثيرا على " أبى تمام " وتعصب عليه ، وكتب " الموصلى " كتابه : " هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام " ، وألف " ابن المعتز " كتابه : " البديع " وتحامل فيه على أبى تمام ، فضلا عن كثير من الباحثين قديما وفضلا عما كتب عنه فى العصر الحديث وهى كتب وأبحاث كثيرة بعضها تخصص فى أبى تمام وشعره ومذهبه الفنى وبعضها تناولته وتناولت شعره فى طيات حديثها عن الأدب فى عصر الشاعر الذى عاش فيه .

ومع ذلك لم يوجد من الباحثين قديما أو حديثا من أفرد بحثا عن البناء الفنى للقصيدة عند الشاعر خاصة قصيدة المدح التى برع فى فنها " أبو تمام " الشاعر المداحة العملاق .

بل لم يشر القدماء إلى تجديد الشاعر فى شكل القصيدة العربية من حيث المقدمة أو الموضوع أو من حيث اختراعه لألوان جديدة من المقدمات التى لم تعرف من قبل أو من حيث الربط الوثيق بين المقدمة وبين الموضوع الذى ضمته القصيدة ولم يهتموا بدراسة قصيدته أو مقدماته دراسة واسعة بل اقتصروا فى دراستهم على الإشارة فقط إلى جودة المقدمة أو عدم جودتها وكانت نظرتهم قاصرة على البيت الأول فى مطلع المقدمة دون النظر إلى المقدمة بشكل عام .

ولم يتناول النقاد القدماء أو المحدثون القصيدة بشكل عام ولم ينظروا إليها نظرة متكاملة باعتبارها عملا أدبيا متكاملا بل جزأوا القصيدة ووقفوا عند بيت منها أو معنى من معانيها أو صورة من صورها وجعلوا همهم الأكبر وشاغلهم الشاغل حول بديع " أبى تمام " وجودته ورداءته وتوسعه وأدواته ولم ينظروا إلى القصيدة بشكل متكامل .

لذا رأيتنى أتجه إلى الحديث عن " البناء الفنى للمدحة عند أبى تمام " وتناول هذا الموضوع بالبحث والنقد والدراسة خاصة وأنه يتعلق بشاعر عملاق " كأبى تمام " الذى أقام الدنيا وأقعدها وأحدث ضجة كبرى حول مذهبه الفنى وشعره أفاد منها الأدب العربى والنقد الأدبى إفادة قيمة واستطاع "أبو تمام" أن يضع بصمات قوية محفورة فى دنيا الشعر العربى وعالم النقد الأدبى واستطاع أن يفرض نفسه على التاريخ الأدبى كشاعر عملاق وفنان موهوب .

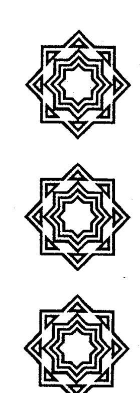
هذا ، وقد تحدثت عن حياة الشاعر ونشأته فى صدر البحث من باب تكملة البحث ولوازمه حديثا موجزا ثم عرضت للموضوع الأصلى عرضا مفصلا بالبحث والنقد والتحليل .

وإنى لأرجو من الله تعالى العون والتوفيق والسداد وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير ،

**دكتور**

**عبد الهادى عبد النبى على أبو على**

مكة المكرمة : ١٧ جمادى الأولى ١٤١١ هـ
٢٤ نوفمبر ١٩٩٠ م



# " حياة أبي تمام "

* نســبه :

هو : أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، وهو عربى أصيل من قبيلة طيىء، وتجمع كتب الأدب والتاريخ على أنه عربى أصيل من " طيىء " حتى بلغ ذلك أنهم كانوا يذكرونه " بالطائى " فقط ويفهم من ذلك أنهم يريدون " أبا تمام " ، فكل من : " الجاحظ " و " المبرد " و " ابن خلكان " و " ابن رشيق " و " ابن الأثير " و " أبو الفرج الأصبهانى " و " ابن عبد ربه الأندلسى " و " الطبرى " و " الثعالبى " و " السمعانى " و " ابن حزم " و " الصولى " وغيرهم من الباحثين والرواة والمؤرخين كانوا يسمونه بالطائى ويجمعون على أنه عربى أصيل من " طيىء " .

ولم يشذ عن هذا الإجماع على نسبه العربى إلا " مخلد بن بكار الموصلى " وهو خصمه اللدود الذى راح يهجوه فى آخر حياته وأيام براعته وشهرته التى طبقت الآفاق وينفى عنه نسبه العربى وقد أراد بذلك الهجاء للشاعر العملاق شاعر عصره " أبى تمام " أن يلمع نجمه ويشتهر أمره إلا أن " أبا تمام " كان يحتقره وامتنع عن الرد عليه وهجائه لأنه كان يرى أن هجاءه يرفع من قدره ، فضلا عن : " طه حسين " الذى ذهب إلى أنه : يونانى الأصل بحجة ثقافته اليونانية الأجنبية التى ظهرت فى شـــعره . (١)

ورأيى أن " أبا تمـــام " عربى أصيـل فى عروبتـه وينتمـى إلى قبيلة " طيىء " العربية الشهيرة وأن هذه التهمة فى نسبه إنما هى تهمة باطلة أراد بها أصحابها الحط من شأن " أبى تمام " فكل ذى موهبة محسود .

---

١ - ص ( ٩ ) مقدمة نقد الشعر لقدامة . طبع : لجنة التأليف والترجمة والنشر .

وإننى لا أشك فى أن " أبا تمام " عربى الأصل عريق فى عروبته فهو عربى الوجه واليد واللسان وإذا كان هناك من عنصر أجنبى فيه فإن ذلك يكمن فى ثقافته فقط لا فى نسبه ودمه وجاءه هذا العنصر بسبب ثقافته الواسعة لعلوم عصره سواء كانت عربية أم أجنبية أخذها العرب عن غيرهم خاصة الثقافة اليونانية .

ويؤيد ذلك ويعضده : إجماع المؤرخين والرواة الثقاة على نسبه العربى الأصيل ، ولا عبرة برأى " مخلد الموصلى " لأنه خصم حاقد وشهادة العدو لا يعتد بها خاصة أمام إجماع المؤرخين ، كذلك لا عبرة برأى الدكتور " طه حسين " الذى أنكر النسب العربى " لأبى تمام " اعتمادا على حجة واهية وهى ثقافته اليونانية التى ظهرت فى شعره ولو رحنا نطبق هذه الحجة على " طه حسين " نفسه لأخرجناه عن النسب العربى خاصة وأنه قد شغف بالثقافة الأجنبية إلى غير حد وبلغ فى ذلك مبلغا كبيرا فضلا عن أنه قد عرف عنه اتباع آراء المستشرقين فى كثير من القضايا الأدبية وغيرها وحب المخالفة والشذوذ عن الإجماع غالبا .

ومما يؤيد ويعضد نسب " أبى تمام العربى " - فضلا عن إجماع المؤرخين والرواة : إعتراف " أبى تمام " نفسه بنسبه العربى أمام جميع الناس واعتزازه بهذا النسب وافتخاره به افتخارا كثيرا فى كل زمان وكل مكان خاصة أمام الخلفاء والعلماء والرواة . ولم ينكر أحد منهم شيئا من ذلك عليه فيروى أن قائلا قال لأبى تمام : يا أبا تمام : أى رجل أنت لو لم تكن من اليمن ؟ قال له أبو تمام : ما أحب أنى بغير الموضع الذى اختاره الله لى ، فممن تحب أن أكون ؟ قال : من مضر . فقال أبو تمام : إنما شرفت مضر بالنبى صلى الله عليه وسلم ولولا ذلك ما قيسوا بملوكنا

وفينا كذا وكذا . (١)

وروى ( أن " أبا توبة الشيبانى " سأل " أبا تمام " فى محضر الأمير " خالد بن يزيد الشيبانى " عن نسبه فقال " أبو تمام " : من طيىء وولائى لهذا الأمير " يعنى خالد بن يزيد الشيبانى " فتأسف " أبو توبة " وقال يا أسفى ألا تكون ربيعيا أو نزاريا ) . (٢) ، واعترف الخليفة " الواثق " العباسى بنسبه العربى ، فقد حدث " هارون بن محمد عبد الملك " قال : لما مات أبو تمام قال " الواثق " لأبى : قد غمنى موت الطائى الشاعر ، فقال : طيىء بأجمعها فداء أمير المؤمنين والناس طرا " . (٣)

ومن الأدلة التى تثبت نسب " أبى تمام " العربى : افتخاره وإشادته بالعرب والعروبة وتمجيد البطولات العربية ونشر مآثرهم فى مواضع شتى من ديوانه فضلا عن إنعدام نزعة الشعوبية انعداما تاما فى شعره فى الوقت الذى بلغت فيه النزعة الشعوبية حدا بالغا عند الشعوبيين بل ظهرت عصبيته للعرب ولطيىء خاصة ظهورا واضحا فى شعره ، وفضلا عن ثقافته العربية العميقة الواعية الشاملة لكل مظاهر اللغة ولهجاتها " خاصة لهجات طيىء " قبيلته وقواعدها ومتنها وصرفها تدل على أنه عربى أصيل فى عروبتـــه .

وشاعر عظيم " كأبى تمام " سد السبل أمام شعراء عصره وضيق عليهم أبواب الرزق وعطايا الخلفاء - حيث لم ينالوا أيامه درهما حتى مات

---

١- ص ( ٤٢ ) جـ١ ، أخبار أبى تمام للصولى : تحقيق : خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندى ، طبع المكتب التجارى ببيروت .

٢- ص ( ٤٢ - ٤٣ ) جـ١ ، أخبار أبى تمام للصولى .

٣- ص ( ٢٧٢ ) جـ١ ، أخبار أبى تمام للصولى .

فتقاسم الشعراء ما كان يأخذه - ليس بغريب عليه أن يتهم فى نسبه وغير ذلك من مواضع التجنى والاتهام ، فهذا هو شأن العظماء دائما وشأن الأفذاذ أبدا فى كل زمان ومكان حيث لا يسلمون من الطعن أو الحط من شانهم فى أى ناحية وذلك بسبب الحقد والغيرة أو الشعور بالنقص من الأعداء والأنداد ، فكثيرا ما رأينا اتهامات فى الأنساب واتهامات بالكفر والزندقة قد ألحقت بالعظماء - خاصة عظماء الشعراء - وذلك مدون ومسطور فى كتب الأدب والتاريخ ، فكم من عظيم رمى بالكفر وكم من فحل اتهم بالزندقة بل لقد بلغ الحد أن اتهم البعض بادعاء النبوة مثلما اتهم " المتنبى " شاعر العربية وفحلها الأول ، وحينما ندرس آثار هؤلاء المتهمين وما خلفوه من تراث لا نرى شيئا من هذا الزعم صحيحا بل نرى ما يثبت العكس تماما .

فأبو تمام عربى خالص ولطالما افتخر بعروبته وبالتالى فإن العربية والعروبة لتفخر بأحد أفذاذها " أبى تمام " الشاعر العربى العملاق .

❁ **مولـده ووفاتـه :**

ولد أبو تمام حبيب بن أوس الطائى بقرية جاسم " بناحية دمشق " وقد اختلف المؤرخون والرواة فى سنة ولادته فقيل ولد عام ١٧٢ هـ وقيل عام ١٨٨ هـ . (١) وقيل عام ١٩٠ هـ وقيل عام ١٩٢ هـ ، كما اختلفوا كذلك فى سنة وفاته فقيل مات بالموصل عام ٢٣١ هـ . (٢) وقيل عام ٢٣٢ هـ . (٣)

وقال " تمام " ابنه : مولد أبى سنة ثمان وثمانين ومائة ومات فى سنة

---

١- ينظر أخبار أبى تمام للصولى ، جـ١ ، ص ( ٢٧٣ ) .

٢- ينظر ص ( ٢٧٢ ) جـ١ ، أخبار أبى تمام .

٣- ينظر ص ( ٢٧٢ ) ، ص ( ٢٧٣ ) جـ١ ، أخبار أبى تمام .

إحدى وثلاثين ومائتين " . (١)

وقد رثاه كثير من الشعراء وبكوا عليه بكاء حارا مبرزين عبقريته وشاعريته الفذة ، فقد رثاه " الحسن بن وهب " و " محمد بن عبد الملك الزيات " و " أحمد بن يحيى البلاذرى " و " على بن الجهم " و " ابن أبى الشيعى " وغيرهم من الشعراء .

* صفاتـــه :

يروى أن " أبا تمام " كان طويل القامة حلو الكلام فصيحا أسمر اللون مليح الحديث وكان يصف نفسه فيقول أنا كقولى :

نَقِّلْ فؤادك حيث شئتَ من الهوى ما الحُــبُّ إلا للحـــبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينــه أبــداً لأوّل منـــزل (٢)

* أســرته :

أبوه " أوس " الطائى وأخوه " سهم " وكان شاعرا ينظم الشعر إلا أنه لم يصل مرتبة متقدمة فيه وماتت زوجته فرثاها فى شعره ، وأبناؤه : أبو على ومحمد وتمام . وقد مات : أبو على ومحمد فى حياته فرثاهما فى شعره بعيون دامعة ولم يبق من أولاده فى حياته إلا ولده " تمام " حيث كان " أبو تمام " من أهل المصائب والرزايا فقد رزء فى أهله ومات أبناؤه فى حياته إلا ابنه " تمام " وقد مات أبوه وهو صغير ويبدو أن أمه ماتت هى الأخرى وهو لم يزل طفلا صغيرا حيث لم يرد له رثاء فيهما فى ديوانـــه .

---

١ - ص ( ٢٧٣ ) جـ١ ، أخبار أبى تمام للصولى .

٢- ص ( ٢٦٣ ) جـ١ ، أخبار أبى تمام للصولى .

* **نشـأته وحيـاته :**

نشأ " أبو تمام " فقيرا فى بلاد الشام لا يملك من متاع الدنيا شيئا فعاش عيشة الفقراء، لأب رقيق الحال يعمل عطارا فوجهه ناحية العمل منذ طفولته كى يتعلم مهنة يعيش بسببها فأرسله إلى حائك " بدمشق " يتعلم عنده حرفة الحياكة فتعلمها وعاش بسببها إلا أنه عاش عيشة الكفاف ثم لم يلبث أن رحل إلى " مصر " وهو فى سن مبكرة لعله يجد فيها من سبل العيش والثراء ما افتقده فى موطنه الذى نشأ فيه وظل يكافح فى " مصر " كفاح الأبطال من أجل العيش فى حياة كريمة وراح يسقى الماء وفى نفس الوقت يحصل العلم فى جامعها الأكبر ، وكانت " مصر " - كما هو شأنها دائما - محط أنظار العالم الإسلامى كله من أقصاه إلى أقصاه وقبلة أنظار طالبى العلم أو الغنى لكل أبناء العروبة والإسلام فى شرق الأرض وفى غربهـــا .

تعلم " أبو تمام " فى مصر وتزود من ألوان العلم والمعرفة فحفظ القرآن الكريم واطلع على العلوم العربية : من شعر ونثر ولغة وفقه وحديث وتوحيد وفلسفة وتاريخ وجالس كبار العلماء والفقهاء والأدباء وراح يحصل الشعر ويلتهمه التهاما ، وراح يتنقل فى أنحاء " مصر " وزار فيها مدنا عديدة ونظم فيها شعرا .

ومع أن " أبا تمام " قد بلغ فى " مصر " العلم والأدب إلا أنه لم يحقق كل ما كان يطمح إليه من غنى وثراء فتركها متوجها إلى بلاد الشام ولكنه ترك مصر بعد أن أصبح شاعرا كبيرا فيها ويملك شاعرية فذة كونها فى مصر ومدارسها المتعددة وراح بسببها ينال المال الوفير والربح الكثير من مدح الكثيرين من كبار رجال الدولة ، فقد مدح " أبا المغيث

الرافقى " فغمره بعطاياه إلا أن " أبا تمام " لم يقنع بعطائه فتركه وترك الشام وتوجه إلى " الرقة البيضاء " وراح يمدح " حسان الضبى " فغمره بجوده وعمه بكرمه ثم انتقل بعد ذلك وتوجه إلى " العراق " وراح يمدح آل النبى صلى الله عليه وسلم ثم عاد مرة أخرى إلى " مصر " فمدح فيها " عبد الله بن طاهر " وغيره ثم ترك " مصر " بعد مدة وعاد " للعراق " وفتحت الدنيا أمامه وبدأ عصرا زاهرا وحياة مختلفة وذاع صيته واشتهر أمره حيث اتصل بكبار رجال الدولة ومدحهم بعيون مدائحه فصبوا عليه المال صبا أمثال : " محمد بن حميد الطوسى " و " محمد أبى سعيد الثغرى " و " مهدى بن أحرم " وغيرهم من القواد والأمراء ، ثم أخذ " أبو تمام " يتنقل بين المدن والثغور الإسلامية ويجوب البلاد شرقا وغربا من أجل المدح والعطاء فقد زار : أذربيجان " و " خراسان " و " سامرا وسر من رأى " و " كور الفرات " فى الجزيرة وتنقل بين : الشام والعراق وراح يمدح الخلفاء والوزراء والقواد وغيرهم من كبار رجال الدولة وينال منائحهم وعطاياهم ، فقد اتصل ومدح - فضلا عما سبق ذكره - " خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى " ومدح الخليفة " المأمون " ومدح " أبا دلف العجلى " و "عبد الله بن طاهر" و " جعفر بن دينار " و " الأفشين " والخليفة العباسى : " المعتصم بالله " الذى لزمه فى سلمه وحربه وحله وترحاله وأصبح شاعره الأول و " ابن الزيات " و " ابن أبى دواد " وغيرهم من كبار رجالات الدولة العباسية فلمع نجمه وبعد صيته واشتهر شهره واسعة وأصبح شاعر عصره دون مشارك أو منازع ، وظل وحده فارس الشعر العربى فى وقته وتبوأ الدرجة العلى فى حينه وظل هكذا حتى وافاه أجله المحتوم فمات كما يموت العظماء وهوى كما يهوى الجبل الشامخ تاركا وراءه جبلا شامخا آخر ولكنه جبل من الشعر العربى الراسخ والخالد والباقى فى نفوس وعقول أمته العربية والإسلامية ما بقيت الحياة الدنيا .

**❁ ثقافتـه ومؤلفاتـه :**

من بين ثنايا ديوان " أبى تمام " نستطيع أن نقف على البعد الثقافى للشاعر ونستدل على أنه قد انقض على معارف عصره انقضاضا والتهم جميع ثقافات عصره التهاما وأخذ نفسه بثقافة واسعة حتى قالوا : إنه عالم وقالوا : إن شعره يعجب أصحاب الفلسفة والمعانى ، وقد نبغ "أبو تمام" نبوغا واضحا فى فروع الثقافة المتعددة : سواء كانت : لغوية أو أدبية أو فقهية أو مذهبية أو فلسفية أو تاريخية ، : عربية وإسلامية وأجنبية وكان مثلا حيا لالتقاء الثقافات المختلفة ، فقد مثل الشاعر بثقافاته المتنوعة عصره العباسى الذى عاش فيه أتم وأكمل تمثيل .

وبدا فى شعره - ومدائحه بوجه خاص - أثر هذه الثقافات المتنوعة حيث ظهر فيه أثر حفظه للقرآن الكريم ظهورا يلفت النظر ويثير الانتباه كما لو أنه قد وضع القرآن الكريم نصب عينيه ينقل منه ما يريد فى شعره وإننا حينما نقرأ شعره نجد بين كل خطوة وأخرى اقتباسا من القرآن الكريم بما يدل على أنه قد حفظ القرآن الكريم حفظا جيدا وشغف به إلى حد بعيد .(١)

كما يظهر فى شعره إلمامه بقواعد النحو إلماما جيدا حيث لم يؤخذ عليه كثير من الأخطاء النحوية وكان على دراية واسعة باللهجات المختلفة خاصة لغة طيئ مثل قوله :(٢)

أغرت همومى فاصطحبن همومها　　　نومى وبتن على فضول وسادى

فالنون فى الفعل " اصطحبن " علامة الجمع كالتاء فى : قامت هند وهى لغة : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ومن ذلك استعماله

---

١- ينظر ديوانه : ص( ١٦٥ - ١٧٥ ) جـ٣ كمثال .

٢- جـ؟ ص(١٢٨) ديوانه بشرح التبريزى .

( ذو ) الموصولة فى قوله : (١)

أنا ذو عرفت فإن عرتك جهالة فأنا المقيم قيامة العذّال

كما يظهر فى شعره أثر العلم بالتاريخ العربى والإسلامى وأخبار الجاهلية وعاداتهم وأيامهم وقصصهم وأساطيرهم بما يدل على أنه قد ثقف تاريخ العرب والمسلمين فى الجاهلية والإسلام على السواء . (٢). وفى شعره ما يدل على أنه على دراية كبيرة بمذاهب الفلاسفة المتصلة بالدين والسياسة فى عصره . (٣).

وقد عرف أبو تمام فنون الشعر العربى المختلفة من : مدح ورثاء وفخر وهجاء ووصف وغزل وخمر وعتاب وشكوى وحكمة ... وغيرها من الأغراض المختلفة إلا أنه كان عملاقا عظيما حينما نراه : مادحا ومصورا للمعارك والحروب أو راثيا أو واصفا للربيع أو حكيما مجربا ، فقد كان المدح والرثاء ووصف الربيع والحكمة قمما شامخة فى الشعر العربى ، حيث كان يرتفع بالممدوح حتى يصل به إلى عنان السماء ، ويسيل الدموع أنهارا إذا رثى وبكى ، ويثير البهجة والمتعة حين يصف الربيع ونراه حكيما حاذقا إذا نظم فى الحكمة .

وقد ترك أبو تمام ديوانا ضخما من الشعر فى أربعة أجزاء يضم بين دفتيه فنون الشعر العربى المتنوعة كما ترك بعض المؤلفات الأخرى أشهرها : كتاب الحماسة ، وكتاب الفحول. والاختيارات من شعر الشعراء. والاختيار من أشعار القبائل. وأشهرها جميعا كتاب " الحماسة " .

---

١- جـ ص ( ) ديوانه بشرح التبريزى .

٢- ينظر ديوانه ، جـ٢ ، ص ( ١٩٨ - ٢٠٩ ) .

٣- ينظر ديوانه ، جـ٢ ، ص ( ٣١٧ - ٣١٨ ) كمثال .

❊ مذهبــه الفنـى :

كان " أبو تمام " صاحب صنعة وصقل بل صاحب مدرسة فنية فى الشعر العربى وصاحب مذهب فنى جديد حمل لواءه وتأثر به اللاحقون من الشعراء ويتلخص فى الآتى :

١ - طلب المعنى البعيد والجديد المخترع والجرى وراءه إلى أبعد مدى .

٢ - إخفاء المعنى الذى استقاه من غيره بغموضه والغوص وراءه وتعقيده والتواء أسلوبه أو تجديده .

٣ - الإفراط الواضح فى استخدام الاستعارة بأنواعها المختلفة مع خفاء العلاقة وبعدها والاعتماد على المبالغة والغلو فى أسلوبه اعتمادا كبيرا .

٤ - الإكثار المفرط فى استخدام أصباغ البديع المختلفة والتحرى وراءها تحريا متصلا قاصدا البديع قصدا متكلفا له أحيانا ، حيث كان يستخدم ألوان البديع المختلفة التى تضم : الطباق والجناس والتصوير والمشاكلة إلا أنه كان يستخدمها أحيانا ببراعة ومقدرة فائقة فتأتى كاللآلئ التى تومض وتأخذ بالعقول والأفئدة وتارة أخرى يتكلفها ويتصيدها فتجنى جناية عظيمة على شعره وتفسده وكان ذلك قليلا .

٥ - ولقد اهتم الشاعر بجانب التصوير فى شعره اهتماما كبيرا وشغف به إلى حد بعيد واستطاع بمقدرته أن يحوله إلى أصباغ مختلفة معتمدا على صبغ : التدبيج والتجسيم والتشخيص وصاغ منها وشيا وبدائع وخيالات رائعة .

٦ - وبجانب استخدامه لهذه الأصباغ القديمة نراه يلجأ إلى أصباغ أخرى جديدة يبتهج بها العقل وهى ألوان كان يستمدها من الفلسفة والمنطق والثقافة العميقة ، واستطاع أن يحول الفلسفة إلى فن

شعرى يتعانق مع الصبغ البديعى تعانقا واضحا ، وأصبح كل لون من الألوان البديعية يعبر عن فكر عميق .

**وخلاصـة القـول** : إن الشاعر قد شغف بالبديع والغريب والفلسفة وأغرم بها إلى أبعد مدى واعتمد عليها اعتمادا كبيرا فى إبراز صوره ومعانيه واستولت هذه الألوان على أسلوبه استيلاء كبيرا بجانب العناية بالموسيقى وجمال اللفظ والاهتمام بالفكرة اهتماما واضحا ، فالفكرة عنده المعول الأساسى والرئيسى لشعره ثم يأتى الشعور بعد الفكرة .

**❊ مكانتـــه :**

ذهب النقاد والأدباء والعلماء والرواة مذاهب مختلفة فى شعر " أبى تمام " ومكانته ، فبينما نجد كثيرا منهم يفضله ويرفعه ويعظمه على غيره من شعراء عصره - خاصة البحترى - نجد أيضا كثيرون يحطون من شأنه ويعيبونه ويرفعون عليه غيره ، وكان لكل فريق من الفريقين علله وأدلته التى اتكأ عليها واعتمد عليها فى موازنته وجعلها مقياس الأفضلية وعنوان الشاعرية .

فمن الذين فضلوه ورفعوه وأشادوا به : " ابن الأثير " حيث يرى أنه أشعر شعراء العربية على الإطلاق وأنه أشعر من " المتنبى " وغيـر " المتنبى " عند كل عارف يعرف البيان من الفصاحة والبلاغة .(١)

ويقول " ابن الأثير " فى " أبى تمام " : " أما أبو تمام فإنه رب معان وصقيل ألباب وقد شهد له بكل معنى مبتكر لم يمشى فيه على أثر ...

---

١- ص ( ٢١ - ٣٠ ) الاستدراك لابن الأثير .

وأما " أبو عبادة البحترى " فإنه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى وقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الإطلاق . (١)

ويقول " ابن رشيق " موازنا بين " أبى تمـــام " و " البحـترى " : " فأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنع المحكم طوعا وكرها ، يأتى للأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة ، أما " البحترى " فكان أملح صنعة وأحسن مذهبا فى الكلام ، يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة . (٢)

ويرى " الآمدى " : أن " أبا تمام " سلك طريقة - مسلم بن الوليد - فاضمحل بهما شعر العرب . (٣)

وقد أعجب به " المبرد " وأشاد بشعره فقال حينما سأله أبو العباس عبد الله بن المعتز عن أبى تمام والبحترى فقال : لأبى تمام إستخراجات لطيفة ومعان طريفة لا يقول مثلها البحترى ، وهو صحيح الخاطر حسن الانتزاع ، وشعر البحترى أحسن استواء ، وأبو تمام يقول النادر والبارد وهو المذهب الذى كان أعجب إلى الأصمعى وما أشبه أبا تمام إلا بغائص يخرج الدز والمخشلبة ، ثم قال : والله إن لأبى تمام والبحترى من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ما وجد فيه مثله " . (٤)

---

١- ص ( ٢٢٧ ) جـ٣ المثل السائر . لابن الأثير . طبع : نهضة مصر .

٢- جـ١ ص ( ٨٥ ) العمدة لابن رشيق . طبعة : الخانجى .

٣- ص ( ٥٢٨ ) الشعر والشعراء لابن قتيبة . تحقيق : أحمد محمد شاكر ، مصر عام ١٣٦٦ هـ .

٤- ص ( ٩٦ - ٩٧ ) ، جـ١ ، أخبار أبى تمام للصولى ، والمخشلبة : خرز أبيض كاللؤلؤ .

وقال محمد بن يزيد المبرد : " ما سمعت الحسن بن رجاء ذكر قط أبا تمام إلا قال : أبو التمام وما رأيت أعلم بكل شيء منه " .(١)

وقد أشاد " الصولى " بأبى تمام وبشعره ورفعه مكانة عظيمة وراح يدافع عنه ويرى أن الذين عابوه وعابو شعره إنما عابوه لعيب فى أنفسهم هم لا فى شعر أبى تمام الذى يجهلونه ولا يعرفون حقيقته فيقول : " أما ما حكى عن بعض العلماء فى اجتناب شعره ( أى شعر أبى تمام ) وعيبه ... لأن أشعار الأوائل قد ذللت لهم وكثرت روايتهم ووجدوا أئمة قد ماشوها لهم وراضوا معانيها فهم يقرءونها سالكين سبيل غيرهم فى تفاسيرها واستجادة جيدها وعيب رديئها ... وظل الصولى يدافع عن أبى تمام ويبطل مزاعم الذين عابوه بالحجة والبرهان والشواهد الشعرية والنثرية .. إلى أن قال : وما ضر أبا تمام قول هؤلاء كما لا يضر البحر أن يقذف فيه حجر ولا ينقص البدر أن ينبحه الكلب " ، ثم قال فيه : " وليس أحد من الشعراء - أعزك الله - يعمل المعانى ويخترعها ويتكيء على نفسه فيها أكثر من أبى تمام ومتى أخذ معنى زاد عليه ووشحه ببديعه وتمم معناه فكان أحق به " .(٢)

وأشاد بشعره " عمارة بن عقيل " حيث اجتمع الناس إلى عمارة وقالوا له ها هنا شاعر ( يقصدون أبا تمام ) يزعم قوم أنه أشعر الناس طرا ويزعم غيرهم ضد ذلك فقال أنشدونى له فأنشدوه قوله :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد وعـاد قتـادا عندهـا كل مرقـد

إلى آخر الأبيات ، فقال عمارة : لله دره لقد تقدم صاحبكم فى هذا

---

١- ص ( ١٧١ ) ، جـ ١ ، أخبار أبى تمام للصولى .

٢- ينظر : جـ ١ ، ص ( ١٤ - ٥٣ ) ، أخبار أبى تمام للصولى .

المعنى جميع من سبقه على كثرة القول فيـــه " . (١)

ويقول " البحترى " حينما سئل عن أيهما أشعر أهو أم أبو تمام فقال : جيده خير من جيدى ورديئى خير من رديئه (٢) " ، وحينما سمع البحترى قصيدته :

أحلى الرجال من النساء مواقعا    من كان أشـــبههم بهـــن خـــدودا

فزع وقال : لا يحسن هذا الإحسان أحد غيره " . (٣)

وقال " أحمد بن يزيد المهلبى " : " سألت أبى عن أبى تمام فقال : ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهما واحدا فى أيام أبى تمام فلما مات أبو تمام إقتسم الشعراء ما كان يأخذه " . (٤)

كما أشـاد به " الحســن بن وهب " (٥) و " أبا دلف العجلى " (٦) و " أبو توبة الشيبانى "(٧) وغيرهم .

وسئل " دعبل الخزاعى " عن " أبى تمام " فقال : " ثلث شعره سرقة وثلثه غث وثلثه صالح " ويقول : لم يكن أبو تمام شاعرا إنما كان خطيبا وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر " . (٨)

---

١- ص ( ٥٩ - ٦٠ ) ، جـ١ ، أخبار أبى تمام للصولى .

٢- ص ( ٦٧ ) ، جـ١ ، المصدر السابق .

٣- ص ( ١٠٦ - ١٠٨ ) ، جـ١ ، المرجع السابق .

٤- ص ( ١٠٤ - ١٠٥ ) ، جـ١ ، نفس المصدر .

٥- ينظر جـ١ ، ص ( ١٠٩ - ١١٤ ) ، أخبار أبى تمام .

٦- ينظر جـ١ ، ص ( ١٢١ - ١٢٤ ) ، نفس المصدر .

٧- جـ١ ، ص ( ٤٢ ) ، أخبار أبى تمام .

٨- جـ١ ، ص ( ٢٤٤ ) ، المصدر السابق .

ويقول " ابن الأعرابى " وقد أنشد شعرا لأبى تمام : إن كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل " .(١)

وسئل " المتنبى " عن أبى تمام والبحترى فقال : أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى " .(٢)

وذهب معظم نقاد العصر الحديث أن أبا تمام شاعر عملاق وراحوا يشيدون به وبشعره ، يقول الدكتور شوقى ضيف : " يملأ شعره نفس قارئه فتوة وقوة لا بما يصوره من بطولة ليوث الغاب من العرب فحسب بل أيضا بما يصوره من بطولة نفسه واقتحامه للصعاب وما ظفر به من مجد فنى ... ثم وصف أشعاره بأنها : لآلىء تومض بالفكر الدقيق وبألوان البديع الزاهية ، لآلىء سوى منها عقود قصائده وقلائد شعره " .(٣)

ويقول الأستاذ : " نجيب محمد البهبيتى " : " ولست أعرف فى العربية كلها شاعرا كأبى تمام : من حيث فيض شعره وخصبه النفسى وغزارته ولا أعرف شاعرا خرج بالشعر العربى من دائرته الضيقة وأجراه مجرى القصص وتتبع فيه المعنى وراعى فيه اللفظ ووفق فى أن يكسو فنه بهذا الحس الشعرى الرائع توفيق أبى تمام ... فأبو تمام عندى شاعر العربية الأكبر لا أعدل به شاعرا آخر من شعرائها " .(٤)

---

١- جـ١ ، ص ( ٢٤٤ ) ، أخبار أبى تمام .

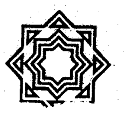
٢- ص ( ٢٢٧ ) ، جـ٣ ، المثل السائر .

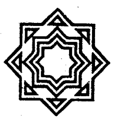
٣- ص ( ٢٨٩ ) ، العصر العباسى الأول ، د / شوقى ضيف ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة .

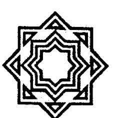
٤- ص ( ٢٤٢ - ٢٤٣ ) ، أبو تمام الطائى ، نجيب محمد البهبيتى ، طبع : دار الثقافة الدار البيضاء بالمغرب ، عام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

وإننى أرى أن أبا تمام شاعر العصر العباسى الأول دون منازع أو مشارك ويقف فى الصف الأول من شعراء العربية الأفذاذ ، وهو عندى أشعر من بشار وأبى نواس والبحترى وغيرهم من الشعراء ، إننا نستطيع أن نستغنى عن شعر بشار أو أبى نواس أو البحترى أو غيرهم ولكننا لا نستطيع أن نستغنى عن شعر أبى تمام الذى يمثل جوهرا واضحا لا يمكن الإستغناء عنه وإلا أحسسنا بفقد حلقة من الحلقات المتصلة أو بفقد عضو مهم من أعضاء الجسم ويكفه مكانة أنه حامل لواء الشعر العربى فى وقته وأنه صاحب مدرسة شعرية ومذهب فنى تتلمذ عليه كثير من الشعراء الذين جاءوا من بعده كالبحترى وابن الرومى والمتنبى وغيرهم من فحول الشعراء إلا أننى لا أرفعه على المتنبى فالمتنبى عندى هو شاعر العربية الأول ثم يعقبه أبو تمــام .

***







# " البنـــاء الفنـــى للمدحـــ عنـد أبـى تمـــام "

يعد المدح أهم الأغراض الشعرية وأكثرها شيوعا وانتشارا فى ديوان " أبى تمام " ويحتل مرتبة متقدمة على سائر أغراضه الشعرية الأخرى ويمثل أوسع ميادين شعر الشاعر وأهمها على الإطلاق نظرا لما يمثله من الخصائص الفنية ولاشتماله بوضوح على مذهب الشاعر الفنى الذى تميز به عما سواه من الشعراء الآخرين .

وإذا كان " أبو تمام " قد أكثر من شعر المدح فى ديوانه وطغى مدحه على سائر الأغراض الشعرية الأخرى فإن ذلك لم يكن بدعا أو أمرا مستغربا على " أبى تمام " الشاعر الذى قضى حياته كلها متخذا المدح وسيلة لرزقه وسبيلا لعيشه وطريقا من طرق التكسب حتى يحيا حياة طيبة كريمة ، فقد كان مدحه مصدر دخله ورزقه طوال عيشته مما جعله يكثر من المدح ويتخذ المدح حرفته وصنعته وجعله يتجه بمدحه إلى الخلفاء والوزراء والقواد والقضاة وعظماء القوم من بنى طيىء وبنى وهب ونال كثيرا من عطاياهم وجوائزهم الثمينة .

وقد استطاع " أبو تمام " بشاعريته الفذة ومقدرته وموهبته أن يصبح شاعر المدح الأول فى عصره وأيامه واستطاع أن يسد سبل العيش أمام غيره من المداحين من شعراء وقته فلما مات وخلت الساحة إقتسم الشعراء الآخرون فيما بينهم ما كان يأخذه " أبو تمام " بمفرده من جوائز وعطايا وهبات ومنح ثمينة .

ومدائح " أبى تمام " تعد فى الذروة لا من شعره وحده بل من شعر عصره كله والشعر العربى بوجه عام - اللهم إلا القليل منها التى أفسدها ببديعه وإغراقه فى الخيال والإكثار من الغريب اللفظى - وتعد بمثابة ملاحم شعرية رائعة وأصبحت القطع المتوهجة من شعره بل والشعر

العربى كله وحلقت فى أسمى أفق الشعر العربى وكتب لها البقاء والخلود .

وتميزت مدائح أبى تمام - وشعره بوجه عام - باقتران الفكر مع الشعور وتعانقهما دون انفصال ، حيث يرى الأشياء والأحداث بأرق المشاعر والحواس ثم يروح يعمل عقله وفكره فى تحليل حواسه ومشاعره ويأخذ فى إحداث المعانى ونظمها وترتيبها وإبرازها فى ألفاظ مختارة منتقاة ويرصها فى تؤدة وتأن ويزينها فى مهل ويلائم بين وقعها وألوانها مراعيا اللفظ وموقعه ووقعه مؤثرا الفكرة العميقة والترتيب بين الأفكار ترتيبا واضحا حتى تخرج القصيدة عملا فنيا متكاملا متماسكا كأنها الصخرة فى تماسكها وقوتها وتلازمها وتسلسلها دون نبو أو نفور أو اضطراب .

فالطابع العام لمدحته : شعور دقيق وحس رقيق ومعنى عميق يغوص إلى الباطن ويتغلغل إلى ما وراء الظواهر وفيها الفلسفة وصنعة البديع وفنيته ، فهو يخاطب الخاصة بشعره ويجبر قارئه على أن يكون مثقفا ثقافة واعية وأن يكون فى غاية الانتباه واليقظة حتى يستطيع أن يفهم شعره ويقترب مما يبغيه من معنى أو بعض ما يبغيه .

وتتميز مدائحه بشيوع الفن القصصى حتى تتحول المدحة إلى ملحمة من ملاحم البطولة التى تتجسم فى شخص بطلها الممدوح وتتحول صورة ممدوحه بفضل هذا الفن إلى صورة بطل عظيم من أبطال الملاحم القديمة .

وتمثل مدائحه سجلا تاريخيا حافلا بالأحداث السياسية والحربية والاجتماعية والإقتصادية التى حدثت فى عصره ، لأنه تتبع الأحداث التاريخية المختلفة وسجلها فى مدائحه ، فإذا قام الخليفة العباسى

بإحدى الحروب أو الغزو نظم فى ذلك شعرا ، وإذا هوجمت الدولة الإسلامية قال فى ذلك شعرا وإذا خرج خارج على الدولة أو حدثت فتنة نظم فى ذلك شعرا وإذا تم فتح أو إخماد ثورة قال فى ذلك شعرا يمدح الممدوح البطل ويصور جهاده وكفاحه وقوته وما قام به من أعمال وبطولات وأمجاد حتى إن معظم مدائحه تتصل بالتاريخ اتصالا وثيقا ومباشرا وبالتفصيل الواضح الذى قد يعجز التاريخ أحيانا عن تناوله .

كذلك طبعت فى مدائحه بوضوح تام صورة العربى المسلم حية غضة بما كان يعتلج فى نفوس العرب حينئذ من طموح وذكاء وفطنة وقوة وبطولة . حيث راح أبو تمام يمجد العرب ويتغنى بالبطولة الإسلامية مظهرا ما امتاز به العربى من خلال حميدة وما اتصف به المسلم من صفات رشيدة وقد سطر فى مدائحه صورة ماضى العرب التليد وأمجاد المسلمين السامية فى الماضى القريب والبعيد على السواء .

ولقد اتخذت المدحة عند أبى تمام صورا متعددة وأشكالا مختلفة وإننى أستطيع أن أقسم مدائحه إلى أقسام ثلاثة :

أولا : مدحة انتهج فيها نهج الأقدمين من : بدئها بمقدمة تقليدية كالمقدمة الطللية أو الغزلية أو مقدمة الظعن أو الشيب والشباب .

ثانيا : مدحة انتهج فيها نهجا جديدا لم يكن مألوفا من قبل فى الشعر العربى حيث جعل لها مقدمة جديدة أنشئت فى عصره أو اخترعها هو وسبق بها الآخرين .

ثالثا : مدحة خلت من المقدمة والتمهيد ، سواء كانت كلها خالصة للمدح فقط أو أشرك فيها غرضين أحدهما فن المدح .

***

" المدحة ذات النهج التقليدى "

تعد المدحة ذات النهج التقليدى أكثر ألوان المدح فى شعر الشاعر وتحتل المكانة الأولى فى مدائحه حيث بلغت مدائحه فى ذلك نحو ثمانين مدحة من بين مدائحه البالغة مائة وخمسة وسبعين قصيدة ، وقد استحوذت المقدمة الطللية على الجزء الأكبر والنصيب الأوفى من المقدمات التقليدية حيث استهل بها أكثر من خمس وأربعين مدحة ، وكان هذا النهج هو الغالب على مدائحه حيث لا يختلف فيه عن الأقدمين إلا قليلا وذلك بالتخفيف من بعض العناصر البدوية القديمة ، وظل الشاعر محافظا على هذا التقليد متمسكا به لأنه من الشعراء المحافظين الذين تمسكو بالأطر القديمة للقصيدة وحافظ على نهجها كما كان يفعل القدماء " حيث كانوا يفتتحون القصيدة بالنسيب وبكاء الأطلال وفراق الأحبة ويذكرون الرحيل والانتقال وتوقع البين والإشفاق منه وصفة الطلول والخيول ... وكان من عاداتهم فى شعر المدح أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاوز وما أنضى من الركائب وما تجشم من هول الليل وسهره وهول النهار وهجيره ..... ثم يخرج إلى مدح المقصود " .(١)

ويرى ابن قتيبة " أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمى والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين ثم وصل ذلك بالنسيب .. ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعى به إصغاء الأسماع إليه لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب ... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق فرحل فى شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وانضاء الراحلة والبعير فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره فى

---

١ - ص ( ١٥٠ - ١٥١ ) ، العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيروانى .

المسير بدأ فى المديح فبعثه على المكافأة وهزه للسماح وفضله على الأشـــباه » . (١)

فوصف الأطلال وبكاؤها والوقوف عندها فى مقدمة المدحة عند « أبى تمام » كان تقليدا حافظ عليه الشاعر وتمسك به « لتأصله وثباته ولدعوة العلماء له ولغيره من الشعراء أن يحرصوا عليه ويحتذوا به » . (٢)، فضلا عن أصالة الشاعر ومحافظته على التقاليد العربية الموروثة والدعوة إليها بل والإشادة والفخر بها للوقوف أمام نزعة الشعوبية الجارفة التى ظهرت فى العصر العباسى على أيدى الشعوبيين . فكأن أبا تمام بتمسكه بهذه المقدمة العربية القديمة يتصدى لدعوة أبى نواس بتركها والاستعاضة عنها بمقدمة جديدة كوصف الخمر التى دعا إليها ، لأن أبا تمام عربى أصيل فى عروبته ونسبه ودمه بخلاف « أبى نواس » حيث كان حاقدا على العرب شعوبيا اتخذ نهج القصيدة العربية وسيلة للطعن فى العرب والسخرية منهم داعيا إلى ترك ذلك النهج العربى الموروث ومن ذلك قولـــه : (٣)

أُترك الأطْلالَ لا تَعبأْ بهـــا   إنهـــا من كل بُؤْس دانيــــةْ
واشربْ الخمر على تحريمها   إنمـــا دنيـــاك دار فانيــــةْ

فلقد أصر « أبو تمام » على افتتاح كثير من مدائحه بهذه المقدمة الطللية

---

١- جـ١ ، ص ( ٧٤ - ٧٥ ) ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، طبع : دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م .

٢- ص ( ٢١٣ ) ، مقدمة القصيدة العربية فى العصر العباسى الأول ، د / حسين عطوان . دار المعارف .

٣- ص ( ٦٩٢ ) ديوان أبى نواس ، تحقيق : أحمد عبد المجيد الغزالى . دار الكتاب العربى ببيروت .

الموروثة على الرغم من أنه زعيم الشعراء المحدثين وكأنه كان يتحدى بذلك " أبا نواس " ومن سار على شاكلته ودعوته تحديا دافعه العصبية للعرب - الذى ينتمى إليهم - على العجم وحبا لهذا التقليد العربى الموروث ، ومن ذلك قصيدته التى يمدح فيها " أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى " والتى بدأهـا بقوله : (١)

من سجايا الطلول ألاّ تجيبــا ... فصــوابٌ من مقلةٍ أن تصوبــا

فاسألنها واجعل بكاك جوابــا ... تجـد الشوقَ سائـلاً ومجيبــا

قد عهدنا الرســوم وهى عكــاظ ... للصبى تزدهيك حُسْناً وطيبــا

أكثر الأرض زائــراً ومــزورًا ... وصعــودًا من الهــوى وصَبُوبــا

وكِعــابًا كأنمــا ألْبستهــا ... غَفَــلاتُ الشــبابِ بُرْدًا قشيبــا

بيَّن البينُ فَقْدَهَــا قلّمــا تعـــ ... ـــرف فقْــداً للشمسَ حتى تغيبــا

لعب الشيبُ بالمفارق بل جـــ ... ـــدَّ فأبكى تماضرا ولعـــوبا (٢)

خضبت خدَّها إلى لؤلؤ العقـــ ... ـــد دمًا أن رأت شَواتى خضيبا (٣)

حيث نرى الشاعر يبدأ مدحته بمقدمة طللية يتحدث فيها عن الأطلال وعما تحدثه فى نفسه بسبب اندراسها من آلام وأحزان ، هذا الإندراس الذى سبب لها الصمت والسكون بحيث لم تعد تسمع ولا تجيب على سائلها ، بل يسألها ولا ينتظر منها جوابا وعليه بالبكاء الذى يجيب به بعد سؤاله إياها ، هذا البكاء الذى يزيد من شدة شوقه وآلامه بعد أن رآها قد تغيرت عما كانت عليه من قبل : فقد كانت زاخرة بالأهل ويجتمع

---

١- جـ١ ، ص ( ١٥٧ ) وما بعدها ، ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ، تحقيق / محمد عبده عزام ، طبع : دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ، من بحر : الخفيف .

٢- تماضر ولعوب : من أسماء النساء .

٣- الشوى : الأطراف .

عندها الكثيرون من الناس يتبادلون الحب والهوى كأنها سوق عكاظ التى كان يجتمع فيها العرب ويتناشدون الأشعار ويتفاخرون ، ثم وصف أهل الديار وبين جمالهم وتغزل بحسنهم ثم انتقل إلى الحديث عن الشيب وراح يذمه ويرى أنه سبب له المآسى والأحزان وكان سببا فى إعراض الأحبة عنــه فيقــول :

كلّ داءٍ يُرْجى الـــدواءُ له إلاّ — الفظيعين : ميتـــةً ومشيبــــا
يانسيب الثّغـــام ذنبُـــك أبقى — حسناتى عند الحسان ذنوبــا (١)
ولئنْ عِبْنَ ما رأيْن لقد أنــــ — ـكرن مســتنكرا وعِبْنَ معيبــا
أو تصدّعْنَ عن قلىً لكفى بالشـ — ـيب بينى وبينهــن حسيبــا
لو رأى اللهُ أن للشيب فضْــلا — جاورته الأبرارُ فى الخُلد شيبــا

ثم انتقل الشاعر بعد ذلك إلى مدح الممدوح بقوله :

كل يوم تبدى صروف الليـــالى — خلقـــاً من أبى ســعيد رغيبــا
طاب فيه المديـــح والتذّ حتى — فاق وصف الديـــار والتشبيبــا

وراح يمدحه فى بقية أبيات القصيدة مشيدا به معددا مثله وخصاله وأفعاله واصفا قوته وشجاعته وكرمه وجوده وفضله فى سبيل تقوية الدين وعزته وما قام به من بطولات فى ساحات الحروب والمعارك .

فالشاعر قد جعل المقدمة الطللية مقدمة لمدحته ثم راح يصف الشيب وذلك فى نحو ثلاثة عشر بيتا من مجموع أبيات القصيدة التى تبلغ خمسة وخمسين بيتا ، ونراه يتخفف فى مقدمته من بعض العناصر القديمة فى المقدمة فلم يتعرض لوصف الصحراء أو الرحلة والراحلة وإنما اقتصر على الحديث عن الأطلال وأشرك معها الحديث عن الشيب متخذا منها

---

١- يانسيب الثغام : يعنى أن الشيب يشبه الثغام فى البياض ، والثغام : نبت أبيض .

مقدمة لمدحته مكثرا من ألوان البديع خاصة : الجناس والطباق فى ثنايا مدحته ، ومكثرا من المعانى والصور الجميلة البارعة والصائبة التى أشاعها فى مدحته ، وقد استحسن " الآمدى " القصيدة وما فيها من معان دقيقة فقال : " وهذه فلسفة حسنة ومذهب من مذاهب أبى تمام ليس على مذاهب الشعراء ولا طريقتهم " .(١)

ومن مدائحه التى استهلها بمقدمة طللية : مدحته التى مدح بها " خالد بن يزيد الشيبانى " والتى بدأها بقوله : (٢)

لقد أخذتْ من دار ماوية الحقب … أنحلُ المغانى للبلى هى أَمْ نَهْبُ ؟
وعهدى بها إذ ناقص العهد بدرُها … مُراح الهوى فيها ومسرحه الخِصب
مؤزرة من صنعة الوبل والندى … بوشى ولا وشْىٌ وعصْب ولا عصب
تحيّر فى آرامها الحُسْنُ فاغتدت … قرارة من يُصْبى ونُجْعَة من يصْبو
سواكنٌ فى برّ كما سكن الدُّمى … نوافر من سوءٍ كما نفر السِّرْبُ
كواعبُ أترابٌ لِغَيْدَاء أصبحتْ … وليس لها فى الحسن شكل ولا تِرْبُ
لها منظر قيد النواظر لم يزل … يروح ويغدو فى خفارته الحبّ
يظل سراة القوم مثْنى وموحدا … نشاوى بعينيها كأنهم شَرْبُ
إلى خالد راحت بنا أَرْحَبِيَّةٌ … مرافقها من عن كراكرها نكب
جرى النجد الأحوى عليها فأصبحت … من السير وُرْقا وهى فى نجدها صهب
إلى ملكٍ لولا سجالُ نواله … لما كان للمعروف نِقْىٌ ولا شُخْبُ

١- ص ( ٤٩٩ ) ، الموازنة بين أبى تمام والبحترى .

٢- ص ( ١٧٧ ) وما بعدها ، جـ ١ ، ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ، والقصيدة من بحر الطويل .

المدحة ستة وخمسون بيتا ، مهد الشاعر لها بمقدمة طللية تبلغ نحو عشرة أبيات تحدث فيها عن الديار وما أحدثته الأيام والدهور فى تعفيها وتغيير معالمها وإحداث الخراب بين جنباتها بعد أن كانت عامرة بالأحبة والهوى والحسان النواعم ، ثم تغزل فى سكانها ووصف حسنهن وجمالهن ثم انتقل إلى وصف الرحلة والراحلة ثم خلص منها إلى مدح ممدوحه بقـــوله :

إلى ملك لولا ســجال نــــواله    لما كان للمعروف نِقْيٌ ولا شـخْبُ

من البيض محجوبٌ عن الســـوء والخنـا    ولا تحجـــب الأنـــواءَ من كفـــه الحجْبُ

مصونُ المعـــالي لا يزيـدُ أذاله    ولا مَزيدٌ ولا شـــريكٌ ولا الصلبُ

وأخذ يمدح ممدوحه ويشيد به إشادة عظيمة ويعدد صفاته ومثله مشيدا بقوته وشجاعته وجوده وكرمه وحسبه ونسبه وسداد رأيه ورجاحة عقله وأهله وأجداده وما كان لهم من مآثر وأمجاد فى تاريخ العرب منذ القدم ، وما فعله الممدوح بالروم من تحقيق النصر على ملكهم " توفيل " وكان نصره نصرا للإسلام على الصليبين .

وقد صور " أبو تمام " المعركة التى دارت بين ممدوحه و " توفيل " قائد الروم تصويرا بارعا مفصلا القول فى أحداث المعركة ذاكرا الأسماء بعينها مظهرا عظمة النصر الذى حققه " خالد " القائد العربى المسلم على الروم أهل الكفر والإلحاد .

ثم يختم الشاعر قصيدته بخاتمة تحدث فيها عن قصيدته وروعتها وراح يشيد بها ويفتخر وذلك فى خمسة أبيات آخر المدحة .

فالشاعر قد جعل للمدحة مقدمة وموضوعا وخاتمة وبنى بعضها فوق بعض حتى أصبحت المدحة عملا فنيا متكاملا ، جاعلا للموضوع معظم أبيات المدحة حيث مدح ممدوحه فى نحو واحد وأربعين بيتا من جملة أبيات القصيدة البالغة ستة وخمسين بيتا وخص المقدمة بعشرة أبيات والخاتمة بخمسة أبياتٍ منها متجنبا بذلك مآخذ النقاد الذين عابوا طول المقدمة على الغرض الأصلى للقصيدة حيث يقول ابن رشيق : " ومن عيوب هذا الباب أن يكون النسيب كثيرا والمدح قليلا " .(١)

وقد اعتمد الشاعر فى مدحته على ألوان البديع اعتمادا واضحا وأشاع ذلك فى مدحته خاصة الجناس والطباق والاستعارة وراح يطلب المعنى البعيد والجديد المخترع البديع مهتما بالفكرة اهتماما بالغا ، فالفكرة عنده هى المعول الأساسى لشعره ثم يأتى بعد ذلك الشعور .

ومن مدائحه التى مهد لها بمقدمة طللية قصيدته التى مدح بها " أبا دلف العجلى " والتى بـــدأها بقوله : (٢)

على مثلهـا من أربـــع وملاعـــب    أذيلت مصونات الدمـــوع السـواكب
أقول لقرحانٍ من البين لم يضف    رسيس الهوى تحت الحشا والترائب
أعنّى أفرق شـــمل دمعـــى فإننى    أرى الشـــمل منهم ليس بالمتقـــارب

وهى مدحة رائعة استهلها " أبو تمام " بمقدمة وقف فيها على الديار وبكى عليها بكاء حارا معبرا عن حبه ومشاعره واصفا خواطره متوجها إلى لائمه فى الوقوف عليها طالبا منه أن يتركه لشأنه ثم وصف الرحلة

---

١- جـ١ ، ص ( ٢٣٢ ) ، العمدة لابن رشيق .

٢- جـ١ ، ص ( ١٩٨ ) وما بعدها ، ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ، والقصيدة من البحر الطويل .

والناقة وذلك في مقدمة تبلغ نحو ثلاثة عشر بيتا تخلص منها إلى مدح « أبا دلف » بقـــوله :

إذا العيسُ لاقت بي أبا دلفٍ فقد    تقطّـــع ما بيني وبين النـــوائب
هنالك تَلْقىْ الجودَ حيث تقطعت    تمائمه والمجـــدُ مُرْخَى الذوائب
تكاد عطايـــاه يُجَـــنّ جنونُهـــا    إذا لم يعوِّذها بنغْمـــةِ طالـــب
إذا حركتـــه هزّةُ المجْـد غيّـرتْ    عطاياه أسـماء الأمـانى الكواذب
تكاد مغانيـــه تَهـشُّ عِراصُـــها    فتركب من شـوقٍ إلى كل راكـب
إذا ما غـــدا أغـــدى كريمةَ ماله    هَديـــًّا ولو زُفّـتْ لِألأم خـاطب

ومضى يمدح ممدوحه مدحا رائعا مشيدا بجوده وكرمه وحسبه ونسبه وأهله متخذا من التاريخ العربى القديم مادة خصبة لمعانيه ومن أعمال الممدوح وبطولاته وجهاده منطلقا رحبا للإشادة به وتعداد فضائله ومناقبه مظهرا قوته وشجاعته فى ساحات المعارك والحروب :

إذا افتخرتْ يوما تميمٌ بقوسها    وزادت على ما وطّـدتْ من منـاقب
فأنتم بذي قارٍ أمالتْ سيوفُكم    عروشَ الذين استرهنوا قوسَ حاجب

ثم يختم « أبو تمام » مدحته بخاتمة تحدث فيها عن قصيدته وأشاد بروعتها وبراعتها وغرابتها وافتخر بذلك قائـــلا :

إليكَ أرحْنَا عازبَ الشعر بعْدَ ما    تمهّل فى روض المعانى العجائب
غرائب لاقتْ فى فنـائك أنْسَـها    من المجـد فهى الآن غير غرائب
ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرتْ    حياضُك منه فى العصور الذواهب
ولكنه صَوْبُ العقـول إذا انجلتْ    سـحائب منه أعْقبتْ بسـحائب

ويطلب عطاء الممدوح فى آخر مدحته بقـــوله :

وإني لأرجـــو أن تَـــرُدَّ ركائبي    مواهبـه بحـرًا ترجّـى مواهبي

نجد " أبا تمـــام " ـ كعـــادته ـ يقســم مدحته ثلاثـة أقســام : مقدمة : تحدث فيها عن الديار وبكى الأطلال ووصف الرحلة والراحلة ، وموضوع : وهو الغرض الأصلى للقصيدة : مدح الممدوح ، وخاتمة : تحدث فيها عن قصيدته وروعتها وطلب عطاء الممدوح ، كل ذلك فى ترتيب دقيق ونظام واضح حتى ظهرت المدحة عملا فنيا متكاملا تتصل أجزاؤها بعضها البعض اتصالا وثيقا محكما .

وقد اعتمد " أبو تمام " اعتمادا كبيرا على ألوان البديع فى تصوير صوره وإبراز معانيه وجعل ذلك غاية وهدفا مقصودا لقصيدته وراح يصول ويجول ويبتكر المعانى ويغوص وراءها ويبرز لنا صورا شعرية رائعة يحدوها العقل والحس معـا مهتمـا بالفكـرة اهتمـاما عظيمـا متخـذا من " البحر الطويل " وزنا لقصيدته مما زاد من قوتها وتماسك بنيانها .

ومما يدل على روعة المدحة ما رواه " الصولى " قائلا : " فلما أنشدها ـ أى هذه المدحة ـ أبو تمام أبا دلف " وكان عنده جماعة من أشراف العرب والعجم .. قال أبو دلف : يامعشر ربيعه ما مدحتم بمثل هذا الشعر قط فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم وعمائمهم يرمون بها إليه ، فقال " أبو دلف " : قد قبلها وأعاركم لبسها وسأنوب فى ثوابه عنكم .. وأمر له بخمسين ألف درهم وقال : والله إنها لدون شعره " (١)

وقد أشاد بمطلع القصيدة " الآمدى " فقال معقبا عليه : " والبيت

---

١- ص ( ١٢١ - ١٢٤ ) أخبار أبى تمام - للصولى ، تحقيق : خليل محمود عساكر ، ومحمد عبده عزام ، ونظير الإسلام الهندى ، المكتب التجارى للطباعة بيروت .

جيد لفظا ومعنى ونظما " .(١) ، والحقيقة إن القصيدة بأكملها جيدة لفظا ومعنى ونظما .

ومن مدائحه التى استهلها بنفس المقدمة التقليدية : مدحته " لمحمد ابن عبد الملك الزيات " والتى استهلها بقـوله : (٢)

قد نابت الجزْع من أُرْوِيَّةَ النـوبُ   واستحقبت جـدةً من ربعـها الحقبُ
أَلْوى بصبرك إخلاق اللـوى وهفا   بِلُبِّكَ الشـوقُ لمـا أقفـر اللّبب
خَفَّتْ دموعُك فى إثر الحبيب لَدُنْ   خَفَّتْ من الكُثُبِ القضبـان والكُثُبُ
من كل ممكورةٍ ذاب النعيـمُ لها   ذوبَ الغمـام فمنـهلٌ ومنسـكبُ
أطاعهـا الحسْـنُ وانحـط الشـباب على   فؤادهـا وجـرتْ فى روحـها النّسـبُ
لم أنْسَـها وصروفُ البين تظْلِمُـها   ولا مُعَـوّلَ إلا الواكـفُ السَّـربُ
أَدْنَتْ نقاباً على الخدّيْن وانتسبتْ   للنـاظرين بقَـدٍّ ليس ينتسـبُ
ولو تبسَّـم عُجْنَـا الطرْفَ فى بَرَدٍ   وفى أقـاح سـقتها الخمـرُ والضَّرَبُ
من شـكْلِه الدّرُّ فى رَصْـف النظـام ومن   صفـاته : الفتنتـان : الظّلْـمُ والشَّـنبُ
كانتْ لنا ملعبـاً نلهـو بزخْـرفه   وقـدْ يُنفِّسُ عن جـدِّ الفتى اللّعبُ
وعاذل هـاج لى باللـوم مأْرُبَةً   باتتْ عليـها همـومُ النفس تصْطخبُ
لمّا أطال ارتجال العـذْل قلتُ له   الْحزْم يثْنى خطوبَ الدهْر لا الخطبُ

فهذه المقدمة تحدث فيها " أبو تمام " عن تعفى الدهور للديار وأثر ذلك على نفسه وقلبه ومشاعره ، ثم راح يتغزل بمحبوبته مصورا حسنها

---

١- ص( ٤٥١ ) ، جـ ٣ ، الموازنة . للآمدى ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، عام ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

٢- جـ ١ ، ص( ٢٣٩ - ٢٥٩ ) ، ديوانه بشرح التبريزى ، القصيدة من بحر : البسيط .

وجمالها : فهى مطوية الخلق ، ناعمة ، حية الفؤاد ، محبوبة . روحها لطيفة ، متنقبة ، حسنة القوام والجمال ، أسنانها نور الأقاحى فى بياضه وصغره ومائه ولطافته ، بل هى الدر فى صفائه ونظامه ، وريقها برد عذب صاف أخاذ ، ثم راح يؤنب لائمه وعاذله ثم انتقل إلى مدح ممدوحه بقوله :

لم يجتمع قطّ فى مصْرٍ ولا طرف — محمـد بن أبى مـروان والنـوبُ
لي من أبى جعفرٍ آخيّةٌ ســبب — إن تبق يُطلب إلى معروفىَ السببُ

وأخذ " أبو تمام " يشيد بممدوحه ويركز على صفات : الكرم والشجاعة والحزم والعزم والعدل مبينا جهوده فى إعزاز الدولة وإشاعة الأمن والأمان فى ربوعها داخليا وخارجيا .

ثم اختتم - كعادته - قصيدته بخاتمة تحدث فيها عن قصيدته وفضلها وروعتها وغرابتها وراح يفتخر بها افتخاره المألوف .

فالشاعر قسم المدحة أقساما ثلاثة : مقدمة وموضوعا وخاتمة وكل منها متصل بالآخر مكمل له فى نسيج مؤتلف وعمل أدبى مكتمل ، وقد جعل الشاعر النصيب الأوفى فى قصيدته للمدح حيث استغرق أكثر من أربعين بيتا بينما أخذت المقدمة نحو اثنى عشر بيتا والخاتمة سبعة أبيات .

وقد بنى الشاعر قصيدته على بحر " البسيط " وهو أحد البحور الطوال التى تلائم شعر المدح وتتفق معه .

وقد اقتصر " أبو تمام " فى مقدمته على الوقوف على الديار والتغزل بأهلها إلا أنه لم يصف المفاوز والرحلة وآلامها والراحلة وتعبها مما يدل

على أنه لم يحتفظ فى المقدمة بكل التقاليد الموروثة بل خفف من عناصرها تخفيفا واضحا إلا أنه حافظ على التقليد فى بدء المدحة بالمقدمة الطللية وتمسك به .

وقد ألح الشاعر إلحاحا شديدا على توليد المعانى واستخراج الصور واعتمد اعتمادا كبيرا على ألوان البديع وأظهر فى ذلك مهارة فائقة أثبت بها مقدرته وفنيته وتحولت القصيدة على يديه إلى معان وصور وأفكار عجيبة غريبة خلع عليها من بديع فكره وطريف خياله وبديع صنعتـــه .

ومن مدائحه التى مهد لها بالمقدمة الطللية ، مدحته : " لمالك بن طوق " والتى بدأها بقـــوله : (١)

قِفْ بالطلول الدارساتِ عُلاثـــا ... أمستْ حِبالُ قطينهنَّ رِثاثـــا (٢)
قَسَمَ الزمانُ ربوعَها بين الصَّبـــا ... وقَبُولِهـــا ودَبُورِهـــا أثْلاثـــا
فتأبدتْ من كل مُخْطفةِ الحَشَـــا ... غَيْـداءَ تَكْسَى يارَقاً ورعَـــاثاً (٣)
كالظبية الأدْمـــاءِ صافَتْ فارْتَعتْ ... زَهَرَ العَرارِ الغَضِّ والجَثْجاثا (٤)
حتى إذا ضَرَبَ الحَرِيفُ رِواقَهُ ... سَافتْ بريـــرَ أَراكةٍ وكَبَـــاثا (٥)
سَيَّافَةَ اللَّحظات يَغْـدُو طَرْفُها ... بالسِّـحْرِ فى عُقَدِ النُّهى نفَّـــاثا
زالتْ بعيْنَيك الحُمُـولُ كأنهـــا ... نخْلٌ مواقِـــرُ منْ نخيلِ جُواثا (٦)

---

١- جـ١ ، ص ( ٣١١ - ٣٢٢ ) ، ديوان الشاعر بشرح التبريزى ، القصيدة من البحر الكامل .

٢- العلاث : معناه : الخلط : أى اخلط فى أفعالك وقوفك بهذه المنازل ، القطين : أهل الدار .

٣- تأبدت : خلت ، اليارق : ضرب من الحلى ، الغيداء : الطويلة العنق ، الرعاث : القرط .

٤- صافت : أتى عليها الصيف ، العرار والجثجاث : نباتان طيبا الرائحة .

٥- البرير والكباث : نوعان من ثمر الأراك ، سافت : شمت .

٦- جواثا : موضع يكثر فيه التمر والنخيل .

يَوْمَ الثُّلَاثَا لنْ أزالَ لِبينْهم ... كَدرَ الفؤاد لِكُلِّ يوم ثُلاثا
إن الهموم الطّارقاتِكَ موْهِنا ... مَنَعتْ جفونك أن تذوق حَثَاثا (١)
ورأيْتَ ضَيْفَ الهمِّ لا يَرْضىٰ قِرىً ... إلاّ مُداخَلةَ الفَقَار دِلَاثا (٢)
شَجْعَاءَ جِرّتُها الذَّميلُ تَلُوكُهُ ... أُصُلاً إذا راح المَطِيُّ غِرَاثا (٣)
أُجُداً إذا وَنَتِ المَهَارىٰ أرْقَلَتْ ... رَقَلاً كتحْريقِ الغَضَا حَثْحَاثا (٤)

هذه الأبيات جعلها « أبو تمام » مقدمة لمدحته وقد وقف فيها على الديار الدارسة وراح يبكى ديار حبيبته ويطلب الوقوف بهذه المنازل ، ويصور ما فعلته الرياح بها وما حل بها من خراب ووحشة بسبب خلوها من الحبيبة التى كانت تقيم فيها ، هذه المحبوبة الجميلة اللينة الخصر ، الطويلة العنق التى تشبه الظبية ، ذات الرائحة الطيبة والنظرات الصائبة ثم راح الشاعر بعد ذلك يصف الرحلة والناقة وصفا مستفيضا : فناقته جريئة على السير ، سريعة ، طويلة ، صبورة ، نشيطة ، تصل السير بالسرى ، باقيا نشاطها إذا حسرت الإبل وضعفت قواها ، صلبة، وثيقة الخطى .

وبعد ذلك راح يمدح ممدوحه متخلصا من مقدمته إلى الغرض الأصلى تخلصا حسنا فيقول :

طلبتْ فتى جُشَمِ بْنِ بكر مالِكا ... ضِرْغامها وهزَبْرَها الدِّلْهَاثا (٥)

---

١ - حثاثا : نوما قليلا .

٢- الفقار : خرز الظهر ، الدلاث : الناقة الجريئة على السير .

٣- الشجعاء : الطويلة ، الجرة : ما تخرجه الناقة من جوفها إلى فمها وتجتر به ، تلوكه : تمضغه ، الذميل : السير السريع ، الأصل : العشية ، الغراث : الجياع .

٤- حثحاث : سريع .

٥- دلهاث : جرئ .

مَلِكٌ إذا اسْتُسقِيتَ مزْنَ بَنَانِـهِ ... قَتَلَ الصَّدى وإذا استغثْتَ أغاثا
قدْ جَرَّبتْهُ تغْلِبُ ابْنَةُ وائِـلٍ ... لا خَاتِراً غُـدَراً ولا نَكَّـاثا (١)
مِثْلُ السبيكةِ ليس عَنْ أعْرَاضِهَا ... بالْغيبِ لا نَدُسـاً ولا بَحَّـاثا (٢)

ويستمر الشاعر فى مدح ممدوحه بنفس القوة فى الأسلوب والإكثار من الألفاظ الغريبة المعجمية والإغراب فى المعانى والإبتكار فى الصور معتمدا على مذهبه الفنى اعتمادا واضحا فى تصوير صوره وإبراز معانيه مكثرا من ألوان البديع خاصة : الجناس والطباق والاستعارة ، واصفا ممدوحه بصفات : القوة والشجاعة ، والكرم والجود وعراقة النسب وطيب الأصل والمعدن والوفاء والكتمان للسر ، عفوف ، بارز كالشمس ، حليم ، عفيف .

والشاعر قد اقتصر فى قصيدته على المقدمة وعلى الموضوع الأصلى ولم يختم قصيدته بالحديث عنها كعادته .

وقد عاب " الآمدى " فى موازنته البيت الثانى قائلا : " وهذا غلط منه لأن الصبا هى القبول ولو قال : بين الصبا وشمالها وجنوبها أثلاثا كان قولا مستقيما لأن هذه الرياح الثلاث أكثر هبوبا من الدبور ولو اقتصر على ريحين كان ذلك أيضا صوابا " . (٣) إلا أنه أشاد بالمطلع وقال : إنه ابتـــداء صالـــح " . (٤)

١- الخاتر : الغادر العنيف فى غدره ، النكاث : الذى ينكث العهد .
٢- الندس : الذى يكشف الأمور عن أخبار الناس .
٣- ص ( ٤٩٢ ) جـ ٣ ، الموازنة .
٤- جـ ٣ ، ص ( ٤٣٠ ) ، الموازنة .

وقد اختار الشاعر لقصيدته " بحر الكامل " وهو من البحور الطويلة القوية التى تناسب شعر المدح ، ويعد أكثر بحور الشعر استخداما فى مدائحه بل فى شعره كله مخالفا بذلك الفحول من الشعراء الذين آثروا بحر : الطويل على البحور الأخرى فى مدائحهم .

ومن مدائحه التى بدأها بالمقدمة الطللية مدحته فى " الفضل بن صالح ابن عبد الملك بن صالح " والتى بدأها بقـوله : (١)

أَهْدِ الدمـوعَ إلى دارٍ ومَاصِحَها      فللمنـازل سـهْمٌ فى سـوافحِها (٢)
أَشْلىَ الزمـانُ عليـها كلَّ حادثةٍ      وفُرقةٍ تُظْـلِمُ الدنيـا لِنـازحِها (٣)
حَلفْتُ حقـًا لقدْ قلَّتْ مَلاَحَتُـهاَ      بمـنْ تُخِـرِّمَ عنـها من مَلائِحِـها
إنْ تبْرَحـا وتباريحي على كَبـِد      ما تَسْـتَقِرّ فدمْـعي غيـرُ بارحِـها
دارُ أُجلِّ الهَـوى عنْ أَنْ أُلمَّ بهَا      فى الركب إلاّ وعينى من مَنائحها (٤)
إذا وصَفْتُ لنفسى هجْرَها جَنحَتْ      ودَائـعُ الشـوق فى أقْصى جوانحها
وإنْ خطبْتُ إليهـا صَبْرَهَا جعلتْ      جِرَاحَـةُ الوَجْـدِ تدْمى فى جَوارحها

حيث نرى الشاعر يبدأ مدحته بالوقوف على الديار وبكاء الأطلال ويصف ما حل بالديار من خراب وحوادث بعد أن كانت عامرة بالحب وأهل الهوى ويرى الشاعر أن الديار أصبحت موحشة وذهب حسنها بغياب الحبيبة عنها ، ويعبر الشاعر عن مدى شوقه وحرقة كبده واستمرار

---

١- جـ١ ص( ٣٤٤ وما ) ، ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ، بحر : البسيط .
٢- ماصحها : من قولهم : مصح الشئ إذا غاب فى الأرض ، مصح : درس وذهب .
٣- الإشلاء : الإغراء .
٤- ألم بها : أنزل بها .

بكائه عليها ثم يعظم الديار تعظيما لأهلها ويرى أن كل عضو من أعضائه موهون مجروح ينزف دما حزنا وألما على ما ألم بالديار ونزوح حبيبته عنها .

وبعد أن وقف " أبو تمام " على الديار وبكى الأطلال إنتقل إلى وصف الرحلة والراحلة وراح يصف ناقته وصفا مستفيضا موضحا سرعتها وقوتها وبشدة سيرها بحداء الإبل مصورا ما قاسته من متاعب ومصاعب حتى حطت رحلها إلى الممدوح . فيقول :

ما للفيـافي وتلك العيسِ قد خُزِمتْ    فلمْ تَظَلَّـمْ إليها مِنْ صَحَاصِحِها (١)
فُتْلٌ إذا ابتكـر الغـادي على أَمَلٍ    خَلَفْنَهُ يَزْجُرُ الحَسْرَى بَرائِحِها (٢)
تُصْغِي إلى الحَدْوِ إصْغاءَ القيانِ إلى    نَغْمٍ إذا اسْتَغربْتَهُ من مُطارِحِها (٣)
حتى تؤوبَ كأنَّ الطلْـحَ مُعْـتَرِضٌ    بشوْكِهِ فى المآقي من طَلائحِها (٤)
إلى الأكـارمِ أفعَـالاً ومُنْتَسَـباً    لَم يَرْتَعِ الذَّمُّ يوْمـاً فى طَوائحِها

ويستمر فى مدح قوم الممدوح ويشيد بهم ويعدد خلالهم ومكارمهم . فيرى أنهم كانوا آساس " مكة " وأنهم أمنوا بها قبل حصول الحمام بها ، وكانوا الجبال لها،ثم راح يخص الممدوح بالمدح مادحا إياه بالإسم الصريح فيقول :

والفضلُ إنْ شَمِلَ الإظْلام ساحَتها    مِصْباحُها المُتَجلِّي مِنْ مَصابِحِها
مِنْ خيْرِها مغْرِسـاً فيها وأوسَعِها    شَـعْباً تَحطُّ إليه عيرُ مادِحِها

---

١- الصحاصح : الأرض الواسعة .

٢- فتل : أى فتل المرافق ، الحسرى : جمع حسير .

٣- مطارحها : الذى يعلمها الغناء .

٤- الطلح : شجر له شوك .

ويستمر فى مدح " الفضل " معددا مثله وصفاته خاصة صفات : الشجاعة والكرم وعراقة الأصل ، ثم يختم القصيدة بطلب العطاء من الممدوح .

فالشاعر قد التزم النهج التقليدى لمدحته إلى حد بعيد؛حيث بكى الديار ووصف الرحلة والراحلة وتعرض لذكر الصحراء كما كان يفعل الجاهليون وإن تخفف بعض الشىء عنهم فلم يحذهم حذو النعل للنعل ، ثم انتقل فى حسن تخلص إلى مدح الممدوح ومدحه بأوصاف قديمة عرفها شعر المدح من قبل فضلا عن الألفاظ الضخمة الغريبة التى استخدمها كما كان يفعل الجاهليون ، فالشاعر مقلد فى النهج والألفاظ والمعانى والصور وإن كانت له بعض الصور والمعانى الجديدة فضلا عن الإكثار من ألوان البديع والتفنن فيها إلى حد بعيد تفننا لم يألفه الشعر العربى من قبل وبطريقة لم يألفها الشعر من قبل أبى تمام .

ومن هذا القبيل قصيدته التى يمدح فيها " خالد بن يزيد بن مَزيد الشيبانى " والتى بدأها بقوله : (١)

طَلَلَ الجميع لقدْ عَفَوْتَ حميـدا    وكَفَى على رُزْئي بـذاك شهيدا
دِمَنٌ كأنَّ البَيْنَ أصْبَحَ طـالبا    دِمَنًا لدَى آرامِـها وحُقُـودا
قَرَبَتْ نازِحَةَ القلوب من الجَوَى    وتركْتَ شأْوَ الدمْع فيكَ بعيدا
خَضِلاً إذا العَبَرَاتُ لم تبرحْ لها    وَطَناً سرى قَلَقَ المَحَلِّ طَرِيدا

وظل " أبو تمام " يصور إقواء الديار وتعفيها ويخاطبها ويبكى عليها بدموع غزار موضحا أثر اندراسها على نفسه ثم راح يتغزل فى المحبوبة

١- جـ١ ، ص( ٤٠٥ - ٤٢٢ ) ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ، بحر الكامل .

مبرزا فتنتها ثم انتقل إلى وصف الرحلة والناقة وتخلص من ذلك إلى مدح الممدوح . وقد استغرقت المقدمة نحو خمسة عشر بيتا من مجموع أبيات القصيدة التى بلغت خمسين بيتا حيث جعل الجزء الأكبر منها لأبيات المدح وذاك هو الحسن الجيد ، فضلا عن أنه اختار بحر : الكامل وزنا لمدحته وهو من البحور الطويلة الملائمة لشعر القوة خاصة شعر المدح . والشاعر فى قصيدته متخفف من استخدام الألفاظ الغريبة المعجمية مكثر من استخدام أصباغ البديع خاصة الجناس والطباق فضلا عن الإستعارة التى أشاعها فى مدحته وجعلها متكأ أساسيا فى مادته .

وقد أعجب " الآمدى " بمقدمة المدحة قائلا : " وهذا من جيد ألفاظه وصحيح معانيه ، وغرضه فيما وصف من الدمع غرض حسن " (١) ، وحينما سمع " البحترى " هذه القصيدة أعجب بها واستحسنها " وفزع وقال : لا يحسن هذا الإحسان أحد غيره " (٢) ويعنى بذلك أبا تمام .

ومن مدائحه التى استهلها بمقدمة طللية : مدحته التى مدح فيها " أبا العباس نصر بن منصور بن بسام " والتى بدأها بقوله : (٣)

أأطْلالَ هنـــدٍ ساء ما اعْتَضْتِ من هنـــدِ
أقايضْتِ حُورَ العين بالعُـون والرُّبْـدِ (٤)
إذا شئن بالألْـــوان كنّ عصـابةً    من الهِنْدِ والآذانِ كن من الصُّغْدِ (٥)

---

١- ص ( ٤٧٥ ) الموازنة .

٢- ص ( ١٠٦ - ١٠٨ ) أخبار أبى تمام للصولى .

٣- جـ٢ ، ص ( ٥٩ - ٦٧ ) ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ، بحر الطويل .

٤- العون : جمع عوان من الوحش ، والربد : جمع أربد وربداء والربدة : غبرة إلى السواد .

٥- الصغد : أهل بلاد منها سمرقند .

لَعُجْنا عليــك العيسَ بعــد مَعَــاجِها
على البيض أتْرابًا على النّـؤْي والوَدِّ (١)
فلا دَمعَ ما لم يجْرِ فى إثْره دمٌ ولا وجْـدَ ما لم تَعْيَ عن صفة الوَجْدِ
ومقْـدودةٍ رُؤْدٍ تكـاد تقـدُّها إصابتُها بالعين من حَسَـنِ القدِّ (٢)
تُعصْفرُ خدّيْها العيـونُ بحُمْرةٍ إذا وردتْ كانت وبـالاً على الورْد
إذا زهّـدتْني فى الهـوى خيفةُ الرّدى
جَلَتْ لِيَ عنْ وجْـهٍ يزهّـدُ فى الزّهْـد
وَقفْـتُ بـها اللّـذاتِ فى متنفسٍ
من الغيث يسْقي روضةً فى ثرىً جَعْـدِ (٣)
وَصَفْراءَ أحْدَ قْنَابها فى حدائق تجودُ من الأثْمار بالثّعْد والمَعْـدِ (٤)
بِقـاعيّةٍ تجـري علينـا كئوسُـها
فَنبدي الذى تُخْفي ونخفي الذى تُبدي (٥)

بدأ * أبو تمام * مدحته بالحديث عن الأطلال ومخاطبتها وتصوير ما حل بها من وحشة بعد أن ارتحلت صاحبته عنها وحلت بقر الوحش محلها وسكنتها الظلمان بعد محبوبته وراح يتحسر على الأيام الماضية التى كان يزور فيها محبوبته فى هذه الديار وأخذ يبكى بعيون دامعة ممزوجة بالدم ثم راح يتغزل فى صاحبته ويصور حسنها وجمالها فهى : حسنة القد وتصاب بالعين لأجل قدها الجميل ، متثنية ، محمرة الخدين ،فاقت الورد فى

١- لعجنا : لطفنا ، الود : لغة فى الوتد .

٢- رؤد : متثنية .

٣- الجعد : الندى .

٤- الثعد والمعد : الغض .

٥- بقاعية : نسبة إلى البقاع وهو مكان فى لبنان .

جمالها ، جميلة الوجه، بهية الحسن والجمال ؛ ثم وصف الشاعر الخمرة في بيتين.ثم انتقل إلى مدح الممدوح بقوله :

لنا شَـظَفُ الأيام عن عِيشَةٍ رَغْـدِ    بِنصْر بن منصورِ بن بسَّامٍ انْفَرَىٰ

وراح يمدحه ويثني عليه ويعدد صفاته فهو : كريم جواد ، سهل الخلق ، لين النفس ، صعب العرض ، طبع على الجود والكرم ، صلب قوي ، له إحسانات وأياد بيضاء على الشاعر ، ثم ختم الشاعر مدحته بطلب عطاء الممدوح .

فنرى الشاعر في مدحته قد تخفف من بعض العناصر البدوية في مقدمته واكتفى ببكاء الديار والنسيب ولم يتعرض لوصف الرحلة أو الراحلة بل إنه وصف الخمر بعد نسيبه وذلك لم يكن مألوفا في القدم ، وقد مدح الشاعر ممدوحه بصفات ومعان تقليدية بناها على صفتي : الجود والشجاعة إلا أنه أكثر من ألوان البديع التي تفنن فيها وأشاعها في مدحته كما هو عادته في شعره ومدائحه بوجه خاص ، ففي المقدمة نرى الجناس بين : العين والعون ، وبين : عجنا ومعاجها ، وبين : مقدودة وتقدها والقد ، وبين : وردت والورد ، وبين : زهدتني ويزهد والزهد ، وبين : أحدقنا وحدائق ، وبين : الثعد والمعد ، ونرى المقابلة بين قوله : فنبدي الذي تخفي ونخفي الذي تبدي ، فضلا عن الكثير من مثل هذه الألوان البديعية التي راح " أبو تمام " يزاوج بينها ويتعمد ذلك عن قصد منه ، فالجناس والطباق والاستعارة أكثر الألوان شيوعا في شعر الشاعر خاصة مدائحه التي تمثل مذهبه الفني أتم تمثيل .

ومن مدائحه التي بدأها بالمقدمة الطللية مدحته التي مدح فيها

* أحمد بن عبد الكريم الطائى الحمصي * فيقول : (١)

| | |
|---|---|
| يا دارُ دارَ عليك إرْهامُ النـدى | واهتزّ روضُك فى الثرى فترأدا |
| وكُسيتِ من خِلَعِ الحيا مُستأسِدا | أُنُفاً يُغـادرُ وحْشَـه مُسْتأسِـدا |
| طللٌ عكفْتَ عليـه أسـألُه إلى | أن كاد يصبح ربعُه لى مسجدا |
| وظللتَ أَنْشُـده وأَنْشُـدُ أهله | والحزنَ خِدْنى ناشدا أو منشدا |
| سَقْياً لمعْهدك الذى لو لم يكن | ما كان قلبى للصبـابة معْهـدا |
| لم يُعْط نازلةَ الهوى حقّ الهوى | دَنِفٌ أطاقَ به الهـوى فتجلدا |
| صبٌّ تواعدت الهمـومُ فـؤادَه | إن أنتـمُ أخلفتمـوه موعـدا |
| لِمْ تُنكرين مع الفِـراق تبلّدي | وبراعـةُ المُشـتاق أن يتبـلدا |
| يا صاحبى بدمشقَ لسْتَ بصاحبى | إن لم تُمهّـد للهمـوم مُمهّـدا |

حيث وقف * أبو تمام * على الديار ودعا لها بالسقيا على عادة الشعراء القدامى ، وأطال الشاعر الوقوف على الديار وأكب عليها إكبابا شديدا وأجلها وعظمها تعظيما واضحا حتى أصبحت بمثابة المسجد الذى يرفع صوته أمامه ويدعو أمامه متضرعا أن يخبره بأخبار أحبابه الذين كانوا يقيمون فيه ، وظل الشاعر ينشد الدار ويناديها ويسألها فى إلحاح بيّن ويدعو لها بالرحمة وكله حزن وهموم حتى أصبح قلبه معهدا للأحزان والصبابة ، ويرى الشاعر : أنه من حق العاشق أن يتذلل لمعشوقته وإذا تجلد لم يعط الهوى حقه ، وراح يطلب النجدة والمساعدة من صاحبه أن يدفع عنه الهموم والأحزان .

فنجد الشاعر يستخرج المعانى من مكامنها ويلح عليها ويغوص وراءها ويضيف إضافات جديدة فى مقدمته انفرد بها بين شعراء عصره فلم

١- جـ ٢ ، ص ( ١٠١ - ١٠٧ ) ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ، « بحر الكامل » .

يكتف بالدعاء بالسقيا للأطلال بل إنه أطال الوقوف وأتى بمعان جديدة أبدعها هو بفنه وزينها بريشة بديعه الذى أشاعه فى الأبيات واعتمد عليه اعتمادا كبيرا فى تصوير صوره وإبراز معانيه خاصة الجناس الذى يحتل المرتبة الأولى من أدوات البديع فى الأبيات بل فى شعره كله . فنراه يجانس بين : " يا دار " و " دار " ، وبين : " مستأسدا " بمعنى اتصل و " مستأسدا " بمعنى صار كالأسد ، وبين : " أنشده " و " أنشد " و " ناشد " و " منشدا " ، وبين : " تواعدت " و " موعدا " ، وبين : " تمهد " و " ممهدا " . ونجد المشاكلة بين المعهد الدارس الذى وقف عليه وبين قلبه الذى أصبح معهدا باليًا لطول الحزن وشدة الشوق ، فضلا عما يوجد فى الأبيات من استعارات وتشبيه ساعدت فى إبراز المعانى وتصوير الصور تصويرا رائعا ، ثم انتقل الشاعر من وصف الرحلة إلى الممدوح ولكن دون إطالة فى ذلك فيقول :

أَدْنِ المُعبَّدةَ السَّنادَ وأنْبِها بالسيرِ ما دام الطريقُ معبَّدا
وإلى بني عبد الكريم تواهقتْ رَتْكَ النَّعامِ رأى الظلامَ فخوَّدا

حيث احتفظ " أبو تمام " فى مقدمته بوصف الرحلة ولكن كان ذلك فى إيجاز وتركيز شديدين ، حيث ناقته القوية المذللة المرتفعة السنام التى تتابع السير فى طرق ممهدة ، ثم راح يمدح الممدوح فى بقية أبيات المدحة التى بلغت ثلاثين بيتا وحازت المقدمة على أحد عشر بيتا منها وجعل للمدح تسعة عشر بيتا أخذ يشيد فيها بالممدوح وأهله مركزا على صفات الجود والشجاعة وعراقة النسب،مفرعا منها معانى كثيرة وصورا عديدة كان له الفضل فى إبداع بعضها صابا فيها أدوات بديعه، خاصة الجناس متفننا فى ذلك إلى حد بعيد فيقول :

كمْ أنجمُوا قمرًا حَمىً بِفعالِه قمرا ومكْرمةً تُناغي الفَرْقَدا
مُتهلِّلاً فى الرَّوْع مُنْهلاً إذا ما زَنَّدَ اللحِزُ الشَّحيحُ وصَرَّدا

مَنْ كان أحمـــدَ مرْتعـــاً أو ذمَّةً     فاللهَ أحمدُ ثم أحمدُ أحْمـــدا
أضحىٰ عدواً للصديق إذا غـــدا     فى الحمد يعْذُله صديقاً للعِدا
عضْبُ العزيمة فى المكارم لم يدعْ     فى يومه شرفاً يُطالبه غـــــدا
بَرّزْتَ فى طلب المعالى واحـــدا     فيها تسير مُغوّراً أو مُنْجـــدا

ويستمر الشاعر يمدح ممدوحه مضفياً عليه من عظيم الصفات وحسن الخلال موضحاً بطولته وشجاعته فى ساحات المعارك ، ثم يختم المدحة بالدعاء للممدوح فيقول :

لا تعـــد منّك طيّئٌ فلقلّمـــا     عَدِمتْ عشيرتُك الجوادَ السيدا

والقصيدة رائعة بارعة توضح مذهب " أبى تمام " الفنى وتمثله ، والشاعر فيها مقلد فى النهج، مجدد فى صوره واستخراج معانيه، وهى قصيدة رائعة على الرغم من تحامل " الآمدى " على القصيدة حيث وصف البيت الأول منها بأنه " بيت ليس بجيد اللفظ ولا النسج " .(١)، ووصف الأبيات بأنها لا حلاوة لها ولا طلاوة عليها " .(٢)

ويمدح أبو تمام " أبا عبد الله حفص بن عمر الأزدى " بمدحة مهد لها بمقدمة طللية على نهج القدماء فيقول : (٣)

عفتْ أرْبُعُ الحلّاتِ للأرْبُعِ المُلْدِ     لكل هضيمِ الكَشْحِ مجدولةِ القدّ(٤)
لِسَلْمىٰ سلامانٍ وعَمْـــرةِ عامـــرٍ     وهنـدِ بنى هنْـدٍ وسُعْدىٰ بنى سَعْدِ

---

١ - ص ( ٤٦٤ ) ، جـ ٣ ، الموازنة .

٢- ص ( ٥١٨ ) ، جـ ٣ ، الموازنة .

٣- جـ ٢ ، ص ( ١١٨ - ١٢٥ ) ديوان الشاعر بشرح التبريزى ، من البحر الطويل » .

٤- الملد : الناعمة ، الحلات : جمع حلة وهى جماعة من الناس وجماعة من بيوتهم .

دیـــارٌ هراقتْ كلَّ عينٍ شحيحةٍ وأوطأتِ الأحْـزانَ كل حشاً صَلْدِ
فعوجا صدورَ الأرحبيِّ وأسْهلاَ (١) بذاك الكثيبِ السهل والعلَمِ الفَرْدِ
ولا تسـألاني عن هوىً قد طعمْتُمَا جواهُ فليس الوَجْدُ إلا من الوجْدِ

حيث وقف الشاعر على الديار وبكاها وذكر ما فعلته الرياح بها وما حل بأهلها وأثر ذلك على نفسه ، ثم انتقل إلى وصف الرحلة والراحلة :
حَطَطْتُ إلى أرض الجُدَيْدِيِّ أرْحُلِي بِمَهْرِيةٍ تَنْبـاعُ فى السير أو تَخْدِي
تؤمُّ شِـهابَ الحـرْب حفْصـاً ورَهْطُهُ بَنُو الحرْبِ لا يَنْبو ثَرَاهُمْ ولا يُكْدِي

حيث لا يطيل الحديث عن الرحلة بل يقتصر على هذين البيتين ثم يخلص إلى المدح ويستمر فى مدحه فيقول :
وَمَنْ شـكَّ أن الجودَ والبأسَ فيهم كمن شكَّ فى أن الفصاحةَ فى نجْـدِ
أَنَخْتُ إلى ساحاتِهمْ وجَنابِهمْ ركابى وأضْحىُ فى ديارهم وَفْـدي
إلى سيفِهمْ حفصٍ وما زال يُنْتَضَى لهمْ مثْلُ ذاك السيف من ذلك الغِمْدِ

ومضى « أبو تمام » يصف الممدوح بالشجاعة والبأس والقوة ويوضح شجاعته وقدرته على قيادة الحروب وخوض المعارك ، كما راح يصور الشاعر نزاعا بين العرب والفرس بسبب خصومة نشأت بينهم حينئذ وعرَّض « أبو تمام » بالفرس تعريضا واضحا وأشار إلى انقسام العرب وصفوفهم من : قحطانيين وعدنانيين وأن الممدوح هو الذى جمع بين القحطانيين والعدنانيين ثم ختم المدحة بالتقرب إلى الممدوح وأنه عربى مثله وأفصح عن طلب العطاء منه .

---

١- صدور : جمع الصدر .

وأبو تمام - كعادته - مداح بارع،ومصور رائع، استطاع أن يصل بالممدوح إلى العلا فى مدحة محكمة النسج بارعة التصوير رائعة المعانى غائصا وراءها مكثرا من ألوان البديع والإستعارة معتمدا عليها فى تصوير صوره وإبراز معانيه منتهجا النهج التقليدى للقصيدة وإن بدا متخففا فى بعض عناصر المقدمة .

ومن مدائحه التى بدأها بمقدمة طللية:مدحته الرائعة التى مدح فيها : " أحمد بن المعتصم " وقال فى مقدمتها : (١)

ما فى وقوفكَ ساعةً من باسِ ... نَقْضي ذِمامَ الأَرْبُعِ الأَدْراسِ
فلعل عينَكَ أن تُعين بمائِها ... والدمعُ منه خاذلٌ ومُواسِ
لا يُسْعِدُ المشتاقَ وسْنانُ الهوى ... يَبِسُ المدامعِ باردُ الأنفاسِ (٢)
إن المنازل ساورَتْها فُرْقَةٌ ... أخلتْ من الآرام كلَّ كِناس (٣)
من كل ضاحكة الترائب أُرْهِفتْ ... إرْهافَ خُوطِ البانة الميَّاسِ (٤)
بدرٌ أطاعتْ فيك بادرةَ النوى ... وَلَعًا وشمسٌ أُولعتْ بشِماسِ
بِكْرٌ إذا ابتسمتْ أراكَ وميضُها ... نَوْرَ الأقاحي فى ثرى مِيعاسِ (٥)
وإذا مشتْ تركتْ بصدرك ضِعْفَ ما ... بحليِّها من كثْرة الوَسْواسِ
قالتْ وقد حُمَّ الفراقُ فكأْسُهُ ... قد خُولِطَ الساقى بها والحاسِي (٦)
لا تَنْسَيَنْ تلك العهودَ فإنما ... سُمِّيتَ إنْسانًا لأنك ناسِي

---

١- جـ ٢ ، ص ( ٢٤٢ - ٢٥٢ ) ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ، من بحر « الكامل » .

٢- الوسنان : الناعس ، واستعاره هنا للهوى .

٣- ساورتها : من سار يسور إذا وثب ، وكنى بالآرام عن النساء ، والكناس : مكان الظبى .

٤- أرهفت : رق خلقها ، الخوط : القضيب ، المياس : الذى يميل هنا وهناك .

٥- الميعاس : أرض ذات رمل .

٦- الحاسى : مبالغة فى صفة كأس الفراق .

حيث يبدأ الشاعر مدحته بالوقوف على الديار والأطلال الدارسة ويبكى عليها بدموع غزار ويصف وحشتها بعد أن خلت من سكانها ثم راح يصف جمال هؤلاء اللاتى كن يسكنها ويبسط الوصف ويطيل تصوير مفاتنهن وراح يعدد صفات الجمال فيهن فهن : حسان الخلق والقد ، رقيقات الخلق ، ذوات قوام رشيق ، يشبهن الظباء والبدور والشموس ، أبكار ، ذوات أسنان تشبه نور الأقاحى ، جميلات يأخذن بالأفئدة والعقول.

ثم انتقل الشاعر إلى المدح دون أن يصف الرحلة أو الراحلة وراح يمدح ممدوحه مضفيا عليه عظيم الصفات موضحا مكانة العباسيين الدينية والسياسية والاجتماعية ، واصفا الممدوح بالكرم والجود وكرم الأصل وكرم الفعل وطيب النفس والفرع ، موضحا شجاعته وإقدامه وسماحته وحلمه وذكاءه وبرّه الذى عم الناس جميعا :

إن الذى خلق الخلائـــقَ قاتَها ... أقواتـــها لِتصـرُّف الأحْـــراسِ
فالأرضُ معروفُ السماء قِرىً لها ... وبنو الرجــاء لهمْ بنو العبـــاسِ
القــوم ظل الله أسكنَ دينَـــه ... فيهمْ وهمْ جبلُ الملــوك الراسي
فى كل جوهـــرة فِرنْـــدُ مشرقُ ... وهم الفِرنْـــد لهؤلاء الناس (١)
هدأتْ على تأْميل أحمدَ هِمّتي ... وأطافَ تقْليـــدي به وقياسـي
بالمُجْتبى والمصطفى والمُشْترَى ... للحمدِ والحالي به والكاسـى (٢)
والحمدُ بُرْدُ جمالٍ اْختالتْ به ... غُرَرُ الفَعَال وليس بُرْدَ لِبـــاس
فرْعُ نمــا من هاشـــم فى تربةٍ ... كان الكَفِيءَ لها من الأغْراسِ (٣)
لا تهجـــرُ الأنْــواءُ مَنْبتَهاَ ولا ... قلبُ الثرى القاسـى عليها قاسي

---

١- الفرند : رونق الشئ وهو فارسى معرب .

٢- المجتبى والمصطفى والمسترى : كلها بمعنى المختار .

٣- الكفيئ : الكفء .

نَوْرُ العَرارَةِ نَوْرُه ونسيمه نَشْرُ الخُزامَى فى اخْضِرار الآس (١)
أبْلَيْتَ هذا المجدَ أبْعَدَ غايةٍ فيه وأكْرمَ شيمةٍ ونِحاسِ
إقْدامَ عمروٍ فى سماحة حاتمٍ فى حِلمِ أحنفَ فى ذكاءِ إياسِ
لا تُنكروا ضَرْبى له مَنْ دُونَه مثلاً شَرُوداً فى النَّدى والبَاسِ
فاللهُ قد ضرب الأقلَّ لنوره مثلاً من المِشْكاة والنِّبْراسِ
إنْ تَحْوِ خَصْلَ المَجْد فى أنْف الصِّبا
يابْنَ الخليفة يا أبا العبَّاس (٢)
فلَرُبَّ نارٍ منكمُ قد أُنتِجَتْ فى الليل من قَبَسٍ من الأقْباسِ

وقد اختتم الشاعر مدحته بتصوير حالته وذكر عطاء الممدوح .

وحقا : إن المدحة رائعة بارعة محكمة النسج بديعة المعانى والصور والأفكار ، سلسة الأسلوب،بعيدة عن الغرابة اللفظية والجهامة والوحشية وقد استطاع " أبو تمام " بمهارته ومقدرته أن يخرج لنا المدحة كأنها لوحة فنية تحوى كل عناصر الجمال والروعة ، واستطاع أن يستخرج لنا كنزاً من المعانى والصور والأفكار ، وتفيض القصيدة بالمعانى المبتكرة والصور الجميلة كما تتسم معانيها بالدقة والعمق فضلا عن سعة الخيال والتأنق البديعي .

" وكان أبو تمام قد أنشد"أحمد بن المعتصم"هذه القصيدة وليس فيها البيتان أعنى قوله " لا تنكروا " والبيت الذى بعده فقال"يعقوب بن اسحق الكندى"وكان يخدم أحمد : الأمير أكبر فى كل شئ ممن شبهته به

١- العرارة والخزامى والآس : نبات طيب الرائحة .
٢- خصل المجد : ما يراهن عليه .

فعمل هذين البيتين وزادهما فى القصيدة من وقته ، فعجب أحمد وجميع من حضره من فطنته وذكائه وأضعف جائزته » . (١).

وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على مقدرة الشاعر وموهبته الشعرية وذكائه المتوقد الذى تميز به وغلب عليه .

ويمدح أبو تمام « أبا المغيث » « موسى بن إبراهيم » بقصيدة رائعة استهلها بمقدمة طللية موروثة وقال فى مستهلها : (٢)

أَقشيبَ رَبْعهم أراكَ دَريسـا ... وقِرَى ضُيوفِك لَوْعَةً ورسيسا (٣)

ولئنْ حُبِسْتَ على البلى لَبِمَا اغْتَدى ... دمعي عليكَ إلى الممات حبيسا

فكأنَّ طسْماً قَبْلُ كانوا جيرةً ... بِكَ والعماليقَ الأُلى وجَديسا (٤)

وأرى ربوعَكَ موحشاتٍ بعدما ... قد كنتَ مألوفَ المحلِّ أنيسا

وبلاقعاً حتى كأن قطينَها ... حلفوا يمينا أخلقتْكَ غَموسا (٥)

أَتُرَى الفراقَ يظنُّ أني غافلُ ... عنه وقد لمستْ يداه لَميسَا ؟ (٦)

رُودٌ أصابتْها النوى فى خُرَّدٍ ... كانتْ بدورَ دُجُنَّةٍ وشُموسا

بيضٌ تدورُ عيونهنَّ إلى الصِّبَا ... فكأنهن بها يُدِرْنَ كئوسا

وكأنما أهدى شقائقَه إلى ... وَجَناتهنَّ بها أبو قابوسا (٧)

---

١- ص ( ٢٥٠ ) ، جـ٢ ، الديوان بشرح التبريزى .

٢- جـ٢ ، ص ( ٢٦٢ - ٢٧٣ ) ديوان أبو تمام بشرح التبريزى ، بحر الكامل .

٣- القشيب : الجديد ، اللوعة : حرقة القلب ، الرسيس : ما يجده الإنسان فى قلبه من حزن .

٤- طسم والعماليق وجديس : من العرب العاربة .

٥- الغموس : التى تغمس فى الإثم .

٦- لمست يداه : تناولتها يد الفراق ، اللميس : ناعمة الملمس .

٧- أبو قابوس : النعمان الذى تنسب إليه الشقائق .

قد أُوتيتْ من كل شئ بَهْجــةً   وَدَداً وحُسْناً فى الصِّبا مَغْمُوسا (١)
لَوْلَا حداثتُــها وأنّىَ لا أرى   عَرْشـاً لها لظننْتُها بلْقيســا (٢)

يقف " أبو تمام " على الديار فتهيجه وتثير جواه ولوعته وحزنه ومشاعره ويصف ما حل بها من تغيير بسبب الأمطار التى غيرت معالمها وأبلت مراسمها، وأنها أصبحت وقفا على الأمطار والرياح بينما أوقف الشاعر دمعه وقفا عليه وقد اندرس الربع اندراسا شديدا حتى خيل إلى الشاعر أنه أقيم منذ أيام العرب العاربة وأنه أصبح موحشا وهو الذى كان مألوفا أنيسا بأهله ، وكأن أهل الربع حلفوا يمينا كاذبة فتركت ديارهم بلاقع ، ثم راح الشاعر يصف جمال ساكنيها ويبرز حسنهن ومفاتنهن ، ثم انتقل إلى مدح الممدوح فقال :

إيهاً دِمَشْقُ فقدْ حَوَيْتِ مكارماً   بأبى المُغيثِ وسُؤْدُداً قُدْ مُوسَـا (٣)

وظل يمدحه مشيدا به وبأعماله وجهوده وجهاده فى تحقيق الأمن فى ولايته وراح ينصحه بحسن معاملة الرعية ويرفض الظلم فى هدوء ، ثم ختم القصيدة بالحديث عن شعره وبالإفصاح عن رجائه ويطلب العطاء من الممدوح كعادته .

والقصيدة تبلغ ثمانية وأربعين بيتا ، إستغرقت المقدمة أحد عشر بيتا والخاتمة ثمانية أبيات بينما حازت أبيات المدح على تسعة وعشرين بيتا وقد نظمها الشاعر على بحر : الكامل الذى يناسب شعر المدح قوة .

---

١- وحسنا مغموسا فى الصبا : أى طريا لم تخلقه الأيام والليالى .
٢- بلقيس : ملكة سبأ المعروفة .
٣- قد موسا : قديما .

والقصيدة حقا رائعة وتعد نموذجا حيا من نماذج الشعر الناضج عند الشاعر،وهى مثل حى من شعر المدح الرائع عند " أبى تمام " وفيها من المعانى الرائعة والمبتكرة والصور البارعة ما يستحق أن يقف الإنسان عنده مأخوذا بجمالها وروعتها وبراعتها ، كما نجد فيها نضج الشاعر الفنى واضحا،ففيها الفكرة العميقة وفيها الثقافة الواسعة : الدينية والتاريخية والمذهبية والعلمية ، وفيها كل طاقات البلاغة وخصائص الشاعرية الفذة فى كل عنصر من عناصرها : ألفاظها وصورها ومعانيها وفكرتها،وتمثل غاية ما وصل إليه فن " أبى تمام " ذلك الفن الذى يتعمده ويقصده فى غير جفاف ولا جفاء ، فضلا عن الأسلوب الجزل الرصين وحسن الابتداء حيث يعد المطلع من جيد الابتداءات وبارعها .

ويمدح " أبو تمام " " محمد بن عبد الملك الزيات " بمدحة رائعة إستهلها بمقدمة طللية قال فيها : (١)

دَنِفٌ بـكى آياتِ ربـع مُدْنَفٍ ... لولا نسيمُ ترابـها لم يُعْرَفِ (٢)
طابتْ لِأقـدامٍ وطئْـنَ ترابَهَـا ... فَنفحْـنَ نَشْـرَ لطيمة مع قَرْقَفِ (٣)
أَرَجٌ أقامَ من الأحبَّةِ فى الثـرى ... وصَرىً أُريقتْ بالدموع الذُرَّفِ (٤)
أَخَذَ البـلى آياتِـها فَرَمَى بها ... بِيَدِ البـوارح فى وجوه الصَفْصَفِ
وحْدى وقفتُ ولم أقُلْ من عَبْـرَةٍ ... وقفتْ حشَـاىَ بها لِحَـادِينا قِفِ
وَحسَـدْتُ ما غادرتُ فيها من بلىً ... وَبَلوْتُها بوميض طَرْفٍ مُوسَـفِ (٥)

١ - جـ٢ ، ص ( ٣٩٤ - ٤٠٠ ) ديوان الشاعر بشرح التبريزى ، من بحر : الكامل .

٢- الدنف : الذى قارب على الهلاك من شدة الحب .

٣- القرقف : الخمر ، اللطيمة : أمشاج من الطيب .

٤- صرى : يعنى به الخمر .

٥- بلوتها : تعرفتها .

وظلِلْتَ أُلْحِفُ فى السؤال رسومَهَا ... وَالمَنْعُ من تُحَفِ السؤال المُلْحِفِ
فَلِنؤْيِها فى القلبِ نُــــؤْىٌ شَـــفَّهُ ... وَلَهٌ بظاعنــــها وبالمتخــــلِّفِ (١)
وكأنمــــا استسقى لهن محمـــدٌ ... فرسومهنَّ من الحيـــا فى زُخرف
سأل السِّمــاكَ فجادها بحيـــائِه ... منه بِوَبْــــلٍ ذى وميـــضٍ أوْطَفِ
مُتعَانِقُ الحَــوْذَانِ تَنْشُــرُه الصَّبـــا ... خَضِــلاً وتطْويه كطىِّ الرَّفْــرَفِ
وثوى الربيـــعُ بـــــها فليس يقِلُّهُ ... عنــها نَئِيحُ ســمومِ قَيْــظٍ مُعْصِــفِ

يقف الشاعر فى هذه الأبيات على الأطلال ويبكيها بكاء حارا نظرا لتعلقه الشديد بأهلها حيث براه حب الديار وأهلها ، لذا فهو مريض بدوره والديار مريضة هى الأخرى لعظم ما صب عليها من الأمطار وما تعاورها من الرياح ، والشاعر لا يستطيع التعرف على الديار بفراسته بل قد عرفها من طيب رائحتها التى تعم الديار حتى أرضها ، وإن هذا الطيب لأثر من آثار طيب محبوباته الذى كن يستخدمنه فى الطيب ولكثرته كان يسيل على التراب وظل عالقا به على الرغم من مرور السنين الطويلة على ذلك .

والشاعر دائم البكاء حتى تسيل دموعه فتغطى أحجار الديار وتعمها والشاعر مستغرق فى بكائه مشغول عن صاحبه ببكائه ودموعه على ديار محبوباته ، وكم كان يتمنى أن يكون مكان الديار حتى يصيبه ما أصابها بدلا منها ، وقد ظل يلح فى السؤال عليها وهو يعلم أنها لا ترد جوابا بل يحب صمتها وسكونها ، وإن حبه لها ولأهلها المفارقين وحزنه عليهما سيسببان له جرحا غائرا فى قلبه لا يشفى .

---

١- شفه : زاده حرقا ، ظاعنها : من فارقها من الأحبة .

ثم يذكر أن الممدوح قد طلب السقيا لها فعمها الحيا بخضرته وأنبت فى جنباتها الحوذان تفرقه ريح الصبا مرة وتطويه مرة أخرى كما تفعل ذلك بالزرع ، وقد لبث فيها الربيع لا يغادرها حتى فى أيام الصيف كذلك .

فنرى إلى أى حد بلغ " أبو تمام " فى استخراج معانيه واستنباط لطائفها ورائعها وظل يغوص فى معانيه وأفكاره حتى استخرج دررا رائعة ولآلىء مشرقة من فيض خياله وعقله حتى أصبحت الأبيات معرضا من معارض الفن الجميل المشحون بغرائب المعانى ولطائفها وعجائبها ، ولقد استطاع " أبو تمام " بمهارته ومقدرته أن يحول هذه المقدمة الطللية القديمة إلى لوحة عجيبة تزخر بكل بديع وجديد وعجيب من المعانى والصور والأخيلة ويضيف إليها من سعة خياله ورائع فكره وعجيب وبديع صنعته ، وظل يلح فى توليد المعانى واستنباطها مستغنيا بها عن المعانى التقليدية التى عرفها الشعراء من قبله فى هذا الميدان ، وقد اعتمد الشاعر فى تصوير صوره وإبراز معانيه على أدوات البديع خاصة : الجناس الذى استطاع أن يستخرج منه لطائف وعجائب من صور البديع وفنونه وعجائبه. والأبيات تفيض بالجناس وتزخر به مثل : الجناس بين : دنف ومدنف ، وبين : " وقفت " و " وقفت " و " قف " ، وبين : بلى وبلوتها ، وبين : ألحف والملحف ، وبين : فلنؤيها ونؤى ، وبين : تطويه وطى ، فضلا عن الطباق : بين : السؤال والمنع وهو طباق بعيد ، والمشاكلة بين : نؤى المنزل ونؤى قلبه ، فضلا عن الاستعارات الكثيرة التى تفيض بها الأبيات واستطاع بفضلها أن يجعل الساكن الصامت متحركا حيا فيه الحس والحياة والحركة .

وبعد أن وقف الشاعر على الأطلال إنتقل إلى وصف الرحلة كعادة القدماء، ولكنها رحلة على سفينة وليست على ظهر ناقة كما كان معروفا وهذا فى حد ذاته تجديد جديد يضاف إلى تجديده فى توليد المعانى والصور ولكنه تجديد سبق به الشاعر من الشعراء العباسيين الذين سبقوه فى الزمن مثل : بشار ومسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك وغيرهم من شعراء العصر العباسى الذين وصفوا الرحلة على السفينة ، فراح " أبو تمام " ينهج نهجهم الجديد ويسير على طريقتهم فيقول :

حَمَلتْ رَجَاىَ إليك بنتُ حديقةٍ — غَلْبَاءُ لم تُلْقَح لِفحْل مُقْرِفِ (١)

نُتِجَتْ وقد حوت الهُنيدةَ وابتنتْ — فى شَطْرها وتبوَّعتْ فى النَّيِّفِ (٢)

فأتتْ مَحلَّى وهى حَملُ بَنَاتِها — تَسْرى بقائمتَىْ خَرِيْفٍ حَرْجَفِ (٣)

فاعْتَامَهَا ذو خبرة بفحولها — نَدسٌ بجِبْلةِ خَلْقِها مُتلطِّفِ (٤)

حتى إذا تمتْ فلم يُعْجِزْهُ مِنْ — أشْلائها مَذْخورةُ المتلهِّفِ

صارتْ إلىَّ بجُؤْجُؤ ذى مَيْعَةٍ — قَدَمٍ تَدِفُّ به وعجْزٍ مُصْرِفِ (٥)

تَنْسَلَّ فى لُجَجٍ حكتْ أغمارُها

فِعْلَ المُحمَّد فى الزمان المُجْحِفِ (٦)

فمتى تعثَّر بالرفاق ذكرتُه — فيمُرُّ تحتى قِطعَ لَيْلٍ أغْضَفِ (٧)

فأجَاها بَعْدَ المخَاض طُلوقها — بمُراهق السِّنَّيْن كهْلٍ أهْيَفِ (٨)

---

١- غلباء : واسعة .

٢- الهنيدة : مائة سنة ، تبوعت : مدت باعها .

٣- القائمتان : المجدافان ، الخريف الحرجف : الريح الشديدة .

٤- إعتامها : إختارها ، الندس : الفطين .

٥- جؤجؤ ذى ميعة : صدرها الواسع ، القدم : مقدمتها .

٦- اللجة : أكثر الماء .

٧- تعثرها : إنكسارها ، الرفاق : سكانها ، أغضف : مسترخ .

٨- مراهق : مقارب ويعنى نفسه .

عوجاء تستلب الزمام وتحتـــذى عوجا يجدن لها استلاب النفنف (١)
أشرت بطيى التى فى أثباجهــا فهوت كثعبان الصفا المتخـوف (٢)
أمتك والشيطان يرهب ظلـــها فأتتك وهى تفوق حـلم الأحنف (٣)

أخذ " أبو تمام " يصف رحلته وراحلته " السفينة " التى ركبها إلى الممدوح وراح يصف خشبها الذى صنعت منه ، حيث صنعت من خشب أشجار زرعت فى الحديقة واعتنى بها اعتناء شديدا إلى أن أصبحت صالحة لصناعتها ، وأنها إقتربت منه حتى يركبها وهى حمل نباتها ، وأن الرياح هى التى كانت تسيرها وتساعد الرياح فى سيرها مجدافاها وقد قادها ملاح خبير فطين حذر راح يقودها بلطف إلى أن وصلت واستقرت ثم أخذت رحلتها متوجهة إلى الممدوح تشق الماء وتندفع بسرعة إلى أن وصلت إلى الشط فى هدوء ولطف .

وراح الشاعر يمدح الممدوح فى بقية أبيات القصيدة وذلك فى سبعة أبيات فقط بينما حازت المقدمة نحو خمسة وعشرين بيتا ، حيث طغت المقدمة على الغرض الأصلى طغيانا واضحا . ويعد ذلك النقاد عيبا حيث يقول ابن رشيق : " ومن عيوب هذا الباب أن يكون النسيب كثيرا والمدح قليـــــلا " . (٤)

وبنى الشاعر مدحه لممدوحه على صفات قديمة عرفها الشعر العربى

---

١- النفنف : الهواء .
٢- أشرت : بطرت بسمنها .
٣- الشيطان يرهب ظلها : يخاف منها .
٤- ص ( ٢٣٢ ) ، جـ ٢ ، العمدة .

من قبل مثل : الإخلاص للخليفة والنصح له وأنه ينجز الوعد ، وأنه ذكى منصف ، وأنه لا يغنى غناءه ألف سيف ورمح ثم وصف عماله بالتقى والعفة إلا أنه استطاع بمقدرته أن يخرج كثيرا من الصور البارعة والمعانى البارعة الجديدة بفضل غوصه وراء المعانى والتدقيق فيها وأدوات البديع والمزاوجة بينها .

ومن مدائحه الرائعة التى بدأها بمقدمة طللية : مدحته التى مدح بها الخليفة " المعتصم بالله " وقال فى مقدمتها : (١)

أجلْ أيها الربعُ الذى خفَّ آهِلُه ... لقد أدركتْ فيك النوى ما تُحاوِلُه (٢)

وقفتُ وأحشائى منازلُ للأسى ... به وهْوَ قفْرٌ قد تعفّتْ منازلُه

أسائلكمْ ما بالُه حَكَمَ البِلى ... عليه وإلا فاتركونى أسائله

لقد أحْسنَ الدمعُ المُحاماةَ بعْد ما ... أساء الأسى إذ جاور القلبَ داخلُه

دعا شوقُه ياناصر الشوق دعْوةً ... فلبّاه طلُّ الدمع يجْرى ووابلُه

بيومٍ تُريك الموتَ فى صورة النوى ... أواخرُه من حسْرةٍ وأوائلُه

وقفْنا على جَمْر الوداعِ عشيّةً ... ولا قلب إلا وهو تغْلى مراجِلُه

وفى الكِلة الصفراء جؤذرُ رملةٍ ... غدا مستقلا والفِراق مُعادلُه

تيقّنتُ أن البينَ أولُ فاتكٍ ... به مذ رأيت الهجْرَ وهو يُغازله

يُعنّفني أنْ ضِقْتُ ذرْعًا بنأيه ... ويجزع أنْ ضاقت عليه خلاخله

راح الشاعر فى مقدمته يبكى الأطلال ويقف على الديار ويصور إقواءها وتعفيها ، فلقد ارتحل عن الربع قاطنوه وشاهد الشاعر الربع خاليا منهم فمزقه الأسى وغلبه الحزن حينما رآه على هذه الصورة الدارسة

---

١- جـ ٣ ، ص ( ٢١ - ٣٠ ) ديوان الشاعر بشرح التبريزى ، " بحر : الطويل " .

٢- أجل : نعم ، خف آهله : ارتحل من كان فيه .

ووجده موحشا خاليا من أهله ، ثم يتوجه يسائل عن خبره وما حدث له وإن كانوا جاهلين بذلك فليتركوه يسائل الربع ويقف عليه ولا يلومه أحد على الوقوف والسؤال والإطالة فيهما،ويصرح الشاعر ببكائه بدموع غزار على ما شاهده من صورة الربع ويستحسن هذا البكاء، وتلك الدموع لأنها روحت عن القلب أو ظهرت بها المحبة وقام بها العذر عند من يهواه ، وقد دعا شوقه ما له واستغاث بالحزن فأجابه ما عليه وكان خاذلا له ، ثم راح يتحدث عن الفراق ومرارة الحرمان ويصف محبوبته ويصور جمالها وأثر فراقها عليه موضحا أن البين أول فاتك به .

ثم انتقل الشاعر من هذا العنصر التقليدى إلى عنصر آخر تقليدى وهو وصف الرحلة إلى الممدوح وذلك فى أربعة أبيات : تحدث فيها عن رحلته ووصف راحلته " الإبـل " التى امتطاها وأوصلته إلى الممدوح فى " سامرا " فهى سريعة المشى فى الأرض السهلة والصلبة على السواء ، وتتابع السير ليلا ونهارا،وأنها تجد فى السير إذا أقبل الليل كأنها تقابله لأن سير النهار أحب إليها :

أتتْـــكَ أميـــرَ المؤمنين وقد أتى    عليهـا المَلا أدْماثُه وجَراولُه(١)
وصُلْنَ السَّرى بالوخْد فى كل صحْصحٍ    وبالسُّهُدِ الموصول والنوم خاذله
رواحلُنـــا قدْ بزَّنـــا الهَـــمَّ أمْرَها    إلى أن حســبنا أنهــن رواحله
إذا خلـع الليــلُ النهــارَ رأيتَهـــا    بإرْقالهـــا من كل وجـــهٍ تقابله

ثم يتخلص تخلصا حسنا من المقدمة إلى المدح بقوله :

إلى قُطبِ الدنيـــا الذى لو بفضله    مدحتُ بنى الدنيـــا كفتْهم فضائلُه
مَنِ البأسُ والمعروفُ والجودُ والتقى    عيـــالٌ عليـــه رِزْقهـــنّ شـــمائلُه

١- الجراول : الحجارة .

جلا ظُلُماتِ الظّلْم عن وجْه أُمَّةٍ ... أضاء لها من كوكب الحق آفلُه
ولاذتْ بحِقْويه الخلافةُ والتقتْ ... على خِدْرها أرْماحُه ومناصله
أتته مُعِداً قد أتاها كأنها ... ولا شك كانتْ قبلَ ذاك تُراسله
بمعتصِمٍ بالله قد عُصمتْ به ... عُرا الدين والْتفتْ عليها وسائله
رعى اللهُ فيه للرعية رأفةً ... تُزايله الدنيا وليست تُزايله
فأضْحوا وقد فاضتْ إليه قلوبُهم ... ورحمتُه فيهم تفيض ونائله
وقام فقام العدلُ فى كل بلدة ... خطيبا وأضحى الملكُ قد شَقَّ بازله
وجرّد سيفَ الحق حتى كأنه ... من السّلّ مُودٍ غِمْدُه وحمائله
رضينا على رغْم الليالى بحكمه ... وهل دافعٌ أمراً وذو العرش قائله ؟

حيث راح " أبو تمام " يمدح " المعتصم " مدحا رائعا بقصيدة أحكمت حلقاتها، وبرعت بمعانيها، وخصبت بخيالها، مضفيا عليه من عظيم الصفات ورائع المآثر والخلال فهو : قطب الدنيا ، وفضائل الدنيا كلها فيه مجتمعة ، وأنه يفوق البأس والمعروف والجود والتقى وشمائله كأنها هى التى ترزق هذه الأشياء .. فهذا البيت والبيت السابق عليه فى غاية الجودة والصحة والبراعة والحسن ولا يقال مثلهما إلا فى خليفة من أفضل الخلفاء، كالمعتصم بالله.

ثم يستمر الشاعر فى مدح خليفته ويصفه بأجل المعانى وأفضل الصفات : فقد أذهب الخليفة الظلم وظلماته عن أمته وأحل الحق محل الظلم ، ولاذت بحقوبه الخلافة وجاءته فى حال كان معدا لها كما قد أتاها فالتقيا ، وقد عصمت به عرا الدين ، وراعى الله فى رعيته ، وسادت رحمته الرعية وأقام العدل فيهم حاكما ، وجرد سيف الحق لا تأخذه فى الله لومة لائم وقد رضيت بحكمه الرعية والتفت إليه .

ثم راح « أبو تمام » بعد ذلك يشير إلى حادث أبناء « المأمون » حيث قام «العباس بن المأمون» يدبر لخلع عمه « المعتصم » أثناء ذهابه لفتح « عمورية » وقد بايعه بعض الناس وسمع بذلك عمه « المعتصم » فعاد بعد الفتح وقبض على « العباس » وحبسه حتى مات وأخذ أولاد «المأمون» وحبسهم حتى ماتوا كذلك ، فيقول أبو تمام :

لقد حان من يُهْدِي سُويداء قلْبه  لِحَـــدِ سنـانٍ فى يد الله عاملُه
وكم ناكثٍ للعهـد قد نكثتْ به  أمانيه واسْـتَخْذا لِحقّـك باطلُه

وراح « أبو تمام » ينشد العفو والشفاعة والرأفة لأبناء « المأمون » إلا أنه يخاف من الخليفة فيلين تارة فى ذلك ويشتد تارة أخرى إلا أنه راح يلح على العفو والرحمة فى هذه القصيدة إلحاحا شديدا لم نشاهده فى مدائحه الأخرى «للمعتصم» ، ثم يركز فى آخر أبيات المدحة على صفة الجود والكرم فى أبيات بديعة ومعان عجيبة وصور رائعة :

هو اليمّ من أىّ النـواحى أتيتَه  فلُجته المعروف والجودُ سـاحلُه
تعوّدَ بسْـطَ الكفّ حتى لو أنه  ثنـاها لِقبْــضٍ لم تُجبه أناملُه
عطاءٌ لو اسْطاع الذى يَستميحُه  لأصبح من بين الورى وهْو عاذلُه
إذا أملٌ ساماهُ قَرْطَسَ فىَ المنىَ  مواهبـهُ حتى يُؤمّـلَ آمِـلُهُ

ثم يختم المدحة بطلب العطاء من الممدوح بعد أن وصفه بأنه إمام الهدى وابن الهدى :

إمامَ الهدى وابنَ الهدى أىّ فرْحة  تعجّلَهَا فيـك القريـضُ وقائلُه
رجاؤكَ للباغِى الغِنىَ عاجلُ الغِنىَ  وأولُ يـومٍ من لقـائك آجلُه

فالمدحة رائعة بارعة فى معانيها وصورها وخيالها : حيث راح يطلب المعنى البعيد الجديد المخترع البديع ويجرى وراءه إلى أبعد مدى

جريا متواصلا ، وراح يعدد الصور ويبرزها فى صورة جميلة بديعة معتمدا على فنيته ومهارته ومستعينا بأنواع الاستعارة وأدوات البديع التى شاعت فى المدحة واتكأ عليها اتكاءا واضحا فى تصوير صوره وإبراز معانيه واستنباطها ، فضلا عن اعتنائه بألفاظه وتدقيق النظر فى اختيارها وراح ينتقى الألفاظ الحلوة الرقيقة العذبة التى ابتعدت عن الغرابة والوعورة وجاءت كأنها موسيقى رقيقة أو أنغام صافية تهتز لها المشاعر والعقول معـــا .

وبدا واضحا فى المدحة إلحاح الشاعر على البديع والاستعارة مخالفا بذلك المألوف والمعهود من قبل ، وتلك سمة واضحة فى القصيدة بل فى شعره كله حتى كانت قضيَّة البديع والاستعارة من أهم النقاط التى أخذت على الشاعر لأنه أكثر منها وجاء بمعظمها على غير ما ألفه العرب الأقدمون .

والمدحة عمل فنى متكامل بعضها قائم فوق بعض دون نشاز أو اضطراب أو خلل فى أجزائها أو عناصرها بل جاءت ملتحمة كالبنية الواحدة وبرع الشاعر فى كل عنصر من عناصرها براعة فائقة بل كان مجيدا فى مطلعها الذى بدأها به واستحسن ذلك الآمدى . (١)، وفى بحرها الذى اختاره بحرا لها وهو بحر " الطويل " الذى يلائم شعر المدح ملاءمة واضحة لأنه من البحور الطويلة القوية التى تزيد الأسلوب قوة على قوة ، وتعطى للشاعر مجالا واسعا فى الإشادة بالممدوح وتدوين أعماله وجهوده .

---

١- ينظر ص ( ٤٤٧ ) الموازنة .

ومن مدائحه التى استهلها بالمقدمة الطللية مدحته التى يمدح فيها : " محمد بن عبد الملك الزيات " والتى بدأها بقوله : (١)

متى أنت عن ذُهْلِيَّةِ الحى ذاهِـلُ   وقلبُكَ منها مُدَّةَ الدهْـر آهِـلُ
تُطِلُّ الطُّلولُ الدمْعَ فى كل موْقفٍ   وتَمْثُلُ بالصبر الديـارُ المـواثِلُ
دوارسُ لم يجْفُ الربيـعُ ربوعَهاَ   ولا مَرَّ فى أغْفـالها وهو غافـلُ
فقد سَحبَتْ فيها السـحائبُ ذيلَهَا   وقد أُخمِلتْ بالنَّوْر فيها الخمائلُ
تعفَّيْنَ من زَادِ العُفَـاةِ إذا انْتَحَى   على الحيِّ صَرْفُ الأَزْمَةِ المُتَمَاحِلُ

حيث يستهل الشاعر المدحة بالمقدمة الطللية القديمة ويدعو للديار بالسقيا والخصب والنبات وراح يذكر المطر فى مقدمته إلا أنه يختلف عن السابقين بجعله المطر عاملا من العوامل التى تزيد منظر الديار جمالا وروعة بما يسببه المطر من خضرة وورود وأزهار تكسو الديار بهذه الحلل الجميلة وتشيع فى جنباتها الرائحة الطيبة .

ويختلف الشاعر أيضا عن السابقين بكثرة الألوان البديعية من جناس واستعارة وتشخيص .

ثم راح الشاعر يتغزل فى المحبوبة إلا أنه لم ينتقل إلى وصف الرحلة والراحلة بل انتقل من الغزل إلى مدح الممدوح فى قصيدة طويلة بلغت ستين بيتا . حازت المقدمة على عشرة أبيات فقط ، والخاتمة التى تحدث فيها عن قصيدته وافتخر بها أخذت أربعة أبيات ، والمدح وهو الغرض الأصلى للقصيدة نال منها ستة وأربعين بيتا ، فلم تطغ المقدمة على الغرض الأصلى بل توسط الشاعر فيها وناسب بينها وبين المدح .

---

١ - جـ ٣ ، ص ( ١١٢ - ١٣١ ) ديوان الشاعر بشرح التبريزى . " من البحر : الطويل " .

ومن مدائحه الرائعة التى بدأها بالمقدمة الطللية مدحته فى الخليفة " المأمون " والتى استهلها بقوله : (١)

دِمَنٌ أَلَمَّ بها فقال سلامُ ... كمْ حَلَّ عُقْدَةَ صَبْرِهِ الإلمامُ

نُحِرتْ ركابُ القومِ حتى يَغْبُرُوا ... رَجْلَى ، لقدْ عَنُفُوا علىَّ ولامُوا (٢)

عَشِقُوا ، ولا رُزِقُوا ، أَيُعْذَلُ عاشِقٌ ... رُزِقَتْ هواه معالمٌ وخيامُ ؟

وَقَفُوا على اللَّوْمِ حتى خَيَّلُوا ... أنَ الوقوفَ على الديار حرامُ

ما مَرَّ يومٌ واحد إلا وفي ... أحشائه لِمَحلَّتيْكِ غَمَامُ

حتى تُعَمَّمَ صُلْعُ هاماتِ الرُّبَا ... من نَوْرِه وتأزَّر الأَهْضَامُ (٣)

حيث بدأ الشاعر مدحته بمقدمة طللية راح فيها يسلم على الديار ويحييها ويصف شوقه نحوها ، إلا أن أصحابه يلومونه على الوقوف وإطالته ويطلبون منه أن يمر عليها سريعا فيدعو عليهم بنحر ركابهم ليتلبثوا فى الديار فيقضى وطره من التسليم والتحية ويكون نجر ركابهم عقابا لهم على لومهم له ، ثم راح يدعو للديار بالسقيا وأن يعمها المطر حتى تكتسى بالأزهار والورود المختلفة ويصير النبات كالعمائم على الربى الجرداء التى لا نبات بها .

فالشاعر مقلد فى النهج إلا أنه أهمل بعض المظاهر التقليدية فهو لم يصور الأطلال الموحشة الخربة بل يصور ما يريد أن يشاهده بها من صورة جميلة فى حال إزهارها وجمالها بشيوع الأزهار والنبات الجميلة فوق ربوعها . ومن المظاهر التقليدية فى هذه المقدمة أنه انتقل من الوقوف

---

١- جـ ٣ ، ص ( ١٥٠ - ١٥٩ ) ديوانه بشرح التبريزى ، من البحر " الكامل " .

٢- يغبروا : يقيموا .

٣- الصلع : الجرداء ، الأهضام : ما اطمأن من الأرض ، تأزر : من الإزار .

على الديار إلى التغزل بالمحبوبة غزلا رقيقا عذبا يمتاز بالحلاوة وخفة الروح وتتابع الفكرة وصدق العاطفة ونضج الشاعرية ، والشاعر فى مقدمته يمزج بين الغزل والطبيعة فى اتساق وتلاؤم ، إلا أنه لم ينتقل من غزله إلى وصف الرحلة - كما كان يفعل القدماء - بل تخلص منه إلى المدح مباشرة بعد مقدمة أخذت ثلاثة عشر بيتا من جملة أبيات القصيدة التى بلغت أربعة وخمسين بيتا راح فى بقيتها يمدح الخليفة ويشيد بجوده وبجهوده وغزواته وحروبه ضد الروم واصفا جيشه مصورا الحرب تصويرا حيا بارعا ذا أثر واضح فى أخذ النفس وشدها إليه وعدم القدرة على مقاومة تأثير جمالها .

هذا وقد ظهرت فى المدحة نزعة الشاعر الإسلامية والعربية بوضوح تام ويتجلى فيها حبه للعرب والمسلمين وبغضه لأعدائهم من " الروم " مشيدا بنصر الخليفة جاعله نصرا للإسلام على الصليبيين أهل الكفر والإلحاد .

والشاعر فى مدحته قد أحكم حلقاتها وناسب بين أجزائها وبرع فى صورها ومعانيها وأكثر فيها من المعانى البديعة ، والدقة والعمق والغوص وراءها ، معتمدا اعتمادا واضحا على الإستعارة وأدوات البديع فى تصوير صوره وإبراز معانيه ، منتقيا لها بحرا ملائما يتناسب وغرض المدح ووصف المعارك وتصوير الحروب وهو " بحر الكامل " الذى تكثر حركاته سكناته وهو ما يناسب الحرب والمعارك بكثرة ما فيها من حركة وما يدور فيها من صولات وجولات وكر وفر ومراوغة .

هذا والأمثلة كثيرة من هذا اللون من المدح الذى استهله " أبو تمام " بهذه المقدمة الطللية التى أكثر منها فى مدائحه وفاقت معظم

مقدماته التقليدية الأخرى ، وقد أبقى " أبو تمام " على الشكل الخارجى الموروث فى هذه المقدمة وانتهج نهج القدماء فيها متخففا أحيانا من بعض عناصرها التقليدية مجددا فى صورها ومعانيها مركزا على المعانى التى تثيرها الديار واندراسها على نفسه والأمثلة على ذلك كثيرة فى ديوانـــه .(١)

فأبو تمام بدأ أكثر مدائحه بالمقدمة الطللية التى انتهى منها إلى الغزل الذى يختلف فيه قصرا وطولا ثم ينتقل إلى الرحلة أو يعرج عليها ثم ينتقل إلى مدح الممدوح ثم يختم القصيدة بوصف شعره والفخر به وكان هذا النمط الشائع عنده وهو لا يختلف فيه إلا قليلا عن النمط التقليدى للقصيدة العربية القديمة ، وأحيانا يتخفف فيسقط بعض هذه العناصر كوصف الرحلة أو الخاتمة من المدحة .

ومن النهج التقليدى للمدحة عند " أبى تمام " هذه المدحة التى راح يستهلها بالغزل ويبدأ المدحة بالتشبيب بالمحبوبة على عادة الشعراء القدامى ، وتحتل المقدمة الغزلية المرتبة الثانية بعد المقدمة الطللية شيوعا فى مدائحه التى استهلها بالمقدمات التقليدية حيث استهل بالمقدمة الغزلية نحو عشرين مدحة من بين مدائحه فضلا عن القطع الغزلية التى ذكرها بعد مقدمته الطللية السابقة وفضلا عن بعض القطع الغزلية التى تعرض لها فى ثنايا مقدمة الفروسية والتى سنتحدث عنها فيما بعـــد .

---

١- أنظر ديوانه بشرح التبريزى :

جـ١ ص ٧٥ ، ص ١١٦ ، ص ٢٦٤ ، ص ٣٦٩ ، ص ٤٢٣ و جـ٢ ص ٦٨ ، ص ٨٠ ، ص ١٠٩ ، ص ١٦٦ ، ص ٣٥١ ، ص ٣٥٩ ، ص ٣٧٦ ، ص ٤٠٦ ، ص ٤٤٧ ، ص ٤٥٦ و جـ٣ ص ٣٢ ، ص ١٦٠ ، ص ١٨٤ ، ص ٢١٢ ، ص ٢٢٢ ، ص ٢٣٢ ، ص ٢٦١ ، ص ٢٨٩ ، ص ٣٢٣ ، ص ٣٣٧ ، ص ٣٥١ .

والشاعر فى مقدماته الغزلية أو فى أكثرها لا يتماجن ولا يذكر فحشا أو مساوىء مثل كثير من شعراء عصره بل راح يتغنى فى مقدماته الغزلية بالمعانى العفيفة ويصور حبه وعشقه وألمه من هذا الحب بعيدا عن الفحش والتمادى فى الفجور ذاكرا صفات المحبوبة الحسية مصورا جمالها ولكن كان ذلك فى شئ من العفة واضعا عليها وفيها رقته ودقته فى الصور والمعانى مزينا لها بأدوات بديعه المختلفة مشيعا فيها الحركة والحياة بفضل الاستعارات الرائعة والكنايات الفائقة والتزاوج بين ألوان البديع لاستخراج الكثير من المعانى المبتكرة والرائعة .

ومن مدائحه التى استهلها بهذه المقدمة:مدحته التى راح يمدح فيها " أبا عبد الله أحمد بن أبى دواد " : (١)

أرأيتَ أىَّ سوالفٍ وخدودِ ... عَنَّتْ لنا بين اللِّوى فزَرُودِ ؟ (٢)
أَتْرَابُ غافلةُ الليالىَ ألَّفَتْ ... عُقَدَ الهوى فى يَارَق وعُقُودِ (٣)
بيضاءُ يصْرعُها الصِّبَا عَبَثَ الصَّبَا ... أُصُلاً بخُوط البانة الأُمْلُودِ (٤)
وحْشيَّةٌ ترمى القلوبَ إذا اغْتَدَتْ ... وسْنَى فما تصطادُ غيرَ الصِّيدِ (٥)
لا حزْمَ عند مُجرِّبٍ فيها ولا ... جبَّارُ قومٍ عندها بعَنِيدِ

فى هذه الأبيات يتغزل الشاعر ويتشبب بنسوة عرض له بين : اللوى وزرود،ووضحت له سمات الجمال منهن وظهرت مفاتنهن وراح يصف هذه

---

١- جـ١ ،ص( ٣٨٤ ) وما بعدها . ديوانه بشرح التبريزى ، من البحر الكامل .

٢- السالفة : صفحة العنق ، عنت : عرضت وظهرت ، واللوى وزرود : مكانان .

٣- غافلة الليالى : قليلة الهموم ، اليارق : الدستينج العريض أو السوار .

٤- الخوط : الغصن ، والأملود : الناعم الأملس .

٥- وسنى : ناعسة من النعمة .

المفاتن وسمات الجمال هذه : فأعناقهن وخدودهن جميلات فاتنات ، وهن أمثال لهذه المرأة الفاتنة الغافلة عن الليالى وأحداثها وموضع الهوى والعشق فكأنها جمعت قلائد الهوى فى يارقها وقلائدها ، بيضاء ناعمة يصرعها الصبا ويعبث بها عبث الصبا بخوط البان أصلا ، وهى فى حسنها وجمالها كالوحشية وكأنها ناعسة من النعمة ، ومن شدة جمالها إذا رآها الحازم المجرب يضل لبه ويفقد عقله ، والجبار العنيد يذل أمامها ويخضع تجاه جمالها ويصغر وإن لم يكن فيها تجبر ، فهى منعمة مترفة ساحرة فاتنة ، فاترة الطرف بيضاء اللون ، نحيفة القد ، لينة تتثنى كما يتثنى الغصن أثناء نسمات الريح اللينة ، عفيفة طاهرة لا يستطيع أحد مهما بلغ أن ينال منها شيئا .

فضلا عن هذه المعانى العفيفة والصور الجميلة صاغ أبو تمام أبياته بأسلوب عذب رقيق وألفاظ مختارة منتقاة تلائم شعر الغزل فى رقته وعذوبته وجاء فيها بأدوات البديع خاصة الجناس الذى زاد من جمالها وروعتها .

وبعد هذه الأبيات التى شبب فيها راح يعرض عن بكاء الديار ويرى أنه لا فائدة فى بكائها ما دام قد رحل عنها ساكنوها :

مالى برَبْـــع منهـــمُ معْهـــود ... إلا الأســـى وعزيمةُ المَجْلُود (١)
إنْ كان مسعودٌ سقى أطلالَهم ... سَبَلَ الشؤونَ فلستُ من مسْـعُود
ظَعَنُوا فكان بُكاىَ حَوْلاً بعْدَهم ... ثم ارْعَوَيْتُ وذاك حُكْمٌ لَبِيـــد
أَجْدرْ بِجمْرةِ لَوْعَةَ إطفَـــاؤُها ... بالدمـــع أنْ تزدادَ طُـول وُقُود

---

١- الأسى : الحزن ، مجلود : أى جلادة .

فأبو تمام يعرض عن بكاء الديار مادامت أصبحت قفراء خالية من أصحابها وليس من ربعهم الذى عفا وتغير إلا الصبر وإيثار التعزى والجلادة ، ويقول : إن كان " مسعود بن عمرو الأزدى " قد ندب الأطلال وبكاهـا فلست أنا مثله ولا أقتـدى به ولا ممن يفعل فعلـه ، أو أراد " مسعودا " أخا " ذى الرمة " الذى نها أخاه عن البكاء ، أى : أن مسعودا إن كان قد رأى البكاء أحسن بعد أن كان عنده غير حسن فلست منه ، " وهذا من استقصاء أبى تمام ومبالغته فى المعانى التى يخرجها إلى التعمية والإنغلاق .(١)

ويرى الشاعر : أن البكاء لا يجدى بل التعزى وعزيمة المجلود تغنى عن ذلك كله . ثم ينتقل الشاعر إلى وصف الرحلة والناقة والصحراء ثم يتخلص منها إلى مدح الممدوح بقوله :

| | |
|---|---|
| هيهاتَ منها روضــةٌ محمــودةٌ | حتى تُنَــاخَ بأحمــدَ المحمودِ |
| بُمعرَّسِ العَرَبِ الذى وَجَدَتْ به | أَمْنَ المرُوعِ ونَجْــدَةَ المنْجُودِ |
| حلَّتْ عُرا أَثْقَالِها وهمـــومها | أبنــاءُ إسماعيلَ فيــه وهُـود |
| أملٌ أناخ بهم وفوداً فاغْتــدوا | منْ عنْــده وهُمُ مُنَــاخُ وفُودِ |
| بدأَ الندى وأعــادهُ فيهمْ وكمْ | منْ مُبدئٍ للعُــرْفِ غيرُ مُعيــد |
| يا أحمــدَ بنَ أبى دُواد حُطْتني | بحيــاطتي ولَدَدْتَني بلَــدُودِ |
| ومنحتنى وُداً حميتُ زمــارَهُ | وذمامَه من هجْــرةٍ وصُــدود |
| أضحتْ إيــادُ فى معــدٍ كلها | وهُمُ إيادُ بنائــها الممــدود |
| تَنْميكَ فى قُلَلِ المكارم والعُلىٰ | زُهْرٌ لزُهْرٍ أبُــوَّةٍ وجُــدود |

وراح الشاعر يشيد بالممدوح إشادة عظيمة ويصفه بالجود والكرم

١- ص ( ٥٦٤ ) ، جـ٣ ، الموازنة للآمدى .

وعراقة الأصل والنسب منوهاً ومشيداً بأصله العربى العريق معدداً مثله وأمجاده ، ثم ختم القصيدة بخاتمة تحدث فيها عن قصيدته وافتخر بها وأشاد بروعتها طالباً رجاء الممدوح وذلك فى خاتمة حازت ثمانية أبيات ، بينما حازت المقدمة أربعة عشر بيتا وأبيات المدح بقية أبيات القصيدة التى بلغت ستة وخمسين بيتا .

فالشاعر قد قسم القصيدة إلى مقدمة وغرض وخاتمة وانتقل من جزء إلى جزء انتقالا طبيعيا دون نشاز أو خلل أو اضطراب حتى بدت القصيدة كالبناء الواحد المتكامل .

والشاعر فى قصيدته فنان ماهر ومصور بارع ورب معان وصاحب مذهب فنى أصيل بدا واضحاً فى قصيدته ، فالقصيدة فضلا عن براعة المطلع وحسن الخاتمة وحسن التخلص من جزء إلى جزء والتصريع المتكرر فى أبيات القصيدة تشيع فيها المعانى المبتكرة والصور الرائعة والخيال البديع وأدوات البديع العجيبة والاستعارات الرائقة والكنايات الجميلة التى زادت جمال الأبيات جمالا فوق جمال ، ومن معانيه المخترعة التى وردت فيها قوله :

وإذا أراد اللـــه نشْـرَ فضيلة ... طُويتْ أتاح لها لســـانَ حَســـود
لولا اشْتعالُ النار فيما جاورتْ ... ما كان يُعرْف طيبُ عَرْف العـــودَ

كما تتجلى فى القصيدة ثقافة الشاعر التاريخية والأدبية والعلمية الحديثة ، ومدح الممدوح وتسميته بإسمه كما هو معروف عنه وبناء المدحة على بحر « الكامل » الذى يعد من أنسب بحور الشعر لشعر المدح .

ومن مدائحه التى استهلها بالتشبيب والغزل مدحته " لأبى سعيد محمد بن يوسف " ويذكر وقعته بالخرمية ، فيقول فى أولها : (١)

فلا شَنباً يَهْوىٰ ولا فَلَجَا ... ولا احْوراراً يُراعيه ولا دَعَجَا (٢)

كُفِّى فقد فَرَّجَتْ عنه عزيمتُه ... ذاك الوُلوعَ وذاكَ الشوقَ فانْفَرجا

حيث يمهد الشاعر لمدحته بمقدمة غزلية قصيرة إستغرقت بيتين فقط وصف فيهما حسن وجمال من شبب بها : فهى سوداء العين ، مفلجة الأسنان ، حوراء العين ثم راح يلوم عاذلته فقال لها : كف عن ملامك فقد ألهاه عمن تلومينه عزيمته على السلو عنه ، وكشفت ما به من الغرام والعشق فانفرج وذهب .

فالشاعر قد تخفف من مستلزمات القصيدة القديمة إلى حد بعيد ، حيث اقتصر على بيتين فقط شبب فيهما بمحبوبته ولم يتعرض أيضا لوصف الرحلة والراحلة ومشاهد الصحراء مكتفيا بهذين البيتين من الغزل ، وذلك لأن القصيدة تعرضت لذكر حادثة عظيمة من الحوادث التى تتطلع إليها الأسماع وتريد معرفة ما حدث فى تلك الحادثة وليست فى موقف تؤثر فيه سماع الغزل والتشبيب .

ثم انتقل الشاعر بعد هذه المقدمة القصيرة إلى وصف ما حدث فى " موقان " للخرمية ، وما فعله الممدوح من جهود وأعمال وراح يشيد بجهوده ويصور بطولاته وأمجاده تصويرا حيا رائعا ويصف المعارك فيقول :

---

١- جـ١ ، ص ( ٣٢٩ ) وما بعدها ، ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ، من البحر البسيط .

٢- الدعج : سواد العين ، والفلج : تفليج الأسنان ، الإحورار : جمال العين وحورها .

كانتْ حوادثٌ في موقـــانَ ما تَركتْ     للخُرّمية لا رأســا ولا ثبجــا (١)
تهضّمتْ كـــلَّ فـــرْمٍ كـــان مُهتضماً     وفتّحتْ كلَّ بـــابٍ كان مُرْتتجـــا (٢)
أبلغْ محمــدًا المُـــلْقى كـــلاكلَه     بأرْض خُشَّ أمامَ القوم قد لَبِجا (٣)
ما سَرَّ قومَــك أنْ تَبقَى لهمْ أبَـداً     وأنَّ غيرَك كان اسْتنزلَ الكَـــذَجا (٤)
لما قرا الناسُ ذاكَ الفتحَ قلتُ لهمْ     وقائـــعٌ حدَّثوا عنها ولا حَرَجا (٥)

ويمضى أبو تمام فى قصيدته يمدح الممدوح ويتغنى ببطولاته القومية ويضخم المواقف ويرفعها إلى أجواء الخوارق فى قصص مملوءة بالحركة والحياة وفى وصف رائع للمعارك مستفيضاً مستغرقاً مفصلاً الأحداث مظهراً شجاعة الممدوح وقدرته الفائقة فى ساحات المعارك وحسن قيادة الجيوش والتمرس على أساليب القتال وفنونه ، مسمياً الوقاع والأحداث بمسمياتها والأشخاص بأسمائهم مجسداً التاريخ فى صورة شعرية محولاً هذه الأعمال إلى ملحمة شعرية كبرى جسد فيها بطولات الممدوح تجسيداً حياً يعد وبحق مفخرة لكل عربى ومسلم .

وقد سجل الشاعر انتصار الممدوح العظيم على " بابك الخرمى " وأشاد به إشادة عظيمة وهو فى ذلك مبتهج ابتهاجا عظيما بهذا النصر المبين مظهراً فى تصويره عواطفه الدينية والقومية فيقول :

---

١ - الثبج : الظهر ، الخرمية : الذين لا يراعون دينا ولا يحظرون على أنفسهم شيئا مما منعه الشرع .

٢- مرتتجا : منغلقا ، يقال : أرتجت الباب فارتتج .

٣- الكلاكل : جمع كلكل وهو الصدر ، قد ليجا : أى ألقى نفسه إلى الأرض من مرض وتعب .

٤- الكذج : موضع ، والمراد : أنه استنزل أهل الكذج فهو على حذف مضاف .

٥- قرا : بالتخفيف أى قرأ الناس ، ووقائع : أى هذه وقائع .

ويــوم أرشَــق والآمـــالُ مُرْشَـقَةٌ إليك لا تَبْتَغى عنــك مُنْعَــرَجا
أرضعتهمْ خِلْفَ مكـــروهٍ فَطَمَتْ بِـه مَنْ كان بالحربِ منهم قبــله لَهِجا
لله أيامــك اللاتى أغْــرَتْ بــها ضفْرَ الهُدى وقديما كان قد مَرَجا
كانت على الدين كالساعات من قِصَرٍ وعَــدَّها بابكٌ من طُولها حِجَجَا
لما أبوا حُجَجَ القُـــرآن واضحةً كانت سيوفُك فى هاماتهم حُجُجَا

واستمر « أبو تمـــام » فى قصيدته يشيد بالممدوح ويصور بطولاته ويصف المعركة وصفاً مفصلاً مسجلاً التاريخ ومحولاً أحداثه إلى شعر عظيم حيث كانت عنده مقدرة فائقة قل مثيلها على تحويل التاريخ وأحداثه إلى شعر قيم .

وقد جاء أسلوب الشاعر فى قصيدته قوياً فخماً مؤثراً الألفاظ القوية الضخمة التى ينبع من طياتها المعانى القوية وتفوح منها الحركة والحياة مكثراً من الألفاظ المعجمية ذات الوقع والرنين والصدى القوى وهو وقع ورنين يلائم وقع المعارك وصداها ، ومكثراً من أدوات البديع وفن الاستعارة معتمداً عليها فى تصوير صوره وإبراز معانيه اعتماداً قوياً ، وقد اختار الشاعر لقصيدته « البحر البسيط » وهو من بحور القوة التى تلائم شعر المدح ووصف الوقائع الحربية وتصوير أحداثها ، كما برع فى مطلع قصيدته وجاء به مصرعا .

وقد ألهمت « معارك بابك » « أبا تمام » بكثير من الشعر الذى صور فيه البطولة والصمود العربى والإسلامى ووصف المعارك وصفاً ينم عن شاعر فنان موهوب قد ملك كل أدوات الفن ، بل ظل أثر هذه المعارك يتردد كثيراً فى شعره زمناً طويلاً فى مدائحه بوجه عام لأن الشاعر قد تأثر بهذه المعارك وانفعل معها انفعالاً قوياً فأعطت شعره لونا جديداً من

وصف المعارك وتصوير الحروب والميل بها إلى صورة الملحمة وأصبح ذلك سمة بارزة من سمات مدائح «أبى تمام» بوجه عام حتى كأنه أصبح مثلاً ونموذجاً يحتذيه الشعراء من بعده فى مدائحهم ويتجلى ذلك بوضوح فى شعر شاعر العربية الأول " المتنبى " الذى تأثر فى ذلك «بأبى تمام» الشاعر العملاق .

ومن هذا القبيل قصيدته التى مدح فيها " المأمون " والتى بدأها بقـــوله : (١)

كُشِفَ الغِطَـاءُ فأَوْقدى أو أَخْمِـدي ... لم تَكْمَدِي فَظَنَنْتِ أنْ لمْ يَكْمَد (٢)

يكفيكَهُ شَـوْقٌ يُطيـلُ ظَمَـاءَهُ ... فإذا سقاهُ سقاه سَمَّ الأَسْوَد

عذلتْ غُروبٌ دموعِهِ عُذَّالَه ... بسواكبٍ فنَدَّدْنَ كلَّ مفنِّد

أتتِ النوى دونَ الهوى فأتى الأسى ... دون الأسى بحرارة لم تبرُد

جارى إليه البينُ وَصْلَ خريدةٍ ... ماشتْ إليه المَطْلَ مَشْىَ الأكْبَد (٣)

عبثَ الفِراقُ بدمعه وبقلبه ... عبثًا يروح الجِدّ فيه ويغتدى (٤)

يا يومَ شَرَّدَ يومَ لهْوى لَهْوَهُ ... بصبابتى وأذلَّ عِزَّ تجلُّدى

ما كان أحسنَ لو غبرْتَ فلمْ نَقُلْ ... ما كان أقبحَ يوم بُرْقَة مُنْشِد (٥)

يومٌ أفاضَ جوًى أغاضَ تعزِّيًا ... خاض الهوى بَحْرَىْ حِجاهُ المُزْبِد

عَطفُوا الخُدورَ على البُدور ووكّلُوا ... ظُلَمَ السُّتُور بحُور عين نُهَّد

وثَنَوْا على وشْىِ الخُدود صِيانةً ... وَشْىَ البُرُود بمُسْجَفٍ ومُمَهَّد (٦)

---

١- جـ ٢ ، ص ( ٤٣ - ٥٨ ) ديوانه بشرح التبريزى ، من بحر : الكامل .

٢- الكمد : ما يجده الرجل فى صدره من وجد أو حزن ، تكمدى : تصابين بالكمد .

٣- الأكبد : الذى يشتكى كبده فيعظم بطنه لذلك ، والأكبد : العظيم الوسط .

٤- عبث : لعب .

٥- منشد : رجل أضيفت إليه البقعة .

٦- وشى الخدود : حمرتها وبياضها ، المسجف : المسبل .

حيث راح " أبو تمام " يتشبب بالمحبوبة ويستهل القصيدة بالغزل المصنوع على عادة الشعراء القدامى ، ويعبر فى مقدمته عن شدة وجده وحبه ويخاطب الشاعر عاذلته أو محبوبته ويقول : لقد انكشف ما كنا نستره وكان ما لم نرده فأظهرى الآن إن شئت أو اكتمى ، ويصف الشاعر حبه وشوقه وغرامه ويرى أنه شديد الهيام عنيف الغرام وانه إن ظن أنه يستشفى منه زاد هياما وغراما ، والشاعر يبكى لفراق حبيبته ويصف كثرة الدمع وغزارته ويرى أنه قد جارى البين وصل هذه الخريدة التى تمشى مع المطل مشيا رويدا فحين وقع الوصل جاء الفراق ، ومحبوبته تداوم المطال ولا ترى الإنجاز ، وقد لعب الفراق بدمعه وقلبه واقتدر عليهما وأورثه بكاء فأقلقه .

ثم يخاطب يوم الفراق فيقول له : يا أيها اليوم الذى شرد لهوه يوم الهوى وأزال ما كان مصونا من صبرى ما كان أحسن أمرك وحالك لو بقيت فكنا لا نقول ما كان أقبح يوم برقة منشد أو ما كان أحسن لو بقى ذكرك ولم نذمك . وإن هذا اليوم قد أبان داء قلبه من الهوى فأغاض الجوى تعزيا وغلب الهوى التعزى وبلغ الهوى منه مبلغه الأعظم ، ثم وصف المحبوبة وذكر بعض صفاتها وشبهها بالبدر وبحور العين وذكر حمرة وبياض خدودها .

ثم انتقل " أبو تمام " إلى مدح الممدوح دون أن يصف الرحلة أو الراحلة والصحراء ومشاهدها وذلك تخفيف واضح من بعض الظواهر فى المقدمة التقليدية فيقول مادحا الخليفة :

حيث راح " أبو تمام " يتشبب بالمحبوبة ويستهل القصيدة بالغزل المصنوع على عادة الشعراء القدامى ، ويعبر فى مقدمته عن شدة وجده وحبه ويخاطب الشاعر عاذلته أو محبوبته ويقول : لقد انكشف ما كنا نستره وكان ما لم نرده فأظهرى الآن إن شئت أو اكتمى ، ويصف الشاعر حبه وشوقه وغرامه ويرى أنه شديد الهيام عنيف الغرام وانه إن ظن أنه يستشفى منه زاد هياما وغراما ، والشاعر يبكى لفراق حبيبته ويصف كثرة الدمع وغزارته ويرى أنه قد جارى البين وصل هذه الخريدة التى تمشى مع المطل مشيا رويدا فحين وقع الوصل جاء الفراق ، ومحبوبته تداوم المطال ولا ترى الإنجاز ، وقد لعب الفراق بدمعه وقلبه واقتدر عليهما وأورثه بكاء فأقلقه .

ثم يخاطب يوم الفراق فيقول له : يا أيها اليوم الذى شرد لهوه يوم الهوى وأزال ما كان مصونا من صبرى ما كان أحسن أمرك وحالك لو بقيت فكنا لا نقول ما كان أقبح يوم برقة منشد أو ما كان أحسن لو بقى ذكرك ولم نذمك . وإن هذا اليوم قد أبان داء قلبه من الهوى فأغاض الجوى تعزيا وغلب الهوى التعزى وبلغ الهوى منه مبلغه الأعظم ، ثم وصف المحبوبة وذكر بعض صفاتها وشبهها بالبدر وبحور العين وذكر حمرة وبياض خدودها .

ثم انتقل " أبو تمام " إلى مدح الممدوح دون أن يصف الرحلة أو الراحلة والصحراء ومشاهدها وذلك تخفيف واضح من بعض الظواهر فى المقدمة التقليدية فيقول مادحا الخليفة :

أهــلا وســهلا بالإمــام ومَرْحبا      سَــهُلتْ حُزُونَةُ كل أمْــرٍ قَرْدَد (١)
غَلَّ المَرَوْرَاةَ الصَّحاصِحَ عَــزْمُهُ      بالعيس إن قصدتْ وإنْ لَمْ تَقْصِدَ (٢)

ومضى أبو تمام يمدح خليفته فى أول مدحة مدحه بها مفرغاً فيها كل جهده ومقدرته الشعرية وكل مواهبه الصناعية فجاءت خالية من الروح وإن بدت جسماً مرصعاً بالزخارف والجواهر حيث أكثر فيها من أدوات الصنعة وأنواع البديع التى تكلفها تكلفاً واضحاً وأفسد بها شعره ، ففى المطلع من البديع : أوقدى واخمدى : طباق ، ولم تكمدى ولم تكمد : جناس وعذلت وعذاله : جناس ، وفندن ومفند . والنوى والهوى : جناس ناقص ، والأَسى والأُسى . والبين والوصل : طباق ، وماشت ومشى : جناس ، وعبث وعبثا . ويروح ويغتـدى : طباق ، وأذل وعز : طباق ، ولهـوى لهوه : جناس ، وما كان أحسن وما كان أقبح : طباق ، وبين : أفاض وأغاض : جناس ، وبين الخدور والبدور : جناس ناقص ، وبين وشى الخدود ووشى البرود : مشاكلة .

فالقصيدة تزخر بأدوات البديع وتفيض بها المحتملة منها وغير المحتملة فضلا عن الخفاء والغموض الذى لحقها واستخدام الاستعارات القبيحة والمجازات الرديئة ، يقول الجرجانى : أهناك بيت شعر أحوج إلى تفسير بقراط من قول أبى تمام :

يومٌ أفاض جــوًى أغاض تعزّياً      خاض الهوى بَحْرَىْ حجاه المُزْبِد

كما يقول الآمدى : وهل يزيد قبح الاستعارة على قوله :

فلوَيْتَ بالموعود أعْناقَ الورىٰ      وحطَمْتَ بالإنجــاز ظَهْــرَ المَوْعِـد

---

١- القردد والقردود : الغليظ .

٢- غل : قبض وطوى ، المروراة : الفلوات والمفاوز .

هذا وقد أظهر الشاعر روح التشيع فى قصيدته وذلك لأن الخليفة " المأمون " كان يتشيع فى أول حياته فأراد الشاعر أن يتقرب إليه لينال عطاياه ومنحه وإن لم يكن متشيعاً ولكنه النفاق من أجل المال فيقول :

هذا أمين الله آخرُ مصْدَرِ شَجِى الظَّمَاءُ به وأولُ مَوْرِدِ
ووسيلتى فيها إليك طريفةٌ شَامٍ يدينُ بحبِّ آل محمد
نيطتْ قلائدُ عزْمِهِ بمُحَبَّرٍ مُتَكَوِّفٍ مُتَدَمْشِقٍ مُتَبَغْدِدِ
حتى لقد ظن الغواةُ وباطلٌ أنْ قد تجسَّم فى رُوحِ السَّيِّدِ

فالشاعر يصف الممدوح بأنه أمين الله كما وصفه بأنه الإمام من قبل ويتوسل إليه بأنه من آل الشام يحب آل النبى صلى الله عليه وسلم بالرغم من أن الشام كان يناصر الأمويين لا العلويين ، وأنه متكوف : من أهل الكوفة الذين عرفوا بالتشيع وحب آل البيت ، ومتدمشق ومتبغدد إلا أنه لم يغال غلوا مسرفا حيث أنكر الحلول الذى قالت به بعض طوائف الشيعة .

ويلاحظ أن القصيدة قد خلت من الخاتمة التى كان الشاعر - غالبا - ما يختم بها مدحته ، حيث اقتصر على المقدمة الغزلية التى حازت نحو أحد عشر بيتا بينما أخذت أبيات المدح باقى القصيدة التى بلغت ستة وأربعين بيتا وبناها الشاعر على بحر " الكامل " الذى أكثر منه فى مدائحه وأدار أكثرها عليه لملائمته لهذا النوع من الشعر .

ومن مدائحه الرائعة التى بدأها بمقدمة غزلية مدحته " لعمر بن عبد

العزيز الطائى " من أهل حمص والتى يقول فى مقدمتها : (١)

يا هـذه أقْصِرى ما هـذه بَشَـرٌ ... ولا الخرائدُ من أترابـها الأُخَرُ

خرجن فى خضرة كالروض ليس لها ... إلا الحُلِىّ على أعنـاقها زَهَرُ

بـدُرَّةٍ حفَّـها من حولـها دُرَرُ ... أرْضى غَرامىَ فيـها دَمْعِىَ الدررُ

ريمٌ أبتْ أن يَريمَ الحزنُ لى جَلَداً ... والعينُ عينٌ بمـاء الشَوْق تَبْتَدِرُ

صبّ الشـبابُ عليـها وهْوَ مُقْتَبَلٌ ... ماءٌ من الحُسْن ما فى صفوه كدرُ

لولا العيونُ وتفاحُ الخـدود إذاً ... ما كان يَحْسُدُ أعْمى مَنْ له بَصَرُ

هذه أبيات رائعة من شعر الغزل إستهل بها " أبو تمام " مدحته وبدأها بخطاب عاذلته التى تلومه على حبه لمحبوبته هذه المحبوبة التى بلغت المدى حسناً وجمالاً فليست هى ولا الخرائد الأخر من أترابها من البشر أى هى جنية وكذلك أترابها ، وقد خرجت هذه الخرائد الحسان فى زينة خضراء من لباسها كأنها روضة غناء تشيع بالخضرة والبهجة ، وبدرة حفها من حولها درر ، هذه المرأة التى تشبه الظبى فى جمالها أبت أن يجاوز الحزن صدرى ويفارقه ولا أستطيع أن أدفع الحزن عنى بجلادتى ، هذه المرأة الجميلة الشابة الناضرة الصافية الجمال التى تشبه خدودها التفاح فى لونه، ولولا العيون التى يدرك بها تفاح الخدود الحسان ما حسد الأعمى من له بصر .

وبعد أن تغزل الشاعر بمحبوبته إنتقل إلى الوقوف على الأطلال وبكاء الديار والآثار مخالفاً بذلك المعهود والمألوف حيث كان القدماء يبدأون المقدمة بالوقوف على الديار وبكاء الأطلال ثم ينتقلون إلى الغزل ، ولكن " أبا تمام " قلب القاعدة وعكس المقدمة فتغزل أولا ثم

---

١ - جـ٢ ، ص( ١٨٤ وما بعدها ) ديوان الشاعر ، من البحر البسيط .

وقف على الديار وبكاها فقال :

حُيِّيتَ من طلل لم تُبْقِ لى طللا (١) إلاّ وفيه أسىً ترشيحه الذِّكَرُ

قالوا أتبكى على رسم فقلت لهم : من فاته العينُ هدَّى شوْقَهُ الأثرُ

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الكرام واللئام وصفات كل من النوعين فى أربعة أبيات :

إن الكرام كثيرٌ فى البلاد وإنْ قلّوا كما غيرُهم قُلٌّ وإن كثروا

لا يَدْهمنَّك من دهمائهمْ عددٌ فإنّ جُلّهمُ بل كلهمْ بقرُ (٢)

وكلما أمست الأخطارُ بينهمُ هلْكى تبيّنَ مَنْ أمسى له خطرُ

لو لم تُصادف شياتُ البُهْم أكثر ما فى الخيل لم تُحمد الأوضاحُ والغُررُ (٣)

أى أن الكرام عظيم شأنهم يكثر بهم الخير وإن كانوا قليلين ، ولا تخشى عدد اللئام وفعلهم فما هم إلا كالأبقار لا شأن لهم ، وكلما أذل اللئام صغر قدرهم وازداد من له خطر جلالة ، ولو لم تجد أكثر الخيل بهما على لون واحد لم تحمد الغر المحجلة ، وكذلك يحمد الفضلاء لأن أكثر الناس جهال .

ثم تخلص " أبو تمام " من ذلك إلى مدح الممدوح معددا صفاته وخلاله الحميدة مركزا على صفة الكرم واصفاً إياه بالقوة والعزم متعرضاً لأهله بالمدح والإشادة كعادته :

---

١- الطلل : ما شخص من آثار الديار ، لم تبق لى طللا : أى جسدا .

٢- دهمائهم : جماعتهم .

٣- شيات البهم : البهم : جمع بهيم .

نعـــم الفتى عُمَـــرٌ فى كل نائبـــةٍ    نابت وقلت له * نعم الفتى عمر *
يُعطي ويَحْمَـــد من يأتيه يحمـــده    فشُـــكْرُه عِـــوَضٌ ومالُه هَـــدَرُ
مُجَـــرَّدٌ سَـــيْفَ رأيٍ من عزيمتـــه    للدهر صيقله الإطْـــراقُ والفكَرُ
عَضْباً إذا ســـلّه فـي وجـه نائبـــة    جاءت إليه بناتُ الدهر تعتـــذرُ
هو الهُمَامُ هو القَّابُ المُريح هو الـ    ـحَتْفُ الوَحِيُّ هو الصمصامة الذكَرُ
فتىً تـــراه فَتَنْـــفي العُسْـــرَ غرتُه    يُمْنـًا وينبع من أسرارها اليُسُـــرُ

إلى أن قال مادحـــا أهله :

لله دَرّ بنى عبـــد العزيـــز فكمْ    أرْدَوا عزيزَ عِـــدىً فى خَدِّه صَعَـــرُ

ويستمر يمدحهم إلى آخر القصيدة التى بلغت ثمانية وعشرين بيتا ولم يطل فيها كعادته فى مدائحه .

ونرى الشاعر قد جعـل للمقـدمة اثنى عشـر بيتا ويخص المـدح بستة عشر بيتا مع أنه الغرض الأصلى للقصيـدة ممـا يلاحـظ معـه طغيان المقـدمة على الغـرض الأصلى حتى كادت أن تعـادله فى عـدد الأبيـــات .

وأبو تمام بارع فى مدحته : صورا ومعان وأخيلة وأسلوبا وألفاظا وقد أكثر من أدوات البديع خاصة الجناس والطباق واعتمد عليها فى تصوير صوره وإبراز معانيه فضلا عن الاستعارات الجميلة والتشبيه المصيب والكناية الواضحة التى زادت من جمال أبياته .

ومن مدائحه التى اسـتهلها بمقدمـة غزليـة:قصيدته التى مدح فيـها

" عياشا " وعاتبه وبدأها بقوله : (١)

| | |
|---|---|
| وثناياكِ إنها إغْريضٌ | ولآلٍ تُومٌ وبَرْقٌ وميضٌ (٢) |
| وأقاحٍ منوَّرٌ فى بِطاحٍ | هزه فى الصباح روضٌ أريضُ (٣) |
| وارتكاضِ الكرى بعينيكِ فى النوْ | مِ فنونا وما لِعيني غموضٌ (٤) |
| لتكَاءَ دَنَني غِمارٌ من الأحْـ | ـداث لم أدْرِ أيَّهنَّ أخوضُ (٥) |
| أتأرتني الأيامَ بالنظر الشزْ | ر وكانتْ وطرْفُها لى غَضِيضُ (٦) |

حيث يحلف الشاعر بثنايا حبيبته البيضاء التى تشبه البرد واللآلىء العظيمة ، وثغرها الذى يشبه نور الأقحوان ، وعينيها الفاترتين الناعستين وعينيه الساهرتين ؛ أن محبوبته فاتنة تفتن من يراها ويحبها ويهواها وأنها قد فتنته وسببت له الشقاء بحيث لم يعد قادرا على تحمل مصائب الدهر ونكباته بجوار شقائه وآلام حبه لها .

ثم يستمر الشاعر فى الحديث عن وصفه حاله وينتقل إلى وصف الرحلة والراحلة ويتخلص منها إلى مدح الممدوح وعتابه وذلك فى أبيات أكثر فيها من ذكر الغريب والثقيل على السمع من الألفاظ وجاء أسلوبه فى القصيدة متفاوتا لا مستويا مكثراً من أدوات البديع معددا موضوعات القصيدة مما جعلها لا تتحقق فيها الوحدة الموضوعية .

---

١- جـ ٢ ، ص ٢٨٧ وما بعدها ديوانه ، من البحر : الخفيف .

٢- الإغريض : الطلع ، والبرد . والتوم : اللآلىء العظيمة .

٣- البطاح : جمع أبطح وهو بطن الوادى ذى الرمل .

٤- الارتكاض : التحرك .

٥- تكاء دنى : شق على وثقل .

٦- أتأرتنى : يقال : أتأره بصره : إذا أتبعه إياه بحدة .

ومن مدائحه الرائعة التى بدأها بالغزل قصيدته التى مدح فيها : " الحسن بن رجاء " وقال فى مقدمتها : (١)

| | |
|---|---|
| كُفّي وغَـالِكِ فإنني لكِ قالي | ليستْ هَوادي عَزْمَتي بِتَوالي |
| أنا ذو عرفْتِ فإنْ عرتْكِ جهالةٌ | فأنا المقيمُ قِيامةَ العُذّال |
| عطفتْ ملامَتَها على ابن مُلمّةٍ | كالسيف جأبِ الصّبر شَختِ الآلِ |
| عادتْ له أيامه مُسْودّةً | حتى توهّم أنهن ليالي |
| لا تنكرى عَطَلَ الكريم من الغنى | فالسيل حرْبٌ للمكان العالي |
| وتنظّري خَبَبَ الركاب يَنُصُّها | مُحْيي القريض إلى مُميتِ المالِ |

حيث استهل الشاعر مدحته القصيرة التى بلغت ثلاثة عشر بيتا بمقدمة غزلية رائعة حازت ستة أبيات متحدثاً فيها عن فروسيته ثم تخلص منها إلى المدح تخلصاً حسنا ، والقصيدة مع قصرها تتصف بالروعة والبراعة والمعانى المخترعة الجديدة كما هو موجود فى " البيت الخامس " .

وبلغ من روعة هذه المدحة أن استحسنها الممدوح بعد أن طلب إنشادها من الشاعر وحينما وصل " أبو تمام " إلى البيتين : الخامس والسادس قام الحسن بن رجاء وقال : والله لا أتممتها إلا وأنا قائم ، فقام أبو تمام لقيامه وظل ينشد قصيدته إلى أن فرغ منها فتعانقا وجلسا فقال : والله لو كانت من الحور العين لكان قيامك أوفى مهورها " (٢)

ومن مدائحه التى استهلها بالغزل المصنوع مدحته فى : " محمد بن

---

١- جـ ٣ ، ص ( ٧٦ - ٧٨ ) ، ديوان أبى تمام ، من البحر الكامل .

٢- ص ( ١٦٧ - ١٧٠ ) ، أخبار أبى تمام . للصولى .

حسان الضبي " والتي بدأها بقوله : (١)

قَدْكَ اتَّئِبْ أرْبيتَ في الغُلَــواءِ      كم تَعْذِلون وأنتمُ سُــجَرائي ؟
لا تسْـقني ماءَ المَــلام فإنني      صَبٌّ قد اســتعذبْتُ ماءَ بكائي

حيث راح الشاعر يخاطب أصدقاءه ويؤنبهم ويطلب منهم أن يكفوا عن لومه فى حبه وعشقه ، ويرجوهم أن يقلعوا عن ذلك لأنه محب عاشق قد ملأ الحب قلبه واستحوذ العشق عليه فملكه حتى ألف البكاء واستعذب الدموع ولا يستطيع أن يقلع عن الحب للومهم وما عليهم إلا أن يتركوه وشأنه .

ومع أن المطلع جيد والإبتداء حسن إلا أن " الآمدى " قد عابه وقال إنه غير صالح (٢) ، كما عاب البعض قوله فى البيت الثانى ، وراح الصولى يدافع عنه ويقول : وقالوا : ما معنى ماء الملام ؟ وهم يقولون : كلام كثير الماء (٣) ، وظل " الصولى " يدافع عن الشاعر وأتى بأمثلة وشواهد كثيرة من القرآن الكريم وأشعار القدماء تحمل نفس المعنى الذى عابوه . (٤)

ثم انتقل الشاعر من المقدمة الغزلية القصيرة إلى وصف الطبيعة وصفاً رائعا ، حيث راح يصف مكانا أصابه المطر بوابله وعمه الغيث بطله حتى تحول إلى جنة غناء تشيع بالبهجة وتفيض بالخضرة وتزخر بالأزهار

---

١- جـ١ ، ص ( ٢٠ - ٣٩ ) ، ديوان أبى تمام بشرح التبريزى .

٢- ص ( ٤٧٠ ) الموازنة للآمدى .

٣- ص ( ٣٣ ) أخبار أبى تمام . للصولى .

٤- ينظر : أخبار أبى تمام ص ( ٣٤ ) وما بعدها .

والورود والأشجار والرياحين وتفوح فيها الرائحة الطيبة كأنها المسك أو الكافور وبدت الأرض وكأنها تلبس ثيابا يمانية مزركشة :

ومُعَرَّسٍ للغيث تخفق بينَهُ — راياتُ كل دُجُنَّـةٍ وَطْفاء (١)
نشرتْ حدائقَه فصرْنَ مَآلفاً — لِطرائف الأنْـواء والأنْـداء
فسقاه مِسْكَ الطلِّ كافورُ الصَّبا — وانحلّ فيه خيطُ كل سماء (٢)
عُنِيَ الربيعُ بروضه فكأنما — أهْدَى إليه الوشْيَ من صنعاء (٣)

ثم انتقل من وصف الطبيعة إلى وصف الخمر وصفاً مستفيضا على غير عادته معدداً أوصافها وأسماءها ذاكراً أثرها وما تحدثه مشبهها بتشبيهات عديدة رائعة ، فيقول فى وصفها :

صَبَّحْتُه بسلافةٍ صبَّحْتها — بسلافةِ الخُلطاء والنُّدماء (٤)
بمدامةٍ تغْدُو المُنَى لكؤوسها — خَوَلاً على السَّرَّاء والضَّرَّاء (٥)
راحٌ إذا ما الراحُ كنَّ مطيَّها — كانت مطايا الشوْق فى الأحشاء (٦)
عِنبيةٌ ذهبيةٌ سَبكتْ لها — ذَهَبَ المعانى صاغةُ الشُّعراء (٧)
أكلَ الزمانُ لطولِ مُكْثِ بقائها — ما كان خامَرَها من الأقْذاء
صَعُبَتْ وراضَ المزْجُ سيِّئَ خُلْقِها — فتعلمتْ من حُسْن خُلْق الماء
خرْقاءُ يلعبُ بالعقول حَبَابُها — كتلعُّب الأفعال بالأسماء (٨)

---

١ – معرس : إسم موضع ، وأصل التعريس : النزول فى آخر الليل ، الدجنة : ليلة ذات دجن ، الوطفاء : المتدلية الهيدب .
٢– الطل : أضعف المطر .
٣– الوشى : كل ما نقش من الثياب وحسن .
٤– السلافة الأولى : الخمر ، والثانية : إستعارها ويعنى بها : الأفضل .
٥– المدامة : من أسماء الخمر ، الخول : ما يملكه الرجل .
٦– الراح الأولى : للخمر ، والراح الثانية : جمع راحة الكف .
٧– سبكت : أذابت .
٨– الخرقاء : وهى التى لا تحسن العمل من النساء وقد استعارها للخمر ، والحباب : طرائق الماء فيها إذا مزجت .

وضعيفةٌ فإذا أصابتْ فُرْصَــــةً ... قتلتْ ، كذلك قُدرةُ الضُّعفــاءِ (١)
جَهْمِيَّةُ الأوْصـــافِ إلاّ أنهم ... قد لقبوها جَوْهَــرَ الأشــياءِ (٢)
وكأن بهجتها وبهجةَ كأْسِــها ... نارٌ ونــورٌ قُيِّــدا بوعَـــاءِ (٣)
أو درةٌ بيْضــاءُ بــكْرٌ أُطبِقَتْ ... حَبَــلاً على ياقوتةٍ حمــراءِ (٤)

ثم انتقل إلى وصف الرحلة والصحراء فى ثلاثة أبيات تخلص منها إلى مدح الممدوح فقال :

وإلى ابن حسانَ اعْتَدتْ بى هِمّةٌ ... وقفتْ عليــه خُلتى وإخــائى

- ومضى يشيد به ويعدد صفاته ومثله الحميدة إلى أن قال فيه :

يا غاية الأدبــاء والظرفــاء بلْ ... يا سيد الشــعراء والخطبــاء
يَحْيى بن ثابتٍ الذى سنَّ الندى ... وحوىٰ المكارم منْ حياً وحيـاء

والقصيدة ثلاثون بيتاً ، تغزل منها ببيتين ووصف الطبيعة فى أربعة أبيات ووصف الخمر فى أحد عشر بيتا ، ووصف الرحلة والراحلة فى ثلاثة أبيات وخص المدح - وهو الغرض الأصلى - بتسعة أبيات فقط مما يلاحظ معه بوضوح طغيان المقدمة - التى عدّد موضوعاتها - على الغرض الأصيل للقصيدة ، حيث أخذت المقدمة واحداً وعشرين بيتا بينما حاز المدح تسعة أبيات فقط .

---

١ - الفرصة : الخلسة .

٢- الجهمية : طائفة من المتكلمين ينسبون إلى رجل يقال له : جهم .

٣- شبه الخمر بالنار والزجاجة بالنور وقد اجتمعا وهو تشبيه عجيب بديع .

٤- شبه الكأس بدرة بكر لم تثقب ، والخمر بياقوته حمراء فكأنها حمل فى جوفها وهى حبلى بها .

وتبعاً لتعدد موضوعات المقدمة من : غزل وطبيعة وخمر ورحلة فضلا عن المدح خلت القصيدة من الوحدة الموضوعية وجاءت متعددة الموضوعات ، إلا أن الشاعر كان بارعا فيها : وفى كل موضوع من موضوعاتها وأجاد فيها إجادة بالغة وجاءت بارعة فى معانيها وصورها محكمة النسج فى أسلوبها،قوية جزلة فى ألفاظها وتراكيبها ، وقد أكثر فيها الشاعر - كعادته - من ألوان البديع - خاصة الجناس والطباق ، وألح فى ذلك عن قصد منه إلا أنها كانت رائعة زانت أبياته وزادت من جمالها ، فضلا عن التشبيهات الرائعة المصيبة والاستعارات البديعة العجيبة والكنايات المحكمة التى أشاعت الحياة والحركة فى الأبيات وزادت من جمالها .

وهناك قصائد أخرى إستهلها " أبو تمام " بالمقدمة الغزلية ناهجا فيها ما عرف عنه فيما تقدم من نماذج .(١)

ومن مدائحه التى استهلها بمقدمة تقليدية قديمة: مدائحه التى استهلها بمقدمة الظعن ، وقد استهل بهذه المقدمة أكثر من عشر مدائح وقد سار فيها فى الاتجاه الذى اتبعه الشعراء العباسيون السابقون عليه متخففاً من بعض العناصر البدوية التى شاركت هذه المقدمة فى الشعر القديم السابق وذلك تبعاً للتغير الذى طرأ على العصر العباسى والتطور الحضارى الذى ساده ، حيث تغير أسلوب الحياة ونمطها ولم تعد الرحلة والهوادج من الألوان البارزة فى صورة الحياة العباسية ، لذا رأينا " أبا تمام " لا يهتم بتصوير مناظر الإرتحال ولا بوصف الدروب والمسالك

١- ينظر ديوانه :
جـ١ ص( ١٤٦ ، ١٣٨ ) - جـ٢ ص( ١٨٤ ، ٢١٠ ، ٢٥٣ ، ٢٧٤ ) - جـ٣ ص( ٢٧٢ ، ٣٤٣ ) .

والدليل ولا الآبار والعيون التى تمر بها الرحلة ، ثم تمضى فى رحلتها حتى تصل إلى هدفها المنشود، بل نراه يعنى بذكر الظعن مركزا على الفراق وموقف الوداع مهتما بوصف بكائه وأثر الفراق على نفسه وتجلده ونفاذ صبره وسعة صدره حين الفراق وإن كنا نجده نادرا ما يلم ببعض العناصر البدوية القديمة فى مقدمته تلك .

ومن هذا القبيل مدحته التى مدح بها " حبيش بن المعافى " قاضى " نَصِيبين " و " رأس عين " ؛ فيقول فى مقدمتها : (١)

نُسائلها أيَّ المواطن حلَّتِ ... وأى ديارٍ أوطَنَتْهَا وأيَّتِ (٢)
وماذا عليها لو أشارتْ فودعتْ ... إلينا بأطرافِ البنان وأومتِ
وما كان إلا أن تولتْ بها النوى ... فولى عزاءُ القلب لمّا تولت
فأما عيون العاشقين فأَسْخِنَتْ ... وأما عيون الشامتين فقرَّتِ
ولما دعانى البين وليتُ إذْ دعا ... ولما دعاها طاوعتْه ولبتِ
فلم أر مثلى كان أوفى بِذمَّةٍ ... ولا مثلَها لم تَرْعَ عهدى وذِمتى
مشوقٌ رمتهُ أسهُم البين فانْثنى ... صريعا لها لما رمته فأصْمَت
ولو أنها غير النوى فوقتْ له ... بأسهمها لم تُصْمِ فيه وأشْوَتِ
كأن عليها الدمعَ ضربةُ لازبٍ ... إذا ما حَمَام الأيْك فى الأيك غنّتِ
لئن ظمئتْ أجفانُ عينى من البكا ... لقد شربت عينى دما فتروت
عليها سلام الله أنّى استقلّتِ ... وأنى استقرت دارُها واطمأنتِ

حيث نرى الشاعر يسأل محبوبته عن المكان الجديد الذى ارتحلت إليه وعن الديار الجديدة التى أقامت فيها بعد ارتحالها ، ويأسى

---

١- جـ١ ص( ٢٩٩ ) ديوانه بشرح التبريزى . من البحر الطويل .

٢- أوطنتها : جعلتها وطنا لها .

الشاعر لعدم توديع حبيبته إياه حتى ولو بأصابعها أو بالإشارة ، بل ودعته وفارقته فاشتد ألمه وفقد صبره وألهب قلبه بنار فراقها وراح يبكى بعيون دامعة غزيرة الدمع،على حين فرح الشامتون بذلك وقرت عيونهم هنالك ، ويتعجب الشاعر ويدهش لأمر محبوبته معه فهو لا يتحمل فراقها وتذوب نفسه ويذوب فؤاده عند ارتحالها فى حين أنها مشغولة عنه لم ترع له عهدا ولا ذمة ، فبينما هو وفى لها ولحبها تخون هى عهوده وتنساه ، ومع ذلك يؤثر عليه الفراق فحين فراقها خر صريعا بسهم الفراق الذى أصابه وسدد إليه ، أسهم الفراق هذه التى أصابت الشوى وأخطأت المقتل ، وبالرغم من موقفها منه إلا أنه لا يستطيع أن يتمالك عند فراقها عن البكاء، ويروح فى البكاء حتى يسيل الدم من عينيه حزنا لفراق محبوبته ، بل إنه يدعو لها ويتمنى لها إقامة مطمئنة أين أقامت وسكنت .

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف رحلته وراحلته والصحراء ومشاهدها موضحا ما كابده من مشقة وهول فى رحلته :

ومجهولةِ الأعْلام طامسةِ الصُّوى إذا اعتسفتْها العيسُ بالركب ضلّتِ (١)
إذا ما تنادى الركبُ فى فلواتها أجابتْ نـــداءَ الركب فيها فأصْدتِ (٢)
تعسّفتَها والليـــلُ مُلْقٍ جِرانَه وجوزاؤُه فى الأفْـــق حين استقلت (٣)
بمُعَمَةِ الأنساع مُوجَدَة القَــرا أمونِ السّرى تنجو إذا العيس كلت (٤)
طمـــوحٌ بأثناءِ الزمـــام كأنما تَخالُ بها من عـــدْوها طيفَ جِنّةِ (٥)

---

١- الصوى : جمع صوة وهى أعلام من حجارة تنصب ليهتدى بها .

٢- أصدت : أفعلت من الصدى .

٣- تعسفتها : مشيت فيها .

٤- الأنساع : جمع نسع وهو سير مضفور ، ومنعمة : مملوءة ، القرا : الظهر ، أمون السرى : يؤمن عثارها عند السير .

٥- عدوها : سيرها ومشيها .

ثم يتخلص تخلصا حسنا من مقدمته إلى مدح ممدوحه فيقول :

إلى حيثُ يُلفى الجودُ سهلا منالُه وخيرِ امرئٍ شُدَّتْ إليه وُحطتِ
إلى خير من ساس الرعيةَ عدلُه ووطَّد أعلام الهدى فاستقرت
حيشُ حيشُ بن المُعافى الذى به أُمِرَّتْ حبالُ الدين حتى استمرت
ولولا أبو الليث الهمام لأَخْلَقَتْ من الدين أسبابُ الهدى وأرَثَّت
أقرَّ عمودَ الدين فى مُستقَرّه وقد نهلت منه الليالى وعَلَّتَ

ويمضى الشاعر فى مدح الممدوح مشيداً به أعظم إشادة مركزاً على ما قام به من جهود لتثبيت دعائم الدين واستقراره واصفا إياه : بحسن السياسة والعدل والعلا والجود والقوة وعظم الهمة وسداد الرأى وحسن القيام بالأمور الصعبة ، ومن شدته تخاف منه الأيام وترهبه ، ولولاه لانقطع الجود والندى وأنه حلّ من العز المنيف محله وأنه يرجح الناس بحلمه وعقله ويستمر فى مدحه إلى أن يختم القصيدة ببيت منوها فيه بعطاء الممدوح ورجائه .

فأبو تمام قدم للمدحة بمقدمة الظعن ثم انتقل إلى وصف الرحلة على عادة الشعراء القدامى مثبتا فى مقدمته كثيرا من العناصر القديمة وإن لم يحذها حذو النعل للنعل إلا أنه نهج فيها نهج الأقدمين إلى حد بعيد ، ثم انتقل فى حسن تخلص من المقدمة إلى الغرض الأصلى للقصيدة ، ثم جعل خاتمها بيتا يؤذن بانتهائها وهو ما يعرف بحسن الخاتمة ، فضلا عن التصريع فى مطلع القصيدة الذى يعد من أحسن المطالع وحسن الابتداءات .

وحقاً : القصيدة رائعة فى أسلوبها بارعة فى صورها ومعانيها بل إن أسلوبه يفيض عذوبة وحلاوة وراح يرسلها إرسالا وراح يدقق فى المعانى

ويستخرج دقائقها غائصا وراءها منتهجا أسلوب المبالغة فى معانيه وصوره مزينا أبياته بأدوات البديع البسيطة التى نأت عن التكلف والتصيد فزادت أبياته جمالا فوق جمال ، فضلا عن أنه قد اختار لمدحته بحرا مناسبا بناها عليه وهو بحر " الطويل " الذى يلائم شعر المدح ويناسبه .

ومن مدائحه التى ابتدأها " بمقدمة الظعن " مدحته التى مدح فيها " أبا عبد الله أحمد ابن أبى دواد " ويقول فى أولها : (١)

سَعِدَتْ غَرْبَةُ النـوى بسـعاد … فهى طوع الإتهـام والإنجـاد
فارقتْنا وللمدامـع أنـوا … ء سـوارٍ على الخـدود غوادِ
كلَّ يـوم يسْفَحْنَ دمعـا طريفاً … يُمتَرى مُزْنُهُ بشـوقٍ تـلادِ
واقعاً بالخـدود والحَـرُّ منه … واقـع بالقلوب والأكبـاد
وعلى العيس خُـرَّدٌ يتبسَّمْـ … ـن عن الأشْنب الشتيت البُـرادِ
كان شوْك السَّيال حُسْنا فأمسى … دونه للفـراق شـوكُ القتـاد

حيث راح " أبو تمام " يصف ارتحال صاحبته " سعاد " بأنها أحيانا ترتحل إلى " تهامة " وأحيانا إلى " بلاد نجد " وإن لهذا الارتحال أثره على نفس الشاعر ومشاعره فهو حزين متألم يبكى بدموع غزار لفراقها ، هذه الدموع الغزيرة التى تشبه السحب التى تأتيها الرياح صباحا ومساء حتى إنه تعود البكاء وأصبح عادته وإلفه ، وهذه الدموع الحارة كأنها تقع على قلبه وكبده كالجمر . ثم راح الشاعر يصف جمال الراكبات على العيس ويشبه ثغرها بالبرد ويقول : لقد كان هذا الثغر حسنا نقيا فى عين المحب كشوك السيال فلما وقع الفراق حال دون هذا العاشق ودونه شوك القتاد .

---

١- جـ١ ، ص( ٣٥٦ ) وما بعدها ، ديوانه . من البحر الخفيف .

ولم ينتقل الشاعر إلى وصف رحلته إلى الممدوح ووصف راحلته والصحراء ومشاهدها - مثلما سبق - بل انتقل الى وصف " الشيب والشباب " موضحا عيوب المشيب فيقول :

شاب رأسي وما رأيتُ مشيبَ الرأ س إلا من فضْل شَيْبِ الفؤاد
وكذا القلوب في كل بؤسٍ ونعيمٍ طلائعُ الأجساد
طال إنكاريَ البياضَ وإنْ عُمِّرْ تُ شيئاً أنكرْتُ لونَ السواد
نال رأسي من ثُغْرة الهمِّ ما لم يَشْتَمِلْهُ من ثُغْرة الميلاد
زارني شخْصُه بطلعة ضَيْم عَمَرَتْ مجلسي من العُوَّاد

حيث ينتقل الشاعر من " الظعن " إلى الحديث عن الشيب والشباب ، فيقول : لقد أصابه من الهموم ما أشابه ولم يكن شيبه من كبر السن ، وأن كل ما يصيب الجسم من شيب وغيره فاعلم أنه بدأ بالقلب قبل الجسم ، وأن الشيب عاجله لكثرة هموم فؤاده ففؤاده منشأ الشيب ثم تسرى منه إلى جسده ، وأنه قد طال إنكار الشاعر للشيب فلما حدث وألفه سكن إليه ، ويرى أن الحوادث والمصائب هى التى عجلت بمشيبه وما شاب من الكبر وقد أتانى المشيب قبل حينه فبدل زوارى إلى عواد يعزوننى فى الشباب .

ثم ينتقل الشاعر إلى مدح ممدوحه ذاكرا إياه بالإسم - كعادته - فيقول :

يا أبا عبد الله أوريتَ زنْدا فى يدى كان دائم الإصْلاد (١)
أنت جُبْتَ الظلام عن سُبل الآ مال إذ ضل كلُّ هادٍ وحاد

وراح الشاعر يشيد بممدوحه معددا صفاته ومثله الحميدة غامسا معانيه فى أوعية فنه فتمتزج الفكرة بالصورة حتى تظهر فى ثياب رائعة غائصا وراء

---

١- أورى القادح الزند : إذا ظهرت ناره ، وأصلد الزند : إذا لم يور نارا .

معانيه مدققا فى صوره ناشرا أدوات البديع فى مدحته متفننا فى ذلك على ضروب شتى . والقصيدة مليئة بألوان البديع فى مقدمتها ، فنجد الجناس بين : " سعدت وسعاد " وبين " شاب ومشيب " ، والطباق بين : " الإنهام والإنجاد " وبين " بؤس ونعيم " وبين " البياض والسواد " ، والمشاكلة بين : " ثغرة الهم وثغرة الميلاد " ، وتزخر أبيات المدح بألوان البديع أيضا من جناس وطباق فضلا عن الاستعارات المتعددة والمبالغة المقبولة التى شاعت فى مدحته ، وفضلا عن التشبيه المصيب : حيث شبه دموعه بالسحب التى تسوقها الرياح .

وقد بلغت القصيدة ثلاثة وأربعين بيتا خص " الظعن " بستة أبيات وتحدث عن " الشيب والشباب " فى خمسة أبيات وخص المدح - وهو الغرض الأصلى - باثنين وثلاثين بيتا ، مما يلاحظ معه عدم طغيان المقدمة على الغرض الأصلى لها ، وإن بدت القصيدة متعددة الموضوعات : وصف الظعن والشيب والشباب والمدح إلا أنها قد تحققت فيها الوحدة الفنية حيث لاءم الشاعر بين أسلوبه وغرضه وتعبيره وشعوره ، وقد اختتم الشاعر مدحته بالدعاء للممدوح فى آخرها وهذا الدعاء يوحى بانتهاء القصيدة ويدل على انتهائها .

وقال أبو تمام يمدح : " أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى " بمدحة استهلها بمقدمة الظعن ، وقال فى مقدمتها : (١)

أمَا إنه لولا الخليطُ المودِّعُ ... وربعٌ عفا منه مصيفٌ ومرْبَعُ

لردتْ على أعقابها أرْيحيةٌ ... من الشوق واديها من الهمِّ مُتْرَعُ

لَحقْنا بأخراهم وقد حوَّم الهوى ... قلوبًا عهدْنا طيرها وهْى وُقَّعُ

١- جـ٢ ، ص(٣١٩) . ديوان الشاعر .

| | |
|---|---|
| فُردّتْ علينا الشمسُ والليلُ راغمٌ | بشمسٍ لهم من جانب الخِدْر تطلُع |
| نضا ضوْءُها صِبْغَ الدجنّة فانطوى | لبهجتها ثوبُ السماء المُجزَّع |
| فو الله ما أدري أأحلامُ نائمٍ | ألمت بنا أم كان فى الركب يوشع ؟ |
| وعهدى بها تحى الهوى وتميته | وتَشْعَبُ أعْشارَ الفؤاد وتصْدع |
| وأقْرَعُ بالعُتْبى حُميّا عتابها | وقد تستفيد الراحُ حين تُشعشع |
| وتَقفو إلى الجدْوى بجدْوى وإنما | يروقك بيت الشعر حين يُصرَّع |

يتحدث الشاعر عن فراق الأحبة وارتحالهم واندراس الربع بعد الرحيل وأنه لولا ذلك لقوى على رد الأريحية من الشوق إلا أن مفارقة الحبيب واندراس آثار دياره قد أورثاه الغم ، وقد كان الشاعر ساكن القلب قبل فراقهم فلما رَحلوا لحق بهم وقلبه طائر يحوم فوق مطيهم وتتبعهم كالطير التى تحوم على الشئ وتدور حوله والهوى هو الفاعل ، ثم راح يصف محبوبته ويصور جمالها ويشبهها بالشمس الساطعة وسط ظلام الليل ، وهى تنظر من الخدْر كأنها شمس أضاءت الدنيا بجمالها ونورها مع أن ذلك كان أثناء الليل ، فهل كانَ ذلك خيالا أم أن " يوشع ابن نون " - الذى يزعم أهل الكتاب أن الشمس قد ردت له - كان فى الركب ؟ ويرى أن هذه المحبوبة تحيى هواه تارة بالهجران وتميته أخرى بالوصال ، وقد لاينها ليلين شدة عتابها له ويستعطف قلبها عليه كما تلين الخمر بالماء وتزول شدتها بعد مزجها به ، وأنها تسير إلى العطاء بالعطاء . والعطاء إنما يعجبك إذا كان على أثره مثله كما أن بيت الشعر يروقك إذا كان مصرعا وإذا أعطاها مرادها أتبعت عطيتها بعطية فيكون ذلك أشد لحبى لها مثل حبك لبيت الشعر المصرع .

ثم راح الشاعر يتحدث عن " الشيب والشباب " حديثا طويلا

إستغرق ستة أبيات ، موضحا عيب الشيب وأثره على النساء وعلى نفسه أيضا ، فيقول :

ألم تر آرامَ الظباء كأنما رأتْ بىَ سِيدَ الرمل والصبح أدْرَعُ ؟
لئن جزع الوحشىّ منها لرؤيتى لإنسيُّها من شيب رأسىَ أجزع
غدا الهمّ مختطاً بفودىَ خِطةً طريقُ الردى منها إلى النفس مَهْيَعُ
هو الزَّوْرُ يُجْفىٰ والمُعاشَرُ يُجْتوىٰ وذو الإلف يُقْلى والجديدُ يُرقَّعُ
له منظر فى العين أبيضُ ناصعٌ ولكنه فى القلب أسودُ أسْفَعُ
ونحن نُزجّيه على الكُرْه والرضا وأنف الفتى من وجهه وهو أجدع

ثم ينتقل بعد ذلك يشكو من الأيام فى أربعة أبيات ثم يتخلص من ذلك إلى مدح الممدوح بقوله :

لقد آسف الأعداءَ مجدُ ابن يوسف وذُو النقْص فى الدنيا بذى الفضْل مولعُ
أخذتُ بحبل منه لمَّا لويْتُه على مِرَرِ الأيام ظلتْ تُقطّعَ
هو السيلُ إنْ واجهته انقدْتَ طَوْعَهُ وتقْتادُه من جانبيه فَيتْبَعُ
يقولُ فيُسْمِعُ ويمشى فيُسرعُ ويضربُ فى ذاتِ الإله فيُوجِعُ

ويستمر فى مدح ممدوحه مشيدا به معددا صفاته : من الجود والعطاء والتقوى والمعروف والشجاعة والقوة ، معددا معانيه حول ذلك غائصا وراءها ممعنا فى فكره متغلغلا إلى ما وراء الظواهر غائصا وراء المعانى مهما عمقت وراح يستنبطها من أغوارها مهما دقت مستمدا أفكاره من خياله ومن الواقع الملموس مفتنناً فى أسلوب المبالغة حتى جاء منها بما يملأ النفس إعجابا بشاعريته وبراعته ، مكثرا من ألوان البديع والاستعارة ناشرا لها فى أبياته مفتننا فيها إلى حد بعيد .

والقصيدة بدأت بالحديث عن الظعن ثم عن الشيب والشباب ثم إلى الشكوى من الأيام ثم انتقل إلى المدح مما جعلها متعددة الموضوعات ، ونرى الشاعر قد اختتم القصيدة بالفخر بشعره والحديث عن قصيدته حديثا مستفيضا كما هو معروف عنه فى شعره ، وقد بنى قصيدته التى بلغت واحدا وخمسين بيتا على بحر " الطويل " وهو من بحور القوة التى تلائم شعر المدح وأغراض الشعر الأخرى المماثلة .

وللشاعر نماذج أخرى من المدائح التى استهلها بمقدمة " الظعن " مثل مدحته فى : " أبى المغيث موسى بن إبراهيم الرافقى " ، والتى بدأها بقوله : (١)

صَرْفُ النـوى ليس بالمَكيثِ      يَنْبثُ ما ليـس بالنبيـثِ

* وهى مدحة تضم ثمانية وعشرين بيتا بناها الشاعر على البحر البسيط ومهد لها بمقدمة بلغت ثلاثة عشر بيتا وختمها ببيتين إفتخر فيهما بمدحته وطلب عطاء الممدوح طلبا سافرا وخص المدح بثلاثة عشر بيتا فقط ، وقد أكثر فيها من الألفاظ الغريبة والثقيلة على السمع ولعب فيها بألوان البديع لعبا واضحا .

ومدحته " لأبى سعيد محمد بن يوسف الطائى " ، والتى استهلها بقـوله : (٢)

يا بُعْدَ غاية دَمْع العـين إنْ بَعُدوا      هى الصبابةُ طولَ الدهر والسُّهُدُ

قالوا : الرحيل غداً لاشك قلتُ لهمْ      اليومَ أيقنتُ أن اسم الحِمَام غدُ

* وهى مدحة رائعة بلغت ثلاثة وخمسين بيتا تحدث فيها الشاعر عن

---

١ - جـ١ ، ص( ٣٢٣ ) وما بعدها ، ديوانه . من البحر البسيط .

٢- جـ٢ ، ص( ١٠ - ٢١ ) ديوانه . من البحر البسيط .

" الظعن " فى خمسة أبيات فقط ثم انتقل إلى مدح الممدوح ومدحه بشعر رائق الديباجة بديع المعانى والصور رائع التصوير مزينا المدحة بأدوات بديعه التى زانت الأبيات وزادتها جمالا ورونقا وبهاء وتتجلى فيها ثقافته التاريخية ولم يجعل لها خاتمة كما هو الشأن فى معظم مدائحه ، بل اقتصر على المقدمة والغرض الأصلى للقصيدة .

- ومدحته الرائعة " للمعتصم " التى بدأها بقوله : (١)

فَحْواكَ عَيْنٌ على نجواكَ يا مَذِلُ حتَّامَ لا يتقضَّى قولك الخَطِلُ

※ وهى قصيدة رائعة مهد لها الشاعر " بوصف الظعن " ثم راح يتشبب فى صاحبته غزلا رائقا رائعا صب فيه كل عناصر فنه منه قوله :

يُخْزى رُكامَ النَّقَامَا فى مــآزرِها وَيَفْضَحُ الكُحْلَ فى أجفانها الكَحَلُ
تكاد تنتقلُ الأرواحُ لو تُرِكــتْ من الجُســوم إليــها حيثُ تَنْتَقِلُ

※ أى أن أعجازها أعظم من نقا الرمل،وسواد عيونها أشد من سواد الكحل ، ويعجب الناظرون منها فتحار فيها الأبصار حتى تكاد أرواحهم تخرج من عيونهم لشدة النظر وتحيرهم فيها .. فنرى إلى أى حد من الروعة بلغ أبو تمام فى تصوير حبيبته ؟ ثم انتقل الشاعر من التشبيب بمحبوبته إلى ذكر رحلته إلى الممدوح ثم راح يمدحه مدحا رائعا مضفيا عليه من عظيم الصفات وجليل الأعمال ناسبا إياه إلى آل النبى صلى الله عليه وسلم مصليا على " العباس " جده . ثم ختم المدحة بالحديث عن قصيدته مفتخرا بها حيث يقول :

غريبةٌ تؤنسُ الآدابُ وحْشَــتَها فما تَحُلُّ على قومٍ فَتَرْتَحِــلُ

※ أى أن المدحة وحشية المعانى لا يعرف غامضها إلا الآداب البارعة والعقول الثاقبة .

---

١- جـ ٣ ، ص ( ٥ - ٢٠ ) ديوانه . من البحر البسيط .

- والمدحة طويلة بلغت سبعة وأربعين بيتا ، وقد بناها الشاعر عن " البحر البسيط " .

ومدحته فى : " نوح بن عمرو السَّكسكيّ " والتى مهد لها بالظعن والحديث عن الفراق والارتحال ، والتى بدأها بقوله : (١)

| | |
|---|---|
| يومَ الفراق لقد خُلقتَ طويلا | لم تبق لى جَلَداً ولا معقُولا |
| لو حار مرتاد المنية لم يُرِدْ | إلا الفراقَ على النفوس دليلا |
| قالوا : الرحيلُ فما شككتُ بأنها | نفسي عن الدنيا تريدُ رحيلا |
| الصبر أجمل غير أن تلدُّداً | فى الحب أحرى أن يكون جميلا |
| أتظننى أجدُ السبيلَ إلى العزا | وَجَدَ الحِمَامُ إذاً إلىَّ سبيلا |
| رَدُّ الجَمُوح الصعْب أسهلُ مَطْلَباً | من ردّ دمْع قد أصاب مسيلا |
| ذكرتْكُمُ الأنواءُ ذكرى بعضكمْ | فبكتْ عليكمْ بكْرة وأصيلا |

واستمر الشاعر فى حديثه حتى انتقل إلى وصف الناقة وراح يصفها وصفا مستفيضا معددا صفاتها مركزا على سرعتها ، ثم انتقل إلى مدح الممدوح بعد مقدمة طويلة بلغت ثمانية عشر بيتا من جملة أبيات القصيدة التى تضم ثلاثين بيتا مما يلاحظ معه طغيان عنصر المقدمة على الغرض الأصلى للقصيدة وهو ما عابه النقاد القدماء وذموه .

والشاعر لم يجعل لقصيدته خاتمة - كعادته - وإنما اقتصر على المقدمة والموضوع الأصلى فقط .

وقد أخذ " الجرجانى " على " أبى تمام " التفاوت فى نسج القصيدة

---
١- جـ٣ ، ص ( ٦٦ - ٧١ ) ديوان أبى تمام - من البحر الكامل .

وعدم اتساقها فقال : " بينما هو مسترسل فى طريقته وجار على عادته حتى يختلجه الطبع الحضرى فيعدل به متسهلا ويرمى بالبيت الخنث فإذا أنشد فى خلال القصيدة وجد قلقا بينها ، نافرا عنها ... وربما افتتح الكلمة وهو يجرى على طبعه فينظم أحسن عقد ويختال فى مثل الروضة الأنيقة حتى تعارضه تلك العادة السيئة فيتسنم أوعر طريق ويتعسف أخشن مركب فيطمس تلك المحاسن ويمحو طلاوة ما قد قدم كما فعل أبو تمام فى كثير من شعره ومنه قوله .. ثم ذكر بعض الأبيات من أول القصيدة - ثم علق عليها بقوله : فهو كما تراه يعرض عليك هذا الديباج الخسروانى والوشى المنمنم حتى يقول :

للــــه درّك أىَ معّــــبرِ قفــــرةٍ     لا يُوحش ابنَ البيْضة الإجْفيلا (١)
أوْما تراها ، لا تراها هِـــــزَّة"     نشْأى العيون ، تعجْرفا وذَميلا (٢)

- فنغص عليك تلك اللذة وأحدث فى نشاطك فتورا وهذه الطريقة مانعى على أبى الطيب " . (٣)

❋ وحقيقة هذا مأخذ يؤخذ على " أبى تمام " فى معظم شعره حيث كان أسلوبه متفاوتا غير مستو ومستقيم على وتيرة واحدة وهو ما يختلف فيه عن " مسلم بن الوليد " صاحب مذهب البديع السابق والذى تأثر به أبو تمـــام .

---

١- الإجفيل : ذكر النعام ، ابن البيضة : الظليم .

٢- نشأى : تسبق ، التعجرف والذميل : الإسراع فى السير .

٣- ص ( ٢٢ - ٢٣ ) الوساطة بين المتنبى وخصومه ، تحقيـــق : محمـد أبو الفضـل إبراهيـم وعلى محمـد البجـاوى ، الطبعـة الثالثـة ، دار إحيـاء الكتـب العربيـة - بالقاهــرة .

وهناك مدائح أخرى غير ما ذكر قدم لها أبو تمام بمقدمة " الظعن " ونهل نفس المنهل الذى جرى عليه فيما ذكر . (١)

ومن مدائحه التى استهلها بمقدمة تقليديه قصيدته التى استهلها بمقدمة : " الشيب والشباب " وهى مدحة واحدة قدم لها بهذه المقدمة التقليدية والتى أفردها للحديث عن شيبه وشبابه . فضلا عن الحديث عن الشيب والشباب أثناء مقدماته الأخرى أيضا إلا أنه لم يرد فى ديوانه إلا مدحة واحدة قدم لها بهذه المقدمة وهى مدحته فى : " الحسن بن سهل " والتى بدأها بقوله : (٢)

أَبْـــدَتْ أســـَّى أنْ رأتْنـــى مُخْلِسَ القُصَبِ
وآل ما كان من عُجْـــب إلى عَجَـــبِ (٣)
ستٌّ وعشـــرون تدْعـــونى فأتبعُـــها     إلى المشيب ولَّم تظلمْ ولم تَحُبِ (٤)
يومى من الدهر مثلُ الدهر مُشْتَهرٌ     عزْماً وحزماً وســاعى منه كالحِـــقَبِ
فأصْغـرىَ أنَّ شَــيباً لاح بى حدَثاً     وأكْبرى أننى فى المهْـــد لم أشِـــبِ
ولا يُؤرقْكِ إيمـاضُ القتير بـــه     فإنَّ ذاكِ ابتســـامُ الـــرأْى والأدَبِ
رأتْ تَشَــنُّنَه فاهتـــاج هائجُـــها     وقال لِاعجُها للعَــبْرة : انْسكبى (٥)
لا تُنْـــكرى منـــه تخْديـــــداً تَجَلَّله
فالســـيفُ لا يُزْدرىَ إن كان ذا شُـــطَبِ (٦)

---

١- ينظر ديوانه : جـ ٣ ص ( ٧٢ - ٧٥ ) ، ص ( ٨٨ - ٩٧ ) ، ص ( ١٦٥ - ١٧٥ ) ، ص ( ١٧٦ - ١٨٣ ) .

٢- جـ ١ ص ( ١٠٩ - ١١٥ ) ، ديوان أبى تمام . والقصيدة من البحر البسيط .

٣- القصب : جمع قصبة وهى خصلة دقيقة من الشعر ، المخلس : فيه بياض وسواد .

٤- تحب : تأثم .

٥- تشننه : من تشنن الجلد أى خلق ، لاعجها : ما يؤثر فى القلب من الحب والحزن .

٦- تخدد : من الخد وهو حفر مستطيل فى الأرض ، شطب السيف : الطرائق التى فيه .

فى هذه الابيات يتحدث الشاعر عن الشيب وأثره على نفس صاحبته التى حزنت وتألمت ألما شديدا من شيبه بعد أن كانت معجبة به أيام الشباب . والشاعر غير حزين من شيبه ولم يذمه بل راح يدافع عنه ويحاول أن يقنع صاحبته به موضحاً لها أنه جاء فى أوانه ووقته وأن الزمان لم يظلمه فقد مضى له من العمر ست وعشرون عاما قضاها فى الهموم والأحزان ولاقى فيها الكثير من نوائب الدهر ومصائبه وأنه قاسى من الدهر ما لو شاب معه فى المهد لم ينكر ، ويرى أن شيبه قد تأخر عن وقته لانه قد جرب فى أقل المدد ما كان يومه فيه دهرا . وساعته حقبة طويلة ، فلا يمنع صاحبته النوم ابتداء الشيب برأسه فإن الشيب دليل تمام الرأى والأدب.ثم ضرب الإبتسام مثلا لشبه الشيب بكشف الثغر للتبسم ، موضحا لها أنه قد اكتسب بالشيب كثيرا من الخبرة وسداد الرأى والحكمة ، ويوضح الشاعر أنه حينما رأت صاحبته تغيره من الشباب إلى الشيب هاج هائجها ثم يطلب منها أن ترضى بذلك لانه لا يعيبه كما أن السيف لا يعيبه الطرائق المختلفة التى فيه .

ونرى الشاعر فى أبياته لا يذم الشيب ولا يصور عيوبه بل راح يدافع عنه ويرضى به عن طيب خاطر ، وقد استحسن النقاد القدماء هذه الأبيات وأعجبوا بها وأشادوا بها إشادة بالغة ، فنرى أبا هلال العسكرى يقول فيها : " إنه أحسن الإحتجاج فيها للشيب " .(١)

وأعجب بها الشريف المرتضى وقال : " إنه أحسن فيها غاية الإحسان ... وأما قوله : " من عجب إلى عجب " فمن البلاغة الحسنة والإختصار السديد البارع ، وقوله : " فإن ذاك ابتسام الرأى والادب "

١- ص ( ١٥٦ ) جـ٢ ديوان المعانى ، طبع : مطبعة القدس بالقاهرة عام ١٣٥٢ هـ .

يريد به أن الرأى والأدب والحلم إنما يجتمع ويتكامل فى أوان الكبرة والشيب دون الشباب .. وقد يصف الشعراء أبدا الشيب بأنه تبسم فى الشعر لبياضه وضيائه إلا أن هذه من أبى تمام تسلية عن الشيب وتنبيه على منفعته " . (١)

ثم انتقل أبو تمام من الحديث عن الشيب والشباب إلى الحديث عن الصحراء والرحلة ووصف الراحلة " الإبل " متخلصا منها حسن تخلص إلى مدح ممدوحه وذلك فى ثلاثة أبيات يقول فيها :

لا يطرد الهمَّ إلا الهمُّ من رَجُلٍ ... مُقَلْقِلٍ لِنَبِيَّاتِ القفرة النُّعُبِ (٢)

ماضٍ إذا الهِمَمُ التفتْ رأيتَ له ... بِوَخْدِهِنَّ استطالاتٍ على النُّوَبِ (٣)

ستصبح العيسُ بى والليلُ عند فتًى ... كثيرِ ذِكْرِ الرِّضا فى ساعة الغَضَبِ (٤)

ثم استمر الشاعر يمدح ممدوحه فى بقية أبيات المدحة التى تبلغ تسعة عشر بيتا فقط وقد مهد لها بمقدمة حازت عشرة أبيات وخص المدح بسبعة أبيات فقط مما يلاحظ معه طغيان عنصر المقدمة على الغرض الأصلى للقصيدة ، وقد راح الشاعر يمدح ممدوحه ويشيد به معددا صفاته : فهو حليم بالغ الحلم حيث يرضى عن المسىء فى وقت يغضب فيه غيره ، وأنه واسع المعروف ومحط أنظار طالبيه وسائليه ، وأنه صاحب

---

١- ص ( ١٠ ) ، الشهاب فى الشيب والشباب ، للشريف المرتضى ، طبع : مطبعة الجوائب بالقسطنطينية عام ١٣٠٢ هـ .

٢- الهم الأول : ما يجده الرجل فى صدره من الحزن ، والهم الثانى : الهمة والعزيمة ، مقلقل : من القلقلة وهى الحركة الشديدة ، نبات القفرة : الإبل ، النعب : التى تحرك رأسها عند السير أى نشيطة .

٣- الوخد : من سير الإبل .

٤- العيس : الإبل .

أخلاق حميدة أصبحت مجرى الأمثال التى لها أصول تنقل عنها إلى غيرها ، وكأنه من سعة خلقه وصبره على النوائب فى مثل العسكر اللجب وإن كان وحده ، وقد خلصت شيمته من اللؤم ولكرمها كأنها مصوغة من الذهب إلا أنها تهلك الذهب بالبذل وتفنيه ، وأنه حينما رأى الناس لا يجتمع فيهم الكرم والأدب جمع هو بينهما فى شخصه فهو أديب كريم ، فيقــول فى ذلك :

| | |
|---|---|
| صَدَفْتُ عنــه فلم تَصْدِفْ مودَّتــه | عنِّى وعــاوده ظنِّى فلــم يَخِــبِ |
| كالغيثِ إنْ جئْتَه وافــاكَ رَيِّقُــهُ | وإن تحمَّلْتَ عنــه كان فى الطَّلَبِ |
| خلائقَ الحَسَنِ استَوْفي البقاءَ فقدْ | أصبحْتِ قُرَّةَ عينِ المجْد والحسَبِ |
| كأنمــا هو من أخــلاقه أبــداً | وإنْ ثوى وحْــده فى جحْفلٍ لَجِبِ |
| صيغتْ له شيــمةٌ غــراءُ من ذهبٍ | لكنــها أهْلَكُ الأشــياءً للذهبَ |
| لمَّا رأى أدباً فى غيــرِ ذى كرمٍ | قدْ ضاع أوْ كرماً فى غير ذى أدب |
| سما إلى السُّورةِ العلْياءِ فاجْتمعا | فى فِعْله كاجتماع النَّـوْر والعُشُبَ |

✵ ثم ختم الشاعر المدحة ببيتين منوها فيهما بطلب العطاء من ممدوحه ، فالمدحة مع قصرها إلا أنها جيدة رائعة فى معانيها وصورها وقد صاغها الشاعر بأسلوب عذب رقيق معتمدا على أدوات البديع والتشبيه والمجاز اعتمادا كبيرا فى إبراز صوره وإستخراج معانيه مظهرا فيها عبقريته ومذهبه الفنى الذى آثره فى فنه ، حيث نراه فى مدائحه شاعر متصل الفكر دقيقه يعرف كيف يصوغ أفكاره ويبرزها فى معرض من معارض التصوير الرائعة .

✵ ✵ ✵

# " المـــدحــة ذات النهـــج الجـديـــــد "

إذا كان أبو تمام من الشعراء المحافظين الذين حافظوا على النهج التقليدى للقصيدة العربية ورأيناه يفتتح معظم مدائحه بمقدمات تقليدية موروثة عن الشعر القديم مع تخففه أحيانا فى بعض عناصرها وإبداعه فى صورها ومعانيها ووضوح شخصيته فيها وثقافته ومذهبه الفنى وضوحا ملموسا فإننا قد رأيناه أيضا ينهج فى مدائحه نهجا تجديديا معاصرا حيث استبدل - فى بعض مدائحه - مقدماته القديمة بمقدمات أخرى جديدة سواء جدت فى عصره وسبقه بها غيره من الشعراء العباسيين أو اخترعها هو بنفسه وسبق إليها ونسبت إليه مع الاحتفاظ العام لشكل المدحة : حيث جعل لها مقدمة وموضوعا وخاتمة، طابعاً فيها مذهبه الفنى الذى عرف عنه واشتهر به : وهو مذهب الصنعة والبديع ودقة المعانى والغوص وراءها والمبالغة فى صوره ومعانيه وإيثار الأبحر الطويلة وزنا لمدائحه .

" وفكر أبو تمام طويلا ورأى أن يستخرج من قيثارة الشعر أنغاما جديدة لكى يستهل بها مدائحه وسرعان ما هداه تفكيره إلى أن الأوتار القديمة لم تعد تصلح لاستخراج تلك الأنغام ... وإذا هو يلجأ إلى مناظر الطبيعة الرائعة التى يكتسى بها وجه الأرض فى الربيع بأزهارها وورودها ورياحينها وطيورها التى تغرد فى جنباتها ، وسحبها التى تتحرك فى سمائها وتنزل بأرضها فتحييها من بعد موتها وتحيلها إلى صور بديعة خلابة مضفيا عليها من ذاته وعواطفه " . (١)

وراح أبو تمام يأخذ من الطبيعة ومظاهرها مقدمة لمدحته مفضلا لها عن مقدمات أخرى " كوصف الخمر " التى دعا إليها " أبو نواس " وراح يقدم بها لمدائحه وتابعه آخرون كثيرون إلا أبا تمام الذى لم يبدأ

---

١ - ص ( ١٨١ ) مقدمة القصيدة العربية فى العصر العباسى الأول . د / حسين عطوان .

مدحة واحدة من مدائحه بوصف الخمر وإن كان قد تحدث عنها حديثا عابرا بعد مقدماته الأخرى التى استهل بها مدائحه كما وضحنا ذلك سابقا .

ويبدو أن« أبا تمام» لم يستهل مدائحه بوصف الخمر والدعوة إليها لأسباب عديدة أهمها : أنه لم يكن شعوبياً بل كان عربياً أصيلا آثر التقليد العربى الموروث للقصيدة العربية ، فضلا عن أنه أراد إرضاء النقاد وعلماء اللغة والفقهاء بإبقائه على المقدمة القديمة وعدم اتباع أبى نواس فى دعوته التى قصد بها السخرية من العرب ووضع شأنهم ، فكأنه بمقدماته الأخرى : القديمة والحديثة يتصدى لدعوة «أبى نواس» ويحاربها حرباً عملية لا دعائية .

رفض " أبو تمام " دعوة " أبى نواس " ووقف منها موقفاً مغايرا مضادا وتوجه بعقله إلى الطبيعة ومظاهرها يستمد منها بعض مقدماته الجديدة بجوار مقدماته الجديدة الأخرى والتى سنعرض لها بعد ذلك .

وقد آثر أبو تمام - كعادته - فى مقدماته الجديدة بل فى مدحته بوجه عام آثر مذهبه ووضع بصمات مدرسته الفنية فيها ، حيث راح يشيع كثيرا من المعانى الغامضة التى افتض بكارتها وزينها بأدوات البديع المختلفة وافتن فيها وأغرب إغرابا واضحا ، وقد أظهر فيها عبقريته ومقدرته الفائقة حيث استطاع أن يصل بين المقدمة والغرض الأصلى للمدحة اتصالا وثيقا ويربط بين المقدمة والموضوع ربطا محكما ويتخلص من المقدمة إلى الغرض الأصلى تخلصا حسنا ونأى بنفسه عما وقع فيه كثير من الشعراء الذين انفصلت مقدماتهم عن غرض القصيدة الأصلى لاغيا وصف الرحلة بعد مقدمته أحيانا وأحيانا أخرى ينتقل من " مقدمة الطبيعة "

إلى وصف الرحلة ثم يتخلص منها إلى مدح الممدوح وكأنه يعنى بذلك الإبقاء على بعض التقاليد العربية الموروثة فى مقدمة المدحة حتى لا يكون هدفا لسهام النقاد وعلماء اللغة وخوفا من إتهامهم له بالخروج على التقاليد العربية الموروثة وحباً منه لهذا التقليد العربى القديم .

وقد استهل أبو تمام ثلاث مدائح " بمقدمة الطبيعة " فضلا عن الحديث عنها فى ثنايا مقدماته الأخرى ، وأولى هذه المدائح مدحته التى مدح فيها : " محمد بن عبد الملك الزيات " والتى بدأها بقوله : (١)

| | |
|---|---|
| ديمةٌ سمحةُ القيادِ سَكوبُ | مُسْتَغِيثٌ بها الثرى المكْروبُ |
| لو سعتْ بقْعةٌ لإعظام نعمى | لسعى نحوها المكانُ الجديبُ |
| لذّ شُؤبوبُها وطاب ، فلوْ تسْـ | ـطيع قامتْ فعانقتْها القلوبُ |
| فهى ماءٌ يجرى وماءٌ يليه | وعَزالٍ تُنْشَى وأخرى تذوب |
| كشف الروضُ رأسه واستسرّ | المحلُ منها كما استسر المُريبْ |
| فإذا الريّ بعد محْلٍ وجرّجا | نُ لديها يَبْرينُ أو ملْحوبُ |
| أيها الغيث حى أهلا بمغْدا | ك وعند السّرى وحين تؤوبُ |
| لأبى جعفر خلائق تحكيـ | ـهن قد يُشْبه النجيبَ النجيبُ |
| أنت فينا فى ذا الأوان غريب | وهْوَ فينا فى كل وقت غريبُ |

حيث استهل " أبو تمام " مدحته بوصف سحابة ممطرة واصفا ابتهاج الطبيعة بهذه الديمة بعد وقت طويل من الإقفار والجفاف الطويل وكيف

---

١- جـ١ ، ص ( ٢٩١ - ٢٩٥ ) ديوانه بشرح التبريزى . من البحر الخفيف .

- وقد جاء فى الديوان أنها مدح فى : « محمد بن الهيثم بن شبانه » ، إلا أن الرواة الثقاة يرجحون أنها فى « ابن الزيات » ، وسار على قولهم كثير من الباحثين . أمثال : الدكتور / شوقى ضيف ، والدكتور / حسين عطوان . وغيرهما من الباحثين .

أنها تستغيث بها مما أصابها ، وراح يصور سرور النفوس بهذه الديمة التى سح ماؤها وتدفق سيلها على حين تجمع غيرها لينصب مرة تلو الأخرى ، ثم راح يصف ما أحدثته السحابة من آثار على الأرض التى عمتها بمياهها : فقد بعثت فيها الحياة وأشاعت فيها الخضرة ثم يختم المقدمة بتحية الديمة والترحيب بها ليلا ونهارا ، ثم يصل بينها وبين مدح الممدوح وكأنه يرى فيها صفاته وجوده مشبها لها فى عطائها بممدوحه رافعه عليها ، وبهذا الوصل بين الطبيعة وبين الممدوح نرى القصيدة عملا فنيا تاما وتتحقق فيها الوحدة .

ونرى الشاعر قد تخلص تخلصا حسنا رائعا من مقدمة الطبيعة الى مدح الممدوح مباشرة دون الإنتقال من الطبيعة إلى وصف الرحلة والراحلة ثم مضى يمدح ممدوحه ويشيد به فى مدحته القصيرة التى بلغت ثمانية عشر بيتا والتى بناها على بحر " الخفيف " فيقول :

| | |
|---|---|
| ضاحكٌ فى نوائبِ الدهــر طلْقٌ | وملوكٌ يبكين حين تَنــوبُ |
| فإذا الخطبُ راثَ نال الندى والـ | ـبذْل منه ما لا تَنال الخطوبُ |
| خلُقٌ مشــرقٌ ورأىٌ حُســام | ووداه عذْبٌ وريــحٌ جَنــوبُ |
| كلَّ يــوم له وكــلَّ أوانٍ | خُلُــقٌ ضاحــكٌ ومال كئيب |
| إنْ تَقاربْــه أو تُبــاعدْه ما لمْ | تأتِ فَحْشَــاءَ فهو منكَ قريبُ |
| ما اْلتقَى وفْــرُهُ ونائله مــذ | كان إلا ووفْــرُه المغْلــوبُ |
| فهو مُدْنٍ للجــود وهْو بغيــضٌ | وهو مُقْصٍ للمــال وهو حبيبُ |
| يأخذ الزائرين قَسْــرا ولو كفـّ | ( م ) دعــاهمْ اليه وادٍ خصيبُ |
| غير أن الرامى المسدِّدَ يحْتَــا | ط مع العــلم أنه سيصيبُ |

نرى القصيدة عملا فنيا متكاملا،متسقة الأجزاء،مسلسلة الأفكار دون نبو أو نفور أو خلل أو اضطراب ، وتسودها الروعة والبراعة فى معانيها

وصورها وتظهر فيها فنية الشاعر ومذهبه الفنى وتدل على براعة الشاعر وجهده وعنائه فى استقصاء فكره ومعانيه ، وقد صاغهاء أبو تمام، بأسلوب قوى محكم متين مصقول مستو مستقيم لا اختلاف ولا تفاوت بل تسوده الاستقامة والاستواء .

وقد استطاع «أبو تمام» أن يشيع الحركة والحياة فى قصيدته ودقق فى رسمها ونمق خطوطها حتى أصبحت لوحة فنية تزخر بالألوان والصور الجميلة ، وقد أعجب «ابن الزيات» بهذه المدحة وقال لأبى تمام " إنك لتحلى شعرك من جواهر لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسنا على بهى الجواهر فى أجياد الكواعب وما يدخر شيء من جزيل المكافأة إلا ويصغر عن شعرك فى الموازاة . (١)

والمدحة الثانية التى استهلها " بالمقدمة الطبيعية " مدحته فى : " داود بن محمد " والتى بدأها بقوله : (٢)

| | |
|---|---|
| غنى فشاقك طائرٌ غِرّيــــدُ | لمّا ترنّم والغصونُ تميـــدُ |
| ســاقٌ على ســاقٍ دعا قُمْــريةً | فدعتْ تُقاســمه الهوى وتَصيــدُ |
| إلْفــان فى ظل الغصــون تألّفا | والتف بينهما هـــوىً معقـــودُ |
| يتطعّمان بريــق هــذا هــذه | مَجْعــاً وذاك بريق تلك مُعيــدُ |
| يا طائران تمتــعا هُنّيتمـــا | وعِمَا الصباحَ فإننى مجهـــودُ |
| آهٍ لوقْع البين يا بن محمـــدٍ | بَيْنُ المحب على المحب شـديدُ |
| أبكى وقد سَمَتِ البُروقَ مُضيئةً | من كل أقطار الســماء رُعــودُ |

---

١- ص ( ٣٣٨ ) ، جـ١ وفيات الأعيان . لابن خلكان ، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد ، طبع : مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٤٨ .

٢- جـ٢ ، ص ( ١٤٨ - ١٥٠ ) ديوان أبى تمام . من البحر الكامل .

واهتزّ ريْعانُ الشباب فأشرقتْ    لِتهلّل الشجر القرى والبيد
ومضتْ طواويس العراق فأشرقتْ    أذنابُ مشْرقةٍ وهنّ حُفُود
يرفلن أمثال العذارى طوفا    حول الدوار وقد تدانى العيد

بدأ الشاعر مدحته بوصف وتصوير " قمرية وقمرى " يتعاطيان كئوس الهوى والحب ويرشفان من رحيقه وهما مسروران يغنيان ويغردان ويتنقلان من غصن إلى غصن فى فرح وبهجة وسرور، بينما هو حزين يتعمقه الحزن وكأنما ترثى السماء له فتستهل بروقها ورعودها وانهل المطر الذى كسى الأرض بأجمل ثيابها المختلفة الألوان الزاهية ، ونرى الطواويس الجميلة التى تظهر متلألئة الألوان لامعة الأذناب وكأنها خدم هذا العرس الرائع من أعراس الربيع .

فنرى إلى أى حد من الروعة والإفتنان وبديع المعانى وروائع الصور بلغ "أبو تمام" فى أبياته ، إنها لمقدمة رائعة حقا تزخر بمشاعر الشاعر الحزينة، وأحاسيس الطيور الجميلة، وتتضح فيها المشاركة الوجدانية والتفاعل البعيد المدى بين الشاعر والطبيعة ومشاركته لها فى أفراحها وسرورها حتى وإن كان هو حزينا باكيا .

وقد جعل الشاعر لمقدمته عشرة أبيات من مجموع القصيدة التى بلغت ثمانية عشر بيتا فقط مما يلاحظ معه طغيان عنصر المقدمة على الغرض الأصلى للقصيدة التى بناها الشاعر على بحر " الكامل " الذى أكثر منه الشاعر فى بناء مدائحه عليه واحتل المرتبة الأولى بين بحور الشعر العربى التى اختارها "أبو تمام" لمدائحه .

و " أبو تمام " ينتقل من مقدمته " الطبيعية " التى أطال الحديث فيها عن الطيور وبهجتها وأظهر فيها أحزانه وآلامه - إلى مدح ممدوحه مباشرة دون أن يصف الرحلة والراحلة والصحراء ومشاهدها مكتفيا بمقدمته التى تحدث فيها عن الطبيعة ، وراح يمدح ممدوحه مشيدا به وبجهوده وكرمه وجوده مستعطفاً إياه طالباً عونه ومساعدته على مصائب الأيام فى آخر مدحته،وكأنه يلائم بذلك بين مقدمته التى أظهر فيها أحزانه وآلامه وبين ما يرجوه من مدح الممدوح الذى يرجو عطاءه الجزيل حتى يساعده على تخطى مصائب الدهر وكوارثه التى كانت سببا فى حزنه وآلامه ، فيقول :

إنى سأنثرُ من لِســانىَ لؤلؤاً   يَردُ العــراقَ نظامُهُ معقــودُ

حتى يحلّ من المهلب منــزلاً   للمَجْــد فى غُرفَاته تَشْــييدُ

رَفَعَ الخلافةَ رايــةً فتقاصَرَتْ   عنــها الرجــالُ وحازها داودُ

السيد العَتَكىّ غيرَ مُدافــع   إذْ ليس سُؤددُ سيدٍ موجــودُ

نَقَرَتْ باسْمِكَ فى الظلام مُسَدَّراً   داودُ إنك فى الفَعال حميــدُ

قدْ قيل : أين تُريد ، قلتُ : أخا الندىٰ

وأبا سليمان الأغــرَّ أُريــدُ

فَافْتــحْ بجــودك قفْلَ دهْرىَ إنه   قفلٌ وَجَودُ يديك لى إقليــدُ

فالجُودُ حىٌّ ما حَييتَ وإنْ تَمُتْ   غَاضَتْ مناهلُهُ ومات الجُــودُ

حقيقة إن المدحة بالرغم من قصرها رائعة بديعة فى صورها ومعانيها وقد راح الشاعر يستخرج فيها كنزا من معانيه الدقيقة التى غاص وراءها واستخرجها من مكامنها ويبرز فيها صورا رائعة عديدة ويصوغها بأسلوب قوى متين مصقول مستو مستقيم لا تفاوت فيه ولا إلتواء ناثرا فى قصيدته روائع بديعه وبديع مجازه التى اعتمد عليها فى تصوير صوره وإبراز

معانيه ، وخرجت القصيدة لوحة فنية مليئة بالظلال والألوان البديعة . إلا أنه إنتقل من المقدمة إلى المدح مباشرة دون أن يصل المقدمة بالموضوع الأصلى إتصالا وثيقا بل خرج من المقدمة خروجا منفصلا إلى غرضه الأصلى وهو ما يخالف نهجه فى مدائحه ، ولعل السبب فى ذلك نفسية الشاعر المهمومة الحائرة المتألمة أثناء نظمه القصيدة فانعكس ذلك بالتالى على قصيدته التى لم يربط بين مقدمتها وموضوعها ربطا محكما كما هو الشأن فى مدائحه ، وإن كان قد لاءم بين المقدمة وبين ما يرجوه من عطاء الممدوح الذى صرح به فى آخر القصيدة ، فضلا عن أنه لم يكثر من ألوان البديع كثرته التى عرفت عنه فى شعره ولم يجعل البديع فيها كل همه وغايتــه .

والمدحة الثالثة التى استهلها " بالمقدمة الطبيعية " مدحته الرائعة التى مدح فيها الخليفة " المعتصم بالله " والتى بدأها بقوله : (١)

رقتْ حواشــى الدهرِ فهْىَ تَمَرْمَرُ ... وغدا الثرى فى حَلْيه يتكسَّــرُ (٢)
نزلتْ مُقدَّمةُ المَصيفِ حميــدةً ... ويدُ الشــتاء جديــدةٌ لا تُكْفَــرُ
لولا الذى غَرَسَ الشتاءُ بكفِّــه ... لاقى المصيفُ هشائما لا تُثْمِــرُ (٣)
كم ليلةٍ آسىَ البــلادَ بنفســه ... فيــها ويــومٍ وبْلُه مُثْعَنْجِــرُ
مطرٌ يذوب الصحْوُ منه وبعْــدَهُ ... صَحْوٌ يكادُ من الغضــارة يُمْطِــرُ
غَيْثَانِ فالأنْــواءُ غيثٌ ظاهــرٌ ... لكَ وجْهُه والصحوُ غيْثٌ مضْمَرُ (٤)
وندىً إذا ادَّهَنَتْ به لِمَمُ الثرى ... خِلْتَ السحابَ أتاه وهو مُعَذِّرُ (٥)

---

١- جـ٢ ، ص ( ١٩١ - ١٩٧ ) ديوان أبى تمام . من البحر " الكامل " .

٢- تمرمر : تموج وتضطرب لينا ونعمة .

٣- الهشائم : جمع هشيمة وهى الشجرة اليابسة .

٤- الصحو : غب المطر ، غيث مضمر : لا يرى .

٥- لمم الثرى : النبت .

أربيعَنا فى تِسْعَ عشْرة حِجَّةً ... حقا لَهِنَّكَ للربيع الأزهرُ

ما كانت الأيامُ تُسْلَبُ بهجةً ... لو أن حسن الروض كان يُعمَّرُ

أَوَلَا ترى الأشياء إنْ هى غُيِّرَتْ ... سَمُجَتْ وحُسْنُ الأرض حين تُغَيَّرُ؟

يا صاحبيَّ تقصَّيا نظريكُما ... تريا وجوهَ الأرض كيف تَصَوَّرُ (١)

تريا نهارا مشمسا قد شابه ... زَهْرُ الربا فكأنما هو مقمرُ (٢)

دنْيا مَعَاشٌ للورى حتى إذا ... جُلى الربيعُ فإنما هى منْظَرُ (٣)

أضحتْ تصوغ بطونُها لِظهورِها ... نَوْرًا تكاد له القلوبُ تنوَّرُ

من كل زاهرةٍ ترقرقُ بالندى ... فكأنها عين عليه تَحَدَّرُ (٤)

تبدو ويحجبها الجَميمُ كأنها ... عذراءُ تبدو تارة وتَخَفَّرُ

حتى غدتْ وَهَدَاتُها ونِجادُها ... فِئَتَيْن فى خِلَعِ الربيع تَبَخْتَرُ (٥)

مصفرةً محمرةً فكأنها ... عُصَبٌ تَيَمَّنُ فى الوغا وتَمَضَّرُ

من فاقعٍ غَضِّ النباتِ كأنه ... درٌّ يُشقَّقُ قبلُ ثم يُزَعْفَرُ (٦)

أو ساطعٍ فى حُمْرةٍ فكأن ما ... يدنو إليه من الهواء معصفرُ

صُنعُ الذى لولا بدائعُ لُطفِه ... ما عاد أصفرَ بعد إذ هو أخضرُ

خُلُقٌ أطل من الربيع كأنه ... خُلُقُ الإمام وهَدْيُه المتيسِّرُ

مقدمة رائعة أبدع فيها " أبو تمام " إبداعا عظيما ـ وآثرت أن أنقلها على طولها كاملة لروعتها وبراعتها فى صورها وتصويرها ومعانيها

---

١- كيف تصور : أى بألوان الزهر .

٢- مقمر ومشمس : نسبة إلى القمر والشمس .

٣- الورى : الخلق وسائر الناس .

٤- ترقرق : تضطرب .

٥- الوهدة : ما انخفض من الأرض .

٦- يشقق : من الشق .

وأسلوبها وصنعتها البديعة العجيبة ، وراح «أبو تمام» يغرب ويطرف فى مقدمته ويأتى بمعان تسحر العيون وتأخذ بالأفئدة والعقول ، وهذه المقدمة تعد صورة فنية مكتملة التصوير رائعة الرسم لرسم صورة الربيع حتى سارت أبياتها واشتهرت وأعجب بها الكثيرون وأصبحت مضرب الأمثال والاستشهاد . (١)

وقد صور فيها الشاعر الربيع تصويراً رائعاً واصلاً بينه وبين عصر الممدوح حتى وكأن عصره ربيع العصور العباسية . (٢) ووقف عند كل عنصر من عناصر الطبيعة مستقصيا وصفه وتصويره : فقد وصف الأرض بسهولها وتلالها وما أحدثه الربيع فيها من جمال وبهجة بسبب الخضرة والأزهار والورود والرياحين المختلفة ، ووصف الهواء العليل والشمس الدافئة والأشجار المختلفة وقطرات الندى وحركات الأشجار والأزهار مبينا صنع الله وإبداعه فى خلقه ، جاعلا هذا الجمال والخلق رادا له إلى خالقه ومبدعه الذى صوره وأنشأه ، وقد اعتمد " أبو تمام " فى تصويره على استخدام النوافر والأضداد مستغرقا فى خياله متأنيا فى فكره وقد أجهد نفسه فى إبداعها وإحكامها وزخرفتها حتى بهرت السامعين وروعت المشاهدين وفضلها " ابن الأثير " على كل الأشعار التى تحدثت فى موضوعها لجودة معانيها وإحكام صنعها .

والأبيات تفيض عذوبة وسلاسة فى ألفاظها وأسلوبها وتزخر بأدوات

---

١- ينظر : ص ( ١٩ ) جـ ٢ ، ديوان المعانى . للعسكرى ، ط : مطبعة القدس بالقاهرة عام ١٣٥٢ هـ .

٢- ينظر : ص ( ١٥٢ ) جـ ٢ . المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر : لابن الأثير . تحقيق : د / أحمد الحوفى، والدكتور / بدوى طبانة ، ط : مكتبة نهضة مصر بالقاهرة عام ١٩٦٢ م .

البديع الرائعة والتشبيهات الدقيقة والاستعارات العجيبة ، فقد طابق بين : المصيف والشتاء ، وبين : ظاهر وباطن ، وبين : بطونها وظهورها ، وبين : تبدو ويحجبها ، وبين : الوهاد والنجاد ، وجانس بين : غيثان وغيث ، وبين : أربيعنا وللربيع ، وبين : نورا وتنور ، ونجد التشبيه التمثيلى الواضح فى الأبيات : حيث شبه صورة السهول والتلال وهى تكتسى بالأزهار المتعددة برايات اليمن الصفراء ورايات مضر الحمراء وهى تعلو وترفرف . ثم شبه الأنوار الصفراء المختلطة ببياض بالدر الأبيض المختلط بالإصفرار .

وقد استطاع الشاعر ببراعته أن يصل بين المقدمة والموضوع الأصلى للقصيدة حيث التحمت المقدمة بالموضوع التحاما وثيقا واستطاع أن يلائم بين مقدمته وبين المدح حيث جعل الربيع يشبه خصال الممدوح وفضائله . وقد احتلت المقدمة نحو اثنين وعشرين بيتا من عدد أبيات القصيدة التى تبلغ اثنين وثلاثين بيتا فقط مما يلاحظ معه طغيان عنصر المقدمة على الغرض الأصلى للقصيدة التى بناها على بحر " الكامل " .

ومضى أبو تمام يمدح ممدوحه" المعتصم"ويشيد به : فى عدله وقوته وسلطانه وأنه أصلح للخلافة بل الخلافة هى التى اختارته ولا تؤثر عليه أحدا ، وأنه أقام حكمه على العدل وعم به أهل البدو والحضر معا وأنه يبرد الغليل بعطائه وكرمه .

وهكذا كان " أبو تمام " شاعراً عملاقاً حقاً لأنه استطاع أن يعبر بصدق عما يجول بخاطره إرضاء لحسه الشعرى أكثر من قوله فى مدح الممدوح وإرضائه،واستطاع أن يخرج لنا درة من درر الشعر العربى الخالدة خلود الأيام والأزمان .

*

ومن مدائحه الرائعة - بل أروع مدائحه على الإطلاق - والتى استهلها بمقدمة جديدة لم يسبقه إليها شاعر وكان له الفضل والسبق فى اختراعها وابتكارها : مدحته فى الخليفة " المعتصم " والتى استهلها بمقدمة " التنجيم " ، والتى يقول فى مقدمتها : (١)

السيفُ أصدق أنبـــاءً من الكُتُبِ    فى حدّه الحدّ بين الجدّ واللّعب (٢)

بيضُ الصفائح لا سودُ الصحائف فى    مُتونهـــن جلاءُ الشـــك والرِيَب (٣)

والعِلـــمَ فى شُـــهُب الأرمـــاح لامعـــةً    بين الخميسين لا فى الســبعة الشـــهب (٤)

أين الروايةُ أم أين النجـــومُ وما    صاغوه من زُخْـــرفٍ فيها ومن كـــذبِ

تخـــرصاً وأحـــاديثا ملفقـــةً    ليستْ بنبْعٍ إذا عدتْ ولا غـــرَبِ (٥)

عجائباً زعمـــوا الأيـــامَ مَجْفلةً    عنهنّ فى صَفَر الأصفـــار أو رجب (٦)

وخوفوا النـــاسَ من دَهْيـــاء مظلمـــةٍ    إذا بـــدا الكوكبُ الغـــربىّ ذو الذّنب (٧)

وصيّروا الأبْـــرج العليـــا مرتبـــةً    ما كان مُنقلبـــاً أو غير منقلب (٨)

يقضون بالأمر عنـــها وهى غافلـــةٌ    ما دار فى فلكٍ منها وفى قُطُـــب (٩)

لو بيّنتْ قطّ أمراً قبْـــلَ موْقعـــه    لم تُخْفِ ما حلّ بالأوثان والصّـــلُب

---

١- جـ١ ص ( ٤٠ - ٧٤ ) ديوان أبى تمام ، القصيدة من البحر « البسيط » .

٢ - الحد الأول : للسيف ، والثانى : بمعنى : الفصل بين الشيئين .

٣- الصفائح : جمع صفيحة وهى السيف العريض ، الصحائف : جمع صحيفة وهى الكتاب .

٤- العلم : الحق ، شهب الأرماح : الأرماح التى تشبه الشهب ، الخميسين : الجيشين .

٥- تخرصا : كذبا وافتراءا ، ملفقة : ضم بعضها إلى بعض وليست من شكل واحد ، النبع : شجر صلب ، الغرب : شجر قوى ينبت على الأنهار .

٦- مجفلة : أجفلت الحمر : إذا هربت بعد خوف ، وصفر الأصفار : شهر صفر .

٧- دهياء : داهية .

٨- الأبرج : بروج السماء .

٩- الفلك : مدار النجوم الذى يضمها ، القطب : كل ما ثبت فدار عليه شئ .

فالمقدمة جديدة كل الجدة وقد استوحاها الشاعر من الاحداث التى سبقت جهود الخليفة " المعتصم بالله " لفتح «عمورية»، حيث زعم المنجمون أن الخليفة لا يستطيع فتحها إلا فى أيام العنب والتين ، فأخذ «أبو تمام» من هذه الأقوال ومزاعم المنجمين منطلقا لمقدمته وراح يبطل فيها مزاعم المنجمين ويهزأ بهم وبآرائهم مفضلا قوة السيف على العقل وكتب المنجمين ، فالسيف أصدق مما تضمنه كتب المنجمين . وإن السيوف البيضاء اللامعة هى التى تجلو الشك وتزيله من الافهام ، وأن الحق كل الحق إنما هو فى السيف وليس فى هذه النجوم ، وإلا فأين هذه المزاعم التى زعمها المنجمون من هذه الحقيقة التى حققها السيف فى فتح «عمورية» وأظهرت أقوال المنجمين كذبا وزورا ، وأن هؤلاء المنجمين قد زعموا أباطيل كاذبة : حيث زعموا أن شهر صفر ورجب لا يأتيان بخير مع أن النصر العظيم قد تحقق فيهما ، وأن المنجمين قد زعموا أن الكوكب الغربى ذا الذنب إذا ظهر حدثت المصائب والكوارث وقد قسموا بروج السماء أقساما مختلفة : أربعة متقلبة وهى : الحمل والسرطان والميزان والجدى . وأربعة ثابتة[1]، وأربعة ذوات جسدين[2] ويزعمون أن الحوادث تقع وفق الطالع ، ويتحدث المنجمون عن النجوم بأحاديثهم الملفقة بينما هى غافلة لا تدرى ولا تعلم من أمرها شيئا .

فالمقدمة تتصل بالموضوع إتصالا مباشرا ووثيقا وترتبط به ربطا محكما بل إنها تتصل به أوثق إتصال وتتلائم معه أشد التلاؤم حيث هى مستوحاة من جو القصيدة نفسها ، فالمقدمة والموضوع متداخلان لا ينفكان ، فضلا عن جدتها وابتكارها لأول مرة .

وكان «أبو تمام» بارعا فى كل عنصر من عناصر مقدمته بل فى كل بيت من أبياتها ، حيث نرى براعة الإستهلال فى أول القصيدة ، والتصريع

(١) هى : الثور والأسد والعقرب والدلو .
(٢) هى : الجوزاء والسنبلة والقوس والحوت .

الذى صرع به المطلع فزاد جماله وحسنه ، فضلا عن صياغته للأبيات صياغة فنية رائعة وبألفاظ قوية مختارة منتقاة تناسب معنى القوة الذى يعنيه الشاعر فى معانيه وموضوعه ، وقد اعتمد على ألوان البديع اعتمادا واضحا فى تصوير صوره وإبراز معانيه ، خاصة : الطباق لأنه العنصر الذى يبين الشىء ونقيضه ويظهر الإختلاف بين الرأيين : المؤيد لفتح عمورية ، والمعارض للفتح .

ثم انتقل الشاعر انتقالا متصلا مصورا فتح عمورية، واصفا هذا اليوم الذى تم فيه الفتح مصورا الموقعة تصويرا رائعا مفصلا أحداثها تفصيلا واضحا قاصا كل ما حدث فيها كأنه مؤرخ يدون التاريخ تدوينا صادقا مظهرا فرحه وسروره بهذا النصر المبين الذى حققه الإسلام والمسلمون على الشرك وأهله مبتهجا بهذا النصر ابتهاجا كبيرا فيقول :

فتحَ الفتــوح تعالى أن يُحيــط به نظمٌ من الشعر أو نثر من الخُطَبِ (١)
فتــحٌ تفتّح أبــوابُ الســماء له وتبرزُ الأرضُ فى أثوابها القُشُبِ (٢)
يا يوم وقعــةِ عمّــوريّة انصــرفتْ منك المُنى حُفَّلاً معْسُولةَ الحَلَبِ (٣)
أبقيتَ جَدَّ بنى الإســلام فى صَعَدٍ والمشركين ودار الشــرك فى صَبَبِ (٤)
أُمٌّ لَهمْ لو رجوا أنْ تُفْتدى جعلوا فــــداءها كلَّ أمٍ منهــــمُ أبِ
وبرزةُ الوجــه قـــد أعيتْ رياضتُهـــا
كســرى وصدّتْ صدودا عن أبى كَـــرَبِ (٥)

١ - أن يحيط به : أى من أن يحيط به .
٢- تفتح أبواب السماء له : أى بالغيث والرحمة ، القشب : جمع قشيب . وهو الجديد . وقد يكون الخلق فى غير هذا الموضع .
٣- حفلا : جمع حافل وهى التى حفل ضرعها باللبن ، المعسولة : التى فيها العسل ، الحلب : ما حلب من اللبن .
٤- الجد : الحظ ، الصعد : المكان الذى يصعد فيه ، الصبب : المكان المنحدر .
٥- برزة : بارزة ، أبو كرب : كنية أحد التبابعة .

بِكْرٌ فما افْترعتْها كفُّ حادثةٍ ولا ترقّتْ إليها همّةُ النُّوَب (١)
منْ عهْدِ إسْكندرٍ أو قبلَ ذلك قدْ شابت نواصى الليالى وهىَ لم تَشِب
حتى إذا مخّضَ اللهُ السنينَ لها
مخْضَ البخيلة كانتْ زُبْدةَ الحقَب (٢)
أتتهمُ الكُرْبةُ السوداءُ سادرةً منها وكان اسْمها فراجةَ الكُرَب (٣)
جرى لها الفألُ بَرْحاً يومَ أنقرة
إذْ غودرتْ وحْشةَ الساحات والرُّحَب (٤)
لمّا رأتْ أختَها بالأمسِ قدْ خربتْ
كان الخرابُ لها أعدى من الجرَب (٥)

كم بين حيطانها من فارس بطلٍ قانى الذوائب من آنى دمٍ سَرِب (٦)
بسُنّة السيف والحنّاءُ منْ دمه لا سُنّة الدين والإسلام مُخْتضِب
لقد تركتَ أميرَ المؤمنين بها للنارِ يوما ذليلَ الصخر والخشب
غادرتَ فيها بهيمَ الليل وهْوَ ضحىً يَشُلّهُ وسْطَها صبحٌ من اللهَب (٧)
حتى كأن جلابيب الدجى رغبتْ عن لونها وكأن الشمس لم تغِب
ضوءٌ من النار والظلماءُ عاكفةٌ وظُلمةٌ من دُخان فى ضحىً شَحِب (٨)
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلتْ والشمس واجبة من ذا ولم تَجِب (٩)

---

١ - افترعها : افتض بكارتها .

٢- هذه استعارة جديدة من ابتكار الشاعر : أى جمع خيراتها كما يجمع خير ما فى اللبن بالمخض .

٣- سادرة : مظلمة .

٤- برحا : مصدر : برح يبرح من البارح وهو ضد السارح وهو مما يتفائل به ويتشاءم .

٥- الضمير فى أختها : إلى عمورية ، ويريد بأختها : أنقرة .

٦- قانى الذوائب : محمرها ، والآنى : الحار ، سرب : سائل .

٧- البهيم : الليل ، يشله : يطرده .

٨- شحب : متغير .

٩- أفلت : غابت ، وجبت : سقطت فى المغرب .

تَصَرَّحَ الدهرُ تصريحَ الغَمـــام لها    عن يوم هيجاءَ منها طاهرٍ جُنُبِ (١)
لم تطلــع الشـمسُ فيه يـــوم ذاك على
بانٍ بأهـــلٍ ولم تغـــربْ على عَـــزَبِ

ويستمر الشاعر فى وصفه وتصويره حتى راح ينسب الفضل لما حدث فى هذا اليوم إلى الخليفة الممدوح وأنه من تدبيره وراح يعدد جهوده وصفاته ويظهر شجاعته وقوته فى هذا الفتح المبين وما أظهره من قدرة عسكرية وسياسية موضحا السبب الذى أخرج الخليفة لقتال «الروم» وفتح «عمورية» موضحا خوف وجبن " ملك الروم " وما قام به من رشوة الخليفة حتى يرجع عن هذا الفتح وحتى ينجو بنفسه وقومه من لهيب المعركة منوها برفض الخليفة «المعتصم» لذلك وإصراره على الحرب وتحقيق النصر والقصاص للمسلمين الذين قتلهم ملك الروم ، واصفا المعركة وصفا مستفيضا موضحا موقف الفريقين والجيشين وقوة جيش المسلمين واصفا النصر مبتهجا به ومما قاله فى ذلك :

تدبير معتصـــم باللـــه منتقـــمٍ    للـــه مرتقـــبٍ فى اللـــه مُرتَغِبِ
وَمُطْعَمِ النصـر لم تَكْهـم أسـنتُهُ    يوما ولا حُجِبتْ عن رُوحِ مُحتجبِ
لم يغْزُ قوماً ولم يَنْهَدْ إلى بلـــد    إلا تقدمـــه جيشٌ من الرَّعُـــبِ (٢)
لو لم يَقُدْ جحفلاً يوم الوغى لغدا    من نفسه وحدها فى جحفل لَجِبِ (٣)
رمى بك اللـــهُ برجيـــها فهدّمها    ولو رمى بك غيرُ اللـــه لم يُصِـــبِ
من بعـــد ما أشّبُوها واثقين بـــها    واللهُ مفتاحُ باب المعْقل الأشِبِ (٤)

---

١- ويعنى بطاهر جنب : أن هذا اليوم ما فعل فيه كان حلا لأن الغزو مندوب إليه فهو طاهر من هذا الوجه ، وجنب : لأنهم أخذوا السبى فوطئوه فاحتاجوا إلى الغسل .

٢- ينهد : ينهض .

٣- الجحفل : الجيش العظيم ، الوغى : الحرب ، اللجب : الكثير الأصوات .

٤- أشبوها : صعبوا أمرها .

❊ إلى أن قال :

لَبيْتَ صوتـــاً زبطـــريا هَرقتَ له ... كأسَ الكــرى ورضابَ الخرد العُــرُب (١)

عَداكَ حرّ الثغــور المُستضامة عن ... بَرْد الثغور وعن سَلْسالها الحَصِب (٢)

أجبْتَــه معلنــاً بالسيف منصلتاً ... ولو أجبتَ بغير السيف لم تُجِبِ (٣)

حتى تركْتَ عمودَ الشرك منقعــراً ... ولم تُعــرّجْ على الأوتــاد والطُنُبِ

لما رأى الحربَ رأىَ العينْ توفلسٌ ... والحربُ مشتقةُ المعنى من الحَــرَبِ

غدا يصرّفُ بالأمـــوال جِزْيتَــها ... فعزّه البحرُ ذو التيار والحَــدَبِ (٤)

هيهات زعزعتِ الأرضُ الوقورُ بـــه ... عن غــزو محتسبٍ لا غــزو مكتسب

إن الأسودَ أسودَ الغيــل همّتُها ... يومَ الكريهة فى المسلوب لا السَّلَبِ

ولّى وقد ألجــم الخطّــىّ مَنْطقَهُ ... بسكتة تحتها الأحشاءُ فى صخَبِ (٥)

❊ إلى أن قال :

تسعون ألفا كآساد الشّرى نضجتْ ... أعمارُهم قبل نضْــج التين والعــنب

يارُبّ حَوْبَــاَء لمّـــا اجتثّ دابرُهــم ... طابتْ ولو ضُمّختْ بالمســك لم تَطِــب (٦)

ويستمر يصف المعركة إلى أن يختم القصيدة بالدعاء للممدوح الذى سعى فى دفاعه عن الدين وأهله رابطا بين مَوقعة «عمورية» وبين «غزوة بدر»

---

١- زبطريا : منسوب إلى زبطرة . إسم البلدة التى سبيت فيها المرأة التى استغاثت بالمعتصم ، الخرد : الحييات ، العرب : المتحببات لأزواجهن .

٢- الثغر الأول : بمعنى الحصن ، والثانى : بمعنى ثغر الإنسان .

٣- منصلتا : متجردا .

٤- الحدب : ارتفاع الماء وانخفاضه .

٥- الخطى : الرمح ، الصخب : كثرة الكلام فى الغضب .

٦- الحوباء : النفس ، ضمخت : طليت .

الكبرى فكلا المعركتين حرب للدفاع عن الإسلام والمسلمين وقد تحقق فيهما النصر المبين للمسلمين على أعدائهم من أهل الكفر وفيهما عز الإسلام وذل الكفر والشرك فيقول :

خليفةَ الله جازى اللهُ سعْيك عن   جُرْثُومةِ الدين والإسلام والحَسَبِ (١)
بَصُرْتَ بالراحة الكبرى فلم ترها   تُنَالُ إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم   موصولةٍ أو ذمامٍ غير مُنْقَضِب
فبين أيامِك اللاتى نُصِرْتَ بها   وبين أيام بدْرٍ أقربُ النسبِ
أَبْقَتْ بنى الأصْفَرِ المِمْراضِ كاسمهمْ   صُفْرَ الوجوه وجلَّتْ أوجه العرب (٢)

فالقصيدة متصلة الأجزاء مرتبة الأفكار وتتسم بالوحدة العضوية والموضوعية والفنية وتعد عملاً فنياً تاماً مكتملاً ذا موضوع واحد ونسيج فكرى مرتب ، ويتعانق فيها التعبير مع الشعور .

والمدحة تعد أروع مدائح " أبى تمام " وأشهرها على الإطلاق وأخذت من الشهرة ما لم تأخذه قصيدة أخرى نظرا لبراعتها وروعتها وفنيتها الحاذقة المحكمة ونظرا لما فيها من جديد مبتكر فى مختلف عناصرها ونظرا لما تمثله المدحة من مصدر تاريخى موثوق وذلك لأن كل هذه الأحداث التى صورتها المدحة وقعت أمام عينى " أبى تمام " حيث رافق " المعتصم بالله " فى موقعته وكله حقد دفين على أعداء الله والدين الذين نكلوا بالمسلمين تنكيلا قبل ذلك ، وشاهد " أبو تمام " ببصره ما قام به الخليفة من إعداد العدة وأحداث المعركة والنصر الساحق الذى حققه الخليفة للإسلام والمسلمين .

---

١ - جرثومة الشئ : أصله .

٢- بنو الأصفر : الروم ، الممراض : من المرض ، وممراض : كثير المرض .

وتعد القصيدة ملحمة من ملاحم الجهاد الإسلامى التى تصور البطولة الإسلامية والنخوة العربية الأصيلة فى معركة حربية كبيرة تجسدت فيها كل معانى البطولة ، وأظهرت شخصية الممدوح البطل الذى قاد المعركة وحقق النصر فيها لقومه وأهله بعد أن أعد للأمر عدته وأخذ يقود المعركة حتى استطاع تحقيق النصر على الأعداء فى نهايتها رافعا راية الإسلام ؛ إنها ملحمة مشرقة من ملاحم البطولة الاسلامية بل إنها أم ملاحمه على وجه الإطلاق .

وفضلا عن أن المدحة تتسم بمقدمتها الجديدة المبتكرة والصلة الوثيقة بين المقدمة والموضوع الأصلى فإنها مع ذلك تتسم بدقة المعانى والغوص وراءها وعلى الطريف منها والنادر والغريب وكثرة التوليد والاستنباط ، وقد وشى الشاعر معانيه بزخرف البديع من جناس وطباق ومشاكلة وتصوير وأغرب فيها وافتن فى إخراجها إخراجا فنيا ، وقد استخدم أبو تمام هذه الألوان بمهارة فائقة فأتت الأبيات كاللآلىء التى تومض وتأخذ بالعقول وتجلت فيها مقدرة الشاعر فى المزج بين الألوان البديعية فجاءت رائعة تبهر العقول وتأسر القلوب .

وواضح أن الشاعر قد اعتمد على فن الطباق أكثر من اعتماده على لون بديعى آخر ، وذلك كالطباق بين : السيف والكتب ، وبين : الجد واللعب ، وبين : بيض وسود ، وبين : منقلبا وغير منقلب ، وبين : النبع والغرب ، وبين : نظم ونثر ، وبين : الفأل والنحس ، وبين : طالعة وأفلت ، وبين : واجبة ولم تجب ، وبين : شابت ولم تشب .

ومن الجناس : قوله يجانس بين : الحد والحد ، وبين : الصفائح والصحائف ، وبين : فتح والفتوح ، وبين : صدت وصدودا ، وبين : خربت

والخراب ، وبين : حجبت ومحتجب : كما يتضح فيها استمداده من قانون الأضداد : فهو فى الليل البهيم يتصور أنه فى الصبح المضيء . بل هو فى الضحى المنير كأنما خلع الليل ثيابه ، بل كأن الشمس لم تغب بل لقد غربت ولم تلبث أن تشرق فى ربوع عمورية ، وللشاعر فى القصيدة : التشبيهات الرائعة : حيث يشبه عمورية بالأم ، ويشبه مخض الله للسنين بمخض البخيلة ، ويشبه خراب أنقره بالجرب ، ويشبه شدة ضوء النيران التى التهمت عمورية أثناء الليل بالضحى أو بضياء الشمس ، ويشبه : إنكشاف الدهر بانكشاف الغمام ثم يصف اليوم بالطهر والجنابة على سبيل الاستعارة . ثم يشبه استمتاعه بالنظر إلى عمورية بالاستمتاع بالنظر إلى الوجوه الحسان ، ويشبه فرار توفلس : بفرار النعامة وهكذا .

كما تمثل هذه المدحة المذهب الفنى لأبى تمام أتم تمثيل وأوضحه وتجلت فيها عاطفة الشاعر الصادقة القوية وتمثل النموذج الحى لتطور المدحة فى العصر العباسى الأول ، وقد حلق فيها أبو تمام تحليق النسور وحاول أن يربط الأحداث التاريخية بأهداب عاطفته الجياشة وأن ينطلق مدويا مصورا راسما بريشته الآفاق والأجواء وإذا أنت أمام مشهد هول تقشعر له الأبدان . (١)

فكان " أبو تمام " موفقا كل التوفيق فى قصيدته لأنه صور الواقع وسجل الحقائق مسخرا فنه لخدمة الواقع دون تزويره أو تحريفه وذلك بأسلوب قوى متين رائع يناسب غرض القصيدة قوة مستغلا الواقع استغلالا يثير العجب فى النفوس ويعين المؤرخ على معرفة التاريخ معرفة حقيقية وعميقة .

١ - ص ( ٨٤ ) الفخر والحماسة ، بقلم : حنا الفاخورى ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة .

وقد أشاد بالمدحة كثير من النقاد والأدباء قديما وحديثا ، يقول فيها : الحسن بن وهب : " وأما الشعر فلا أعرف مع كثرة مدحى له وشغفى به فى قديمه ولا حديثه - أحسن من قول أبى تمام فى المعتصم بالله ولا أبدع ولا أكمل مدحا ولا أعذب لفظا ... ثم ذكر الأبيات - ثم قال : وهل وقع فى لفظة من هذا الشعر خلل ؟ كان يمر للقدماء بيتان يستحسنان فى قصيدة فيجلون بذلك وهذا كله بديع جيد " . (١)

ومن مقدماته الجديدة التى بدأ بها إحدى مدائحه : مقدمة " الدعوة إلى ترك بكاء الديار " والتى نهج فيها نهج " أبى نواس " وإن لم يبلغ فيها ما بلغه أبو نواس عنفا وهدفا ، وهذه المدحة الوحيدة التى استهلها بهذه المقدمة - فضلا عما ذكره عن عدم جدوى سؤال الديار فى إحدى مقدماته الغزلية التى ذكرناها من قبل ، وهذه المدحة فى " الحسن بن وهب " وقد بدأها بقوله : (٢)

هل أثَـرٌ من ديـارهمْ دَعْـسُ حيثُ تَلاقى الأَجْـرَاعَ والوَعْسُ ؟ (٣)

مُخَبِّرٌ السـائِر الرزيـةَ فى الـ أطلال ، أين الجآذر اللُّعْسُ ؟ (٤)

لا تسألنَّهَا فليس يسمع جَرْسَ الـ قـولِ إلا شـخصٌ له جَـرْسُ (٥)

فقد بدأ الشاعر مدحته بالدعوة إلى عدم الوقوف على الديار

---

١- ص ( ١٠٩ - ١١٤ ) أخبار أبى تمام للصولى .

٢- جـ ٢ ص ( ٢٢٣ - ٢٣٣ ) ديوانه ، هذا الضرب لم يذكره الخليل فى العروض وذكره غيره فى المنسرح .

٣- أثر دعس : واضح ، الأجراع : جمع جرع وهو الكثيب من الرمل ، الوعس : الأرض السهلة .

٤- يعنى بالسائر الرذية : نفسه أو الديار ، الجآذر : النساء ، اللعس : جمع ألعس ولعساء واللعس : سمرة شديدة فى الشفة .

٥- الجرس : الصوت ، شخص له جرس : أى إنسان يتكلم .

وبكائها وسؤالها لأنها قد تغيرت معالمها وخلت من النساء الجميلات اللاتى كن يقمن فيها ، وأصبحت كالرزية لما أتى عليها الدهر وأصبحت لا تسمع جرس القول ، لذا فينبغى على الانسان أن يخاطب إنسانا مثله ولا يسأل أطلالا لا تسمع ولا تجيب .

دعا أبو تمام دعوته هذه بالرغم من أنه من أكثر شعراء عصره وقوفا على الديار وسؤالها وبكائها إلا أنه قد خالف نهجه وما ألفه فى كثير من مدائحه ولكنه مع ذلك ينتقل إلى ذكر الرحلة والناقة ذكرا خفيفا فيقول :

ولا يُراخِى عزْلَ المُعَنَّـــة الـــ ـخرقـاء إلا الشَّــملَّةُ العَنْسُ (١)
ورَاكِدُ الهَــمِّ كالزَّمانَـــةِ والـــ ـبَيْتُ إذا ما ألِفْتَـــهُ رَمْـــسُ

ثم انتقل من ذلك إلى وصف الفرس وصفا مستفيضا وذلك فى نحو ستة عشر بيتا ، وراح يعدد صفاته ويصف سرعته وشكله وعراقة أصله وفصل الحديث عن أجزائه ووصف كل عضو فيه وصفا رائعا ومما قاله فى وصفه :

أصفــرُ منـــه كأنه مُحَـــةُ الـــ ـبَيْضَة صافٍ كأنـــه عَجْـــسُ (٢)
هاديـــه جِـــذْعٌ من الأرَاكِ وما خَلْفَ الصَّلا منه صَخْرةٌ جلسُ (٣)
يكاد يجرى الجادىُّ من ماءِ عطــ ـفيه ويُجْنَـــى من مَتْنه الوَرْسُ (٤)
هُذِّبَ فى جِنْسِـــهِ ونال المَـــدَى بنفســـه فهـــو وحـــده جنْـــسُ
أحرز آبـــاؤه الفضيـــلة مُـــذْ تفرَّســـتْ فى عروقـــها الفُـــرْسُ

---

١- لا يراخى : لا يبعد ، الخرقاء : التى لا تحسن العمل ، الشملة : الناقة الحسنة المشى ، العنس : الناقة الصلبة المسنة .

٢- يريد أنه أصفر من عطاء الممدوح .

٣- هاديه : عنقه ، الصلا : واحد الصلوين وهما عظمان يكتنفان الذنب ، جلس : صلبة .

٤- الجادى : الزعفران ، الورس : نبت أصفر .

ليس بديــعا منـــه ولا عَجبــاً    أنْ يطرقَ المـــاءَ وِرْدُه خِمْسُ (١)
وهو إذا ما ناجـــاه فارسُـــه    يفهــم عنــه ، ما يفهــم الإنــسُ
وهو إذا ما أعَـــرَتَ غرتـــه    عينيـــك لاحــت كأنـــها بِرْسُ
ضُمِّخَ من لونـــه فجـــاء كأن    قد كسفتْ فى أديمــه الشمسُ (٢)
ســـامى القذالَينْ والجبين إذا    نَكَّسَ من لــؤم فعله النِّكسُ (٣)

ثم انتقل إلى مدح الممدوح انتقالا منفصلا - على غير عادته - دون أن يصل المقدمة بالموضوع الأصلى للمدحة اتصالا محكما ، بل خرج خروجا منفصلا من وصف الفرس إلى غرضه الأصلى ، مخالفا بذلك نهجه فى مدائحه ، فقـــال :

أبو عـــلى أخلاقـــه زَهَـــرُ    غِبَّ ســماء وروحَـــه قُدْسُ (٤)
أبيضُ قُدَّتْ قدَّ الشِّراك شِـــرا    كَ السبت بَيْنى وبينه النفْسُ (٥)
لِلْمجْــد مستشْرِفُ وللأدب الـ    ـمجَفُوّ تِرْبٌ وللنــدى حِلسُ (٦)

وراح يشيد بممدوحه حتى آخر أبيـــاته .

والمدحة مدحة متوسطة الطول وقد أغار الشاعر على الغرض الأصلى للقصيدة حيث خص المدح بثلاثة عشر بيتا فقط بينما حازت المقدمة ووصف الفرس واحدا وعشرين بيتا ، فضلا عن تعدد موضوعات القصيدة ، حيث ضمت وصف الفرس " بجوار " المدح فيها .

---

١- خمس : خمسة أيام .
٢- ضمخ : لطخ .
٣- جعل له قذالين : لأنه جعل لكل جانب من الرأس قذالا .
٤- قدس : طهر .
٥- السبت : أديم مدبوغ بالقرظ .
٦- مستشرف : متطاول ، ترب : ملازم ، الحلس : كساء على ظهر البعير .

والابيات مع أنها لا تكثر فيها ألوان البديع إلا أنها ليست على مستوى الإجادة والجودة التى عرفت عن الشاعر فى مدائحه ، وقد عقب الآمدى : على مقدمة القصيدة بقوله : " وهذه أبيات متعسفة ولفظ غير جيد ومعنى غير حسن " .(١)

ومن المقدمات الجديدة التى استهل بها بعض مدائحه : مقدمة " الفروسية " حيث استهل بها نحو عشر مدائح من مدائحه ، ومقدمة الفروسية فى ذاتها مقدمة قديمة وجدت فى القصيدة العربية منذ العصر الجاهلى حيث كانت معروفة ومنتشرة انتشارا واسعا بين شعراء ذلك العصر إلا أنها قلت فى عصر صدر الإسلام وانعدمت أو كادت تنعدم فى العصر الأموى واختفت فى العصر العباسى نهائيا وربما أدى إلى موتها فى هذا العصر : حياة الترف والرغد من العيش فضلا عن أن العصر العباسى كان عصرا إسلاميا شاملا ضم العرب وغير العرب من الموالى الذين شكلوا الجانب الأكبر من المجتمع وقد عرف هؤلاء بالمجون والقصف لا بالمروءة التى عرفها العرب فضلا عن أنهم لم يعرفوا حياة الإغارة والغزو كما عرفها العرب من قبل ، فكل ذلك وغيره ساعد على اختفاء هذه المقدمة " مقدمة الفروسية " من القصيدة العربية .

لكن حينما جاء " أبو تمام " وأصبح شاعرا عملاقا أحيا هذه المقدمة وبعثها من مرقدها وأعادها إلى الحياة مرة أخرى بعد أن دفنت فى التراب ووريت تحت أنقاض التاريخ ، إلا أنه لم يبعثها ويحييها بصورتها القديمة ولا بمعانيها الموروثة بل بعثها فى صورة جديدة وبمعان مبتكرة ، حيث أقامها على الحوار الذى دار بينه وبين زوجته التى تطلب منه القعود عن السفر حتى يريح نفسه من أهواله وحتى يعيشا معا فى

---

١- ص ( ٥٠٢ ) جـ ٣ الموازنة .

سعادة تغمرهما سويا إلا أن الشاعر يصر على موقفه ولا يخضع لرأيها بل يروح يقنعها برأيه ويوضح لها مقدرته وقوته على تحمل عناء السفر ومشاقه مصورا شكواه من الزمن وتألمه من ظلم الأيام التى عدت عليه وجارت على حياته ونفسه ، فالشاعر محافظ على الشكل الخارجى للمقدمة من حيث وجود الشخصيتين والحوار الدائر بينهما ولكنه مجدد من حيث المضمون والمعانى التى دارت فى أبيات المقدمة .

ومن هذا القبيل قصيدته التى يمدح فيها : " أبا العباس عبد الله بن طاهر " والتى بدأها بقوله : (١)

هنّ عَـوادى يوسـفٍ وصواحبُـه فعزماً فقِدْماً أدْركَ السؤْلَ طالبُهْ (٢)
إذا المرء لم يستخلص الحزمُ نفسَه فذِرْوتُـه للحادثات وغاربُـهْ (٣)
أعاذلتى ما أخْشَنَ الليـلِ مَرْكَباً وأخشنُ منه فى الملمّـات راكبُـه
ذرينى وأهـوالَ الزمـان أُفانِـهَا فأهواله العظمى تليـها رَغائِبُـه (٤)
ألم تعلـمى أن الزِّمـاع على السُّـرى
أخو النُّجْـح عنـد النائبات وصاحبُـه ؟ (٥)
دعينى على أخـلاقىَ الصّمِّ لِلتى هى الوفْرُ أو سِرْبٌ تَرِنُّ نوادبُـه (٦)
فإنِ الحسـام الهُنـدوانىَ إنمـا خشـونته ما لم تُفَـلَّلْ مَضَاربُـه
وقلقل نأىٌ من خُراسان جأشَـها فقلت اطمئنى أنضرُ الروضِ عازبُه (٧)

---

١- ص ( ٢١٦ - ٢٣٣ ) جـ١ ديوان أبى تمام ، القصيدة من البحر الطويل .

٢- عوادى يوسف : يعنى بهن : النساء .

٣- الذروة والغارب : الأول والآخر .

٤- أفانها : مفاعلة من الفناء . أى تفنين وأفنيها .

٥- الزماع : المضاء فى الأمر .

٦- أخلاقى الصم : على سبيل الاستعارة ، للتى هى الوفر : أى للرحلة التى تؤدينى إلى وفر المال ، السرب : الجماعة من النساء والوحش والطير .

٧- جأشها : قلبها وصدرها ، العازب : البعيد ، والنأى : البعد والفراق .

حيث نرى أبا تمام يبدأ مدحته * بمقدمة الفروسية * وأدار الحوار فيها بينه وبين زوجته التى أخذت تلومه على سفره ويقول : إن النساء صوارف يوسف عن عزمه فلا تنصرف أنت - ويعنى نفسه - عن عزمك ومطلبك لعذلهن ، وذلك لأن المرء إذا لم يكن حازما فى أمره وركن إلى قول من لا حزم له فمصيره إلى الهلاك لا محالة ، ثم يخاطب عاذلته ويقول لها : إن الليل مظلم صعب لا يسير فيه إلا الشخص القوى من الرجال ، ويطلب منها أن تتركه وأمره فإن الغنى مع ركوب الأهوال والشدائد ، ثم يقول لها : ألم تعلمى أن المضى فى السفر وترك الخفض أنجح لنوال المطالب ؟ ويطلب منها أن تتركه وشأنه لأنه عزم على أمره ولم يصغ لقولها فكأن أخلاقه صم . وأن عزمه وسعيه فى طلب الرزق سيستمر ما دام شابا فأما إذا تغيرت حاله واستبدل بالقوة ضعفاً وبالشباب شيباً فإنه ينبو نبو السيف الكهام ، ويقول : لقد أحزنها بعدى إلى * خراسان * فقلت لها اطمئنى فإن أنضر الروض ما بعد ولم يكن قريبا .

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف رحلته إلى ممدوحه بعد مقدمته موضحاً ما عاناه فى رحلته فيقول :

| | |
|---|---|
| وركْبٍ كأطـراف الأسـنة عَرّسـوا | على مثلها والليلُ تسطو غياهبُهْ (١) |
| لأمـــرٍ عليهــم أن تتــم صــدورُه | وليس عليهــم أن تتــم عواقبُــهْ |
| على كل رَوّاد المـــلاط تهــدّمتْ | عريكتُه العليـــاءُ وأنضمّ حالبُهْ (٢) |
| رعته الفيـــافى بعد ما كان حِقبــةً | رعاها وماءُ الروض ينْهلّ ساكبُهْ (٣) |

---

١ - عرسوا : نزلوا فى آخر الليل ، الغياهب : الظلمات .

٢- الرواد : النشيط ، الملاط : الكتف ، العريكة : السنام ، انضم حالبه : ضمر ، والحالب : عرق يتصل بأسفل البطن .

٣- الفيافى : الأماكن الخالية .

فأضحى الفَلا قَدْ جَدَّ فى بَرْيِ نَحْضِه    وكان زماناً قبـلَ ذاك يُلاعِبُـهُ (١)
فكم جذْعِ وادٍ جبَّ ذِرْوةَ غـاربٍ    وبالأمسِ كانتِ أتْمكتْهُ مَذانِبُـهْ (٢)
إليكَ جزعنا مغْـرِبَ الشـمسِ كلما    هبطنا مَلاً صلَّتْ عليـكَ سباسِبُهْ (٣)

وصف " أبو تمام " رحلته إلى ممدوحه ووصف الناقة وصفاً مستفيضاً ثم وصف الصحراء كذلك موضحا ما عاناه فى رحلته ليلاً من عناء وأهوال وما كابدته ناقته من آلام ومتاعب حتى أضمرتها الرحلة وأهزلتها إلى أن حطت ركابها فى رحاب الممدوح .

وقد استغرقت مقدمة الشاعر التى تحدث فيها عن الفروسية ووصف الرحلة نحو ستة عشر بيتا من جملة أبيات المدحة التى بلغت أربعة وأربعين بيتا والتى بناها على بحر " الطويل " .

وقد تخلص الشاعر من مقدمته إلى مدح ممدوحه تخلصاً حسناً دون انفصال بين المقدمة والغرض الأصلى للقصيدة بل اتصلت المقدمة بالموضوع إتصالا وثيقاً واستطاع الشاعر أن يربط بينهما ربطاً محكما دون أن نحس بخلل أو نشوز أو فصل وقطع بين المقدمة والموضوع ، وظل الشاعر يمدح ممدوحه مدحا رائعا مشيدا به ومعددا مثله وخلاله الحميدة من : جود وبأس وسخاء وحياء وبذل وصبر على البذل ، وحزم وعزم ودفاع عن الدين والملك مبيناً جهوده فى سبيل دعم الخلافة وجهوده فى ساحات المعارك والحروب التى خاضها ومما قاله فى مدحه :

---

١ - الفلا : جمع فلاة وهى الأرض القفر ، البرى : القطع ، النحض : اللحم .

٢- جذع الوادى : منعطفه ، جب : قطع ، ذروة غارب : أعلى الغارب ، أتمكته : أطالته ، المذانب : مسايل الماء .

٣- مغرب الشمس : الشام ، الملا : الأرض الواسعة .

إلى ملك لم يُلقِ كَلْكَلَ بأسـه على ملك إلاَّ وللـذلّ جانبـه (١)
إلى سالب الجبّار بَيْضَةَ مُلْكِه وآملُه غـادٍ عليه فسالبه (٢)
جدير بأن يستحيىَ اللهَ باديـاً به ثم يستحْيِ النـدى ويُراقبه (٣)
سما للعلى من جانبيْها كليْهما سُموّ عُبابِ الماء جاشتْ غواربُه
فنَوّلَ حتى لم يجد من يُنيله وحارب حتى لم يجد منْ يحاربه
وذو يقظاتٍ مستمرٍ مَريرُها إذا الخطب لاقاها اضمحلتْ نوائبه (٤)
وأين بوجه الحزم عنه وإنما مَرائى الأمور المُشْكِلات تَجَاربُه ؟ (٥)
أرى الناسَ منهاجَ النـدَى بعد ما عفتْ
مَهايعُه المثْلى ومحّتْ لواحبُه (٦)
ففى كل نجدٍ فى البـلاد وغائرٍ مواهبُ ليستْ منه وهى مواهبه

- ويستمر الشاعر فى الإشادة بممدوحه مبيناً جهوده وأعماله وحروبه ثم يختتم المدحة ببيت ينوه فيه بطلب العطاء من الممدوح .

والقصيدة بحق تعد رائعة بارعة - بالرغم من إكثاره من الألفاظ الغريبة المعجمية - وتنطق القصيدة عزما وتفوح إقداما وتمتلىء أملا ، وقد كان " أبو تمام " موفقا كل التوفيق فى كل عنصر من عناصرها وكل

---

١ - كلكل بأسه : أى صدره . إستعارة للبأس والأصل فيه للحيوان .

٢- البيضة : معظم الشئ ، والبيضة : السلب .

٣- أى أن الممدوح يبعثه على الكرم والصبر على الإنفاق فى إقامة معالم الندى وإحيائها أمران : الحياء من الله والحياء من السخاء ومراقبة المروءة .

٤- المريرة : القوة من قوى الحبل ، ويقال للحبل مريرة إذا كان دقيقا شديد الفتل .

٥- وأين بوجه الحزم : أى كيف يبهم عليه وجه الرأى ، والمرائى : جمع مرآة .

٦- المهايع : جمع مهيع وهو الطريق الواسع السابل بالناس وغيرهم ، المثلى : التى لها الفضل ، عفت : درست ، محت : خلقت وبلت ، اللواحب : الطريق الواضح وهى جمع لاحب .

جزء من أجزائها مازجا الفكرة بالشعور غير متناس لعقله ولا متغافل لفنه ويكشف أسلوب المدحة عن الجهد البالغ الذى عناه شاعرها فى صياغتها حتى خرجت بهذه الصورة البارعة وكأن الشاعر أشبه بالبناء الذى راح يسوى الصخر ويجمله ويضعه فى بنائه بصورة رائعة جميلة وبالغواص الذى راح يغوص وراء معانيه ويدققها تدقيقا حتى استطاع أن يستخرج كثيرا من الدرر واللآلىء من معانيها وصورها ، وقد استخدم الشاعر كثيرا من أدوات البديع : خاصة الجناس والطباق والمشاكلة فضلا عن الاستعارة والتشبيه واعتمد عليها فى تصوير صوره وإبراز معانيه ، فضلا عما يوجد فيها من الأقيسة المنطقية الفنية والتى استعان بها لإقناع زوجته أو استعان بها للتدليل على صدق ما يقوله فى وصف الممدوح .

ومع أن القصيدة رائعة فى معانيها وصورها وبارعة فى نسجها ونهجها برع الشاعر أيضا فى مطلعها وزاده جمالا بتصريعه الذى أوجده فيه وبارعا أيضا فى حسن تخلصه من المقدمة إلى الغرض الأصلى ، وحسن الخاتمة التى تدل وتؤذن بانتهاء القصيدة .

وقد أعجب بهذه المدحة كثير من الشعراء ويتجلى ذلك فيما يرويه " الصـــولى " : قال :

" حدث أبو أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال : لما قدم " أبو تمام " إلى " خراسان " إجتمع الشعراء إليه فقالوا : سمع شعر هذا العراقى ، فسألوه أن ينشدهم فقال : قد وعدنى الأمير أن أنشده غدا وستسمعون ، فلما دخل على عبد الله أنشده :

هن عـــوادى يوســـفٍ وصواحبه فعزماً فقدماً أدرك الســؤلَ طالبُه

إلى آخر الأبيات .. فصاح الشعراء بالأمير أبى العباس : ما يستحق مثل

هذا الشعر إلا الأمير أعزه اللـه " . (١)

- فالمدحة رائعة فى بنائها ومعانيها وصورها وأسلوبها وتعد من روائع شعر الشاعر وأجوده وتمثل مذهبه الفنى أتم وأكمل تمثيل .

ومن مدائحه التى استهلها " بمقدمة الفروسية " مدحته التى مدح بها : " أبا سعيد محمد بن يوسف الطائى " والتى بدأها بقوله : (٢)

سرتْ تستجير الدمعَ خوْفَ نوَى غدِ ... وعاد قَتاداً عندها كلُّ مرْقدِ (٣)

وأنقذها من غمرة الموت أنه ... صُدودُ فراقٍ لا صُدود تعمّدِ (٤)

فأجرى لها الإشفاقُ دمعاً مورّداً ... من الدم يجرى فوق خدٍ مورَّدِ (٥)

هى البدر يغنيها تودُّدُ وجهها ... إلى كل من لاقتْ وإن لم تَوَدَّدِ (٦)

ولكننى لم أحْوِ وفْراً مجمَّعاً ... ففزتَ به إلا بشملٍ مبدَّدِ

ولم تعطنى الأيامُ نوماً مسكّناً ... ألذ به إلا بنومٍ مشرَّدِ (٧)

وطول مُقام المرء فى الحىّ مُخلِقٌ ... لديباجتيه ، فاغتربْ تتجدَّدِ (٨)

فإنى رأيت الشمس زِيدَتْ محبةً ... إلى الناس أنْ ليست عليهم بسرْمدِ (٩)

---

١- ص ( ١١٥ - ١١٧ ) أخبار أبى تمام . لأبى بكر محمد بن يحى الصولى .

٢- جـ٢ ص ( ٢٢ - ٣١ ) ديوان أبى تمام ، القصيدة من بحر : الطويل .

٣- النوى : البعد والفراق ، القتاد : الشوك .

٤- أنقذها من غمرة الموت : خفف عنها .

٥- دمعا موردا : أى ممزوجا بالدم .

٦- تودد وجهها : حسنه .

٧- مسكنا : يسكن فيه ويهدأ وفيه سكونه ولذته .

٨- الديباجتان : الخدان ، فاغترب تتجدد : أى اغترب لكى يشتاق إليك .

٩- السرمد : الدائم والطويل .

حيث يمهد «أبو تمام» لقصيدته « بمقدمة الفروسية » التى أقامها على الحوار بينه وبين زوجته ، فزوجته تشفق عليه وتطلب منه عدم البعد والقعود عن السفر حباً منها عليه وخوفاً على حياته وهو لا يصغ إلى قولها ولا يسمع لندائها بل يروح يصر على رأيه وسفره آخذا فى إقناعها بأن الخير كل الخير يكمن فى السفر وهو لا يريد من سفره إلا الخير له ولها على السواء .

والشاعر فى أبياته يصور حال زوجته التى هبت من مرقدها وهى تبكى بعيون دامعة ، تبكى بكاء حارا وهى تتقلب على فراشها ولا تستريح فى نومها وكأنها نائمة على الأشواك وانطلقت فى بكائها حتى اختلط دمعها بالدم وكادت تموت ألما وحبا لزوجها وقد خفف من هلاكها أن الفراق ليس بقصد وإنما هو فراق بعد من أجل تحقيق السعادة لهما معا ، ثم يصف جمال زوجته ويشبهها بالبدر ويصف وجهها بالحسن حتى أن كل أحد يراه يحبه ، ثم يروح يصف هو شأنه وصفا يحتج فيه لنفسه ويقنعها برأيه : فهو قد كتب عليه اللقاء الذى يعقبه الفراق والسكون الذى يليه انطلاق من أجل تحقيق الخير والمعيشة الكريمة له ولزوجته ، وأن الغربة تجدد الأشواق ، فالشمس يحبها الناس لأنها لا تلازمهم دائما بل تأتى ثم تختفى وهكذا .

ثم ينتقل الشاعر من مقدمته إلى مدح الممدوح مباشرة دون أن يصف الرحلة أو الراحلة أو الصحراء ومشاهدها بل يخلص منها إلى المدح ويروح يمدح ممدوحه مدحا رائعا مصورا شجاعته فى ساحات المعارك ذاكرا هزيمة « معاوية » قائد بابك فى موقعة « أرشق » التى دارت بين « بابك » والمسلمين وقد هزم فيها « بابك » ولم ينج من رجاله أحد ونجا

هو بنفسه ومعه جند قليل ، وكان : " أبو سعيد الطائى " الممدوح قائد المسلمين فى هذه الموقعة وأظهر فيها حنكة عسكرية وشجاعة فائقة وراح " أبو تمام " يشيد به ويصف المعركة ويصورها تصويراً رائعا مسميا المسميات والأشخاص بأسمائهم واصفا هزيمة " بابك " وصفا مستفيضا حيث شاهد بعينى رأسه المعركة وأحداثها وشاهدها عيانا ورأى الجيوش تصول وتجول أمامه وتضرب وتقاتل قدامه ، ويرى شجاعة المسلمين فيصورها وينتصر لهم وجبن الأعداء فيصوره تصويرا واقعيا ، يصور هذا وذاك تصويرا حيا تبعا لما شاهده بعينه وتسمعه أذناه .

ومما قاله فى ذلك كله قوله :

لقد كفَّ سيفُ الصامتىّ محمدٍ ... تباريحَ ثأرِ الصامتىّ محمد (١)
رمى الله منه بابكاً وولاتَه ... بقاصمة الأصلاب فى كل مشهد (٢)
بأسمحَ من غُر الغمام سماحةً ... وأشجعَ من صَرْفِ الزمان وأنجدِ (٣)
فتىً يومَ بذّ الخُرَّميَّةَ لم يكنْ ... بهيَّابةٍ نِكسٍ ولا بمُعرّد (٤)
قفاً سندباياً والرماحُ مُشيحةٌ ... تَهدّى إلى الروحِ الخفىِّ فتهتدى (٥)
عدا الليلُ فيها عن معاويةَ الردى ... وما شكّ ريبُ الدهر فى أنه ردى (٦)
لَعمرى لقد حررتَ يومَ لقيتَه ... لو أنّ القضاءَ وحدَه لم يُبَرِّد (٧)

---

١ - الصامتيون : جماعة مَن طيئ منهم الممدوح وهو المقصود بالشطر الأول ، والصامتى الموجود فى الشطر الثانى هو : محمد بن حميد الذى قتله بابك ، التباريح : جمع تبريح وهو الشدة .

٢- يعنى أبا سعيد محمد بن يوسف الممدوح .

٣- بأسمح : بأسخى ، الغمام : السحاب .

٤- يوم بذ الخرمية : أى يوم الحرب ببذ الخرمية ، هيابة : فعالة من هاب يهاب ، المعرد : الفار الهارب .

٥- قفا : خلف .

٦- عدا : صرف ، أى صار الليل حاجزا بينه وبين الموت حتى نجا .

٧- حررت : من الحرارة ضد البرودة .

فإن يكن المقـــدارُ فيه مفنّـــدا    فما هو فى أشـياعه بمفنّـــد (١)
وفى أرشق الهيجاءِ والخيلُ ترتمى    بأبطالـها فى جاحـم متوقّـــد (٢)
عططتَ على رغم العدا عزمَ بابكٍ    بصبرك عطّ الأتحمىّ المُعضَّـــد (٣)
فإلا يكن ولى بشـلْوٍ مُقـــدَّدٍ    هنـاك فقد ولى بعـزم مُقـدَّد (٤)
وقد كانتْ الأرماحُ أبصرْن قلبَــه    فأرمدها سترُ القضاء الممــددِ (٥)
وموقـانَ كانتْ دار هجرته فقـــد    توَرّدْتها بالخيـل أى تـــورُّد (٦)
حططتَ بها يـومَ العَرُوبـة عِـزَّه    وكان مقيماً بين نسـر وفرْقَـــدِ (٧)
رآك سديدَ الرأى والرمـح فى الوغـى
تأزَّر بالإقـدام فيـه وترتــدى (٨)
وليس يُجلّى الكربَ رأىٌ مسـدَّدٌ    إذا هو لم يؤنَس برمـحٍ مسـدَّد (٩)
فَمَرّ مطيعاً للعـوالى مُعَـوَّداً    من الخوف والإحجام ما لم يُعَوَّد (١٠)
وكان هو الجلْـدَ القـوى فسلَبْتَه
بحسْن الجِـلاد المحصِ حسن التجلد (١١)

---

١ - فندت رأيه : ضعفته وعجزته .

٢- وفى أرشق : أى حرب يوم أرشق .

٣- عططت : شققت ، الأتحمى : ضرب من البرد ، المعضد : الذى فيه خطوط تخالف لونه .

٤- الشلو : العضو ، وقيل : بقية الجسد .

٥- أرمدها : أى حال بينها وبينه .

٦- دار هجرته : أى التى يهاجر إليها وينقطع عن أهله .

٧- العروبة : الجمعة .

٨- الوغى : الحرب .

٩- يؤنس : من الأنس ، ومعناه : إذا لم يضف إليه .

١٠- العوالى : الرماح ، الإحجام : ضد الإقدام .

١١- سلبته : جردته ، التجلد : الشدة .

لَعمرى لقد غادرتَ حِسْىَ فؤاده    قريبَ رِشاءٍ للقنا سهلَ مَوْرِدِ (١)
وكان بعيدَ القعْر من كل ماتحٍ    فغادرْتَه يُسْقى ويُشْرَبُ باليدِ (٢)

ويستمر الشاعر يعدد أعماله وحروبه ومواقعه ويشيد ببطولة ممدوحه واصفا الوقائع وصفا مفصلا ذاكرا المواضع والأماكن والوقائع والأشخاص بأسمائهم :

جلوت الدجى عن أذْربيجانَ بَعْدَ ما    تردَّتْ بلونٍ كالغمامة أرْبَدِ (٣)
وكانت وليس الصبحُ فيها بأبيضٍ    فأمستْ وليس الليلُ فيها بأسودِ
رأى بابكٌ منك التى طلعتْ له    بنحسٍ وللدين الحنيف بأسْعُدِ
هززتَ له سيفا من الكيد إنما    تُجَذُّ به الأعناقُ ما لم يُجَرَّدِ
يسرُّ الذى يسْطو به وهو مُغْمَدٌ    ويفضح من يسطو به غير مُغْمَدِ (٤)
وإنى لأرجو أن تقلّدَ جيدَه    قلادةَ مصقولِ الذباب مهنّدِ
مُنظّمةً بالموت يحْظى بحَلْيِها    مقلِّدها فى الناس دون المقلَّدِ

وهكذا مدح " أبو تمام " ممدوحه مدحاً رائعاً وصور بطولته وشجاعته ووصف أيامه وحروبه ووقائعه وتتبعها بدقة وحدد مكانها وزمانها ووصف تحركات الجيوش وتدفق بشاعريته مع المسلمين تدفقا حارا وراح يرسل مع كل لفظة حمما من براكين نفسه وشعلا من نيران قلبه ويحمل كل عبارة

---

١ - الحسى : ماء قليل فى رمل تحته أرض صلبة ، وجمعه : أحساء ، وحسى فؤاده : سواد قلبه ، لأنه دم مستنقع .

٢- بعيد القعر : أى بعيد المتناول .

٣- أذربيجان : إسم إقليم فى وسط آسيا وقد احتلته روسيا القيصرية ثم استقل بعد انهيار الشيوعية ، والربدة : لون يميل للسواد على لون التراب .

٤- أى هذا الكيد من كتمه سر به ، ومن أظهره فضحه .

من المعانى ما لا تطيقه : من المعانى الحربية ومن الصور الضخمة والألفاظ ذات الوقع والرنين القوى ، وصور لنا قصة حربية رائعة انتقل فيها من مشهد إلى مشهد : فيه التشخيص والتجسيد والحياة والحركة وكأننا نشاهد معركة حربية حقيقية نراها رأى العين ونشاهدها عيانا بأبصارنا ونسمع وقعها بآذاننا .

كل ذلك يصوره " أبو تمام " ببراعة فائقة وشاعرية فذة وموهبة عريقة ممثلا فى قصيدته مذهبه الفنى الذى اعتمد فيه على الإكثار من أدوات البديع والمقارنة اللفظية والتنازع بين الألفاظ والإكثار من الاستعارة والتدقيق فى المعانى والغوص وراءها ، حيث أحكم الشاعر صنعته فى مدحته إحكاما شديدا ، وقد شاعت فيها ألوان البديع شيوعا واضحا خاصة : الطباق والجناس والمشاكلة .

ثم ينتقل الشاعر من المدح إلى وصف رحلته إلى الممدوح مخالفا بذلك نهجه حيث كان يعقب المقدمة بوصف الرحلة ثم يخلص من الرحلة إلى المدح لكنه فى هذه المدحة أخر الرحلة عن المدح حتى يتخذها سببا لعطاء الممدوح والإغداق عليه ، ثم يختتم المدحة بطلب العطاء من الممدوح طلبا سافرا موضحا صلة القرابة بينهما فهما طائيان ، فيقول :

أتيتـك لم أفزعْ إلى غيـر مَفْزَعِ ولم أنشد الحاجات فى غير مَنْشَـد
ومن يرجُ معـروفَ البعيـد فإنما يَدى عوَّلتْ فى النائبات على يَدى

وهكذا كانت المدحة رائعة بارعة فى كل عنصر من عناصرها حتى فى أسلوبها حيث : جاء مستويا مستقيما لا تفاوت فيه ولا خلل وجاء مصقولا صقلا شديدا ، ويلائم الغرض الذى ضمته القصيدة ويتناسب مع وصف

المعارك تناسبا واضحا ، ويبدو أن روعة القصيدة قد أعجبت كثيرا من النقاد حتى هؤلاء الذين عرفوا بتعصبهم على " أبى تمام " ، فقد أشاد بها " الآمدى " وقال : إنها من إحسانه المشهور " (١) ، كما أعجب بها عمارة ابن عقيل وذلك حينما قدم إلى " بغداد " فاجتمع الناس إليه وقالوا له : ها هنا شاعر " يقصدون أبا تمام " يزعم قوم أنه أشعر الناس طرا ويزعم غيرهم ضد ذلك فقال : أنشدونى له فأنشدوه " هذه القصيدة " فقال عمارة : لله دره لقد تقدم صاحبكم فى هذا المعنى جميع من سبقه على كثرة القول فيـــه " . (٢)

ومن مدائحه الرائعة التى بدأها بمقدمة " الفروسية " : مدحته فى " مهدى بن أصرم " والتى استهلها بقوله : (٣)

خُذِي عبَراتِ عينـك عن زَماعِي ... وصُونى ما أزلْتِ من القِنـاع (٤)
أقِلّي قـد أضاق بُكـاكِ ذَرْعي ... وما ضاقتْ بنـازلةٍ ذراعـى
أآلفـةَ النحيب كم افتـراقٍ ... أظلَّ فكان داعيـةَ اجْتمـاع
وليسـتْ فرْحةُ الأوْبـات إلا ... لِموقوفٍ على تَرَحِ الـوَداع (٥)
تَوجّعُ أنْ رأتْ جسـمى نحيفاً ... كأن المجـدَ يُدرك بالصِّـراع
فَتى النكبـاتِ منْ يأوى إذا ما ... قطفْنَ به إلى خلقٍ وسـاع (٦)
يُثير عجاجـةً فى كل ثَغْـرٍ ... يَهيـمَ به عـدىٌّ بن الرِّقـاع

---

١- جـ٢ ص ( ٣٢ ) الموازنة . للآمدى .

٢- ص ( ٥٩ - ٦٠ ) أخبار أبى تمام . للصولى .

٣- جـ٢ ص ( ٣٣٦ - ٣٤٠ ) . ديوان أبى تمام ، والقصيدة من بحر : الوافر .

٤- زماعى : عزمى ، وزماع : إسم من أزمعت .

٥- لموقوف : من وقفت فلانا على أمرى فهو موقوف عليه .

٦- قطفن : من قولهم : دابة قطوف .

أَبِنّ مع السِّباعِ الماءَ حتى ... لَخَالَتْهُ السِّباعُ من السِّباعِ
فَلَبِّ الحزْمَ إنْ حاولتَ يوما ... بأنْ تسْطيعَ غير المسْتطاع (١)
فلمْ ترحلْ كناجيةِ المَهَاري ... ولم تُركبْ همومَك كالزِّماعِ

فقد استهل «أبو تمام» مدحته بهذه المقدمة " مقدمة الفروسية " التى أدارها على الحوار بينه وبين زوجته والتى راح يدعوها أن تكف عن البكاء ويرجوها ألا تودعه وهى تبكى وأن تنحى عن عزمه بكاءها، وأن تلبس القناع الذى ألقته عن رأسها وأن تصبر وتتجلد حينما يفارقها وأنه لابد من الإلتقاء معها بعد هذا الفراق، وأن من لم يجد ألما للفراق لم يجد فرحا باللقاء ، ويبين حزن زوجته لما يصيبه من نحول جسمه لكثرة أسفاره إلا أنه قد تعود عليها ولا يهمه منها ولا يعبأ لها لأن هناك غاية سامية يرجوها من وراء سفره ولا مناص له إلا الوصول إلى هذه الغاية التى لا تتحقق إلا بالسفر والارتحال، وأنه فتى النكبات ومن دأبه إثارة العجاجات وتحمل الأخطار حتى ينال ما يريده .

فالشاعر بعد أن دعا زوجته أن تقلع عن بكائها راح يرفع من نفسيتها ويحبب إليها اللقاء بعد الفراق ويمنيها ببلوغ الغاية والأمل المنشود من وراء هذه الرحلة ، وقد اتخذ من الإبل أداة إلى تحقيق غايته من ممدوحه وتخلص من مقدمته إلى مدح ممدوحه وأشاد به وراح يعدد صفاته وخلاله الحميدة مركزا على وصفه بالجود والكرم وإغاثة المحتاج وتقديم المعروف وحسن الخلق وسداد الرأى وكرم الطباع ، ولم يجعل للمدحة خاتمة كما هو شأنه غالبا - بل اقتصر فيها على المقدمة والغرض الأصلى للقصيدة التى بناها على بحر الوافر وبلغت ثلاثين بيتا

١- لب العزم : من التلبية . بمعنى أطاع .

حازت المقدمة منها على عشرة أبيات بينما حاز الغرض الأصلى - وهو المدح - على عشرين بيتا منها .

والشاعر - كعادته - يدقق فى معانيه ويستقصيها إلى أبعد مدى ويدقق فى فكره ويعمله ويبالغ فى صوره ومعانيه ويكثر من ألوان البديع كثرة مفرطة إلا أن أسلوب القصيدة جاء مستويا مستقيما دون خلل أو اضطراب أو اختلاف أو تفاوت وكان أسلوبه عذبا رقيقا نأى عن كل لفظ غامض أو مستكره أو مرذول .

وللشاعر نماذج أخرى غير ما ذكر حيث استهل بعض مدائحه بمقدمة " الفروسية " ناهجا فيها نفس النهج . إلا أنه أحيانا ينتقل من المقدمة إلى المدح مباشرة ، وأحيانا ينتقل من المقدمة إلى وصف الرحلة ثم يتخلص منها إلى مدح الممدوح منتهجا فى قصيدته نهجه العام الذى اتبعه فى مدائحه بخصوص معانيه وصوره وأفكاره ومذهبه الفنى الذى عرف عنه . (١) ، فضلا عن حديثه فى الفروسية أثناء مقدماته الأخرى خاصة المقدمة الغزلية . (٢)

❁ ❁ ❁

---

١- ينظر ديوانه :

جـ٢ ص ( ٣٢ - ٤٢ ) ، ص ( ١٤١ - ١٤٧ ) ، ص ( ٣٠٨ - ٣١٦ ) ، ص ( ٤٢٣ - ٤٢٩ ) .

و جـ٣ ص ( ٢٤٨ - ٢٥٦ ) .

٢- ينظر على سبيل المثال : ديوانه :

جـ٢ ص ( ٤٣ - ٥٨ ) و جـ٣ ص ( ٧٦ - ٧٨ ) ، ص ( ٢٧٢ - ٢٧٧ ) .

" المدحــــة الخـاليــــة مـن المقـــــدمة "

إذا كان " أبو تمام " قد قدم لكثير من مدائحه بمقدمات تقليدية موروثة عن الأدب العربى القديم وقدم لبعضها بمقدمات جديدة مبتكرة لم تكن معروفة من قبل عصره ، فإن له مع ذلك مدائح أخرى قد خلت من المقدمة والتمهيد نهائيا ، وجاء هذا اللون من المدح على ثلاثة ألوان :
أولها : ما جاء على شكل القصيدة التى تضم شعر المدح فقط ولا تضم معه غرضا شعريا آخر ، وثانيها : القصيدة التى جمعت مع غرض المدح غرضا شعريا آخر وجاءت مشتملة على غرضين شعريين ، وثالثها : ما جاء على شكل المقطوعة الشعرية التى تضم أبياتا قليلة ولا تصل فى عد د أبياتها إلى شكل القصيدة .

* والشاعر يتبع فى كل منها مذهبه الفنى الذى عرف عنه فى شعره إلا أنه يتفاوت فى استخدامه تفاوتا واضحا : كثرة وقلة وتوسطا .

وقد ورد فى ديوان الشاعر مدائح كثيرة خلت من المقدمة أو التمهيد وجاءت القصيدة مقتصرة على فن المدح فقط دون أن يشركها غرض آخر ، سواء كانت طويلة أو متوسطة أو قصيرة .

ومن أروع مدائحه هذه : مدحته التى مدح فيها الخليفة " المعتصم بالله " والتى بدأها بدءا رائعا وبارعا بقوله : (١)

الحق أبلجُ والسـيوفُ عَـوارِ فحذار من أسَـدِ العرين حذارِ
ملكٌ غدا جارَ الخلافـةِ منكمُ والله قد أوصى بحفظِ الجـارِ

والقصيدة طويلة بلغت واحدا وستين بيتا وبناها الشاعر على بحر :

---

١ - جـ٢ ص ( ١٩٨ - ٢٠٩ ) ديوان الشاعر ، القصيدة من بحر الكامل .

الكامل الذى آثره على غيره من بحور الشعر الأخرى وزنا لمدائحه لكثرة ما فيـه من الحركات ، وقد نظم " أبو تمــام " القصيدة بمناسبة ما فعله " المعتصم بالله " " بالأفشين " من سجن وصلب ثم حرق بعد أن اتهم فى دينه وفى أمانته للدولة والخلافة وبأنه حمل " مازيا " حاكم " طبرستان " على خلـع " المعتصم بالله " والثورة به .

وقد نظم الشاعر قصيدته : يشيد فيها بالخليفة " المعتصم بالله " ويصور فيها كفر " الأفشين " بالإسلام وبنعم الدولة عليه ونقضه للعهد وظلمه وبغيه الذى أودى به إلى الهلاك مصورا إحراقه بالنار بعد صلبه وموته بالسجن الذى سجن فيه ، وفى ذلك يقول " أبو تمام " :

يارُبَّ فِتْنَــةِ أمــةٍ قد بَزَّهــا    جبَّـارُها فى طاعــةِ الجبَّــار
جالتْ بِخَيْـذَرَ جَوْلَةَ المِقْــدارِ    فأحله الطغيــانُ دارَ بــوار (١)
كم نعمــةٍ للــه كانت عنــده    فكأنــها فى غُربــةٍ وإســار
كُسِيَتْ سبائبَ لُومِــهِ فتضاءلتْ    كتضاؤل الحسناء فى الأطْمار (٢)
موتورةٌ طلب الإلــهُ بثــأرها    وكفى برب الثــأر مُدْرِكَ ثــارِ
صَادَى أميــرَ المؤمنين بزبْــرجٍ    فى طيِّهِ حُمَةُ الشجاع الضاري (٣)
مكْــرًا بَنَى رُكْنَيْه إلا أنــه    وَطَدَ الأساسَ على شفيرٍ هار (٤)
حتى إذا ما اللــهُ شقَّ ضميرَه    عن مُسْتَكَنِّ الكفرِ والإصْــرار (٥)

---

١ - خيذر : إسم الأفشين ، وهو خيذر بن كاوس ، وكان أبوه من ملوك " فرغانة فيما وراء النهر " وكانوا مجوسا يعبدون الناس ، والأفشين : كلمة فارسية معناها : الكريم .

٢- السبائب : الشقق المستطيلة ، والأطمار : الثياب البالية الرثة .

٣- صادي : دارى ، الزبرج : غيم فيه ألوان متعددة ولا ماء فيه ، الشجاع : نوع من الحيات . واستعار : الضارى له .

٤- مكرا : مصدر انتصب بمعنى صادى .

٥- قيل إن الأفشين لم يكن كافرا ولا منافقا بل فعل به الخليفة ذلك بسبب وشاية الحساد : ينظر : جـ ٢ ص ( ١٩٩ ) الديوان بشرح التبريزى .

ونحا لهذا الدين شَفْرَته انْثَنى    والحقّ منه قانئ الأظفار (١)
هذا النبيُّ وكان صَفْوَةَ ربّه    من بين بادٍ في الأنام وقار (٢)
قد خَصَّ من أهل النفاق عصابةً    وهم أشد أذىً من الكفار
واختار من سعْدٍ لَعين بني أبى    سَرْح لوحْي الله غير خيار
حتى استضاء بشعلة السُّوَر التى    رفعتْ له سجفًا عن الأسرار
والهاشميون استقلّتْ عيرُهم    من كَرْبَلاءَ بأثقل الأوتار
فشفاهمُ المختارُ منه ولم يكنْ    فى دينه المُخْتارُ بالمختار (٣)
حتى إذا انكشفتْ سرائرُه اغْتَدَوْا    منه بَرَاءَ السمع والأبصار

❊ ثم يصف حرق الأفشين فيقول :

ما زال سِرُّ الكفْر بين ضلوعه    حتى اصطلى سِرَّ الزِّنَادِ الواري
نارًا يُساوِرُ جسمَه من حرِّها    لَهَبٌ كما عَصْفَرْتَ شِقَّ إزار (٤)
طارتْ لها شُعَلٌ يُهَدِّمُ لَفْحُها    أركانَه هدْمًا بغير غُبار
مَشْبوبةٌ رُفِعَتْ لأعْظُم مشركٍ    ما كان يَرْفعُ ضَوءَها للسَّاري (٥)
صلّى لها حيًّا وكان وقودَها    ميتًا ويدخلُها مع الفجار
فَصَّلْنَ منه كلَّ مجْمَع مَفْصِل    وفعلْن فاقرةً بكل فَقَار
وكذاك أهلُ النار فى الدنيا هُمُ    يوم القيامة جُلُّ أهل النار

---

١ - نحا : إعتمد .

٢- البادى : الذى يقيم فى البدو ، والقارى : الذى يسكن القرية .

٣- المختار : هو ابن أبى عبيد الثقفى وضربه أبو تمام مثلا للأفشين فى الكفر والنفاق .

٤- شبه اتقاد النار فيه من الجنب الذى يكون فيه مستندا إليه بإزار عصفر نصفه طولا أو أحد جوانبه طولا . لأنه صلب ثم أحرق وهو على هذا الجزع .

٥- لأعظم مشرك : يعنى عظام الأفشين ، ويروى : لأعظم مشرك .

ثم راح يوضح أثر حرق «الأفشين» على الناس ويصور فرحتهم بذلك وانتشار هذا الأمر بين سائر الأمصار ، وحديث الناس عن هذا الخبر الذى أبهجهم وكان أطيب عندهم من المسك والعنبر كما يقول «أبو تمام» نفسه مظهرا فرحته معلنا عن بهجته بالذى حدث للأفشين ، ثم راح يفصح عن فضل الخليفة السابق عليه وعن تقريبه له وتفضيله عنده إلا أنه لم يحفظ ذلك بل جحد نعمة الخليفة وكفر بها ، وكأنه بذلك يوجب استحقاق الأفشين لما حدث له .

ولم يكتف « أبو تمام » بذلك بل راح يحض الخليفة ويدعوه أن يقتل من بقى من أهله وقومه فيقول مخاطبا الخليفة الممدوح :

يا قابضاً يَدَ آلِ كَاوُسَ عـادلاً ... أتبـعْ يمينـاً منهـمُ بيسـار
ألْحِقْ جبينـاً داميـاً رَمَّلْتَـهُ ... بقَفًا وصـدرًا خائنـًا بِصِـدَارِ
واعلـم بأنك إنمـا تُلْقيهـمُ ... فى بعض ما حفَـروا من الآبـار
لو لم يكـدْ للسَّـامرىّ قبيلُه ... ما خار عجلهـمُ بغيـر خُـوار
وثمودُ لو لمْ يُدْهِنوا فى ربهـمْ ... لَمْ تَدْمَ ناقتُه بسـيف قُـدَار (١)

ثم يقول فى صلب « بابك » و « مازيا » وكان جسماهما لا يزالان مصلوبين حينئذ :

ولقد شفَى الأحْشَاءَ من بُرَحَائِهَا ... أنْ صارَ بابَـكُ جـارَ مازيَّـار
ثانيه فى كبـدِ السماءِ ولم يكنْ ... لاثنيـنِ ثانٍ إذْ هُما فى الغـار

ثم يشير إلى حادثة أسر « الخليفة المعتصم » « لناطس » خال ملك الروم فى عمورية :

١ - قدار : عاقر ناقة صالح عليه السلام .

وكأنما انْتَبَـذَا لِكَيْمَا يَطْـوِيَا    عن ناطِسٍ خبرًا من الأَخْبـارِ (١)

ثم راح أبو تمام يذم كلا من : " الأفشين " و " بابك " و " مازيا " ويصفهم بأنهم سود الجلود وأنهم كادوا النبوة والهدى وقد جهلوا ولم يستكثروا من طاعة الخليفة التى قد عرفت بأن من لزمها طال عمره ومن خلعها حان موته .

ثم اختتم الشاعر مدحته بوصية الخليفة " المعتصم بالله " بابنه " الواثق " وحثه أن يجعل ولاية العهد له لأنه من أبناء العباس وفتاهم وقمرهم الذى حفته أنجم العرب ، وأنه كريم العمومة والخئولة لأنه ينتمى إلى قريش ، وراح يشد على الخليفة ويؤكد عليه أن يجعل ابنه " الواثق " وليا لعهده وأن يجعل الخلافة فيه :

فاشدد بهارونَ الخلافةَ إنه    سكنٌ لوحْشَتِهَا ودارُ قَرارِ
بفتى بنى العباس والقمرِ الذى    حفّته أنجمُ يعْرُبٍ ونِزَارِ

* إلى أن قال :-

فالأرضُ دارٌ أقفرتْ ما لم يكنْ    من هاشمٍ ربٌّ لتلك الدارِ
سُوَرُ القرآنِ الغرُّ فيكمْ أُنزلتْ    ولكمْ تُصاغُ محاسنُ الأشعارِ

وهكذا راح " أبو تمام " يمدح ممدوحه فى قصيدته ويشيد به وبأعماله دون تمهيد أو تقديم ، وقد برع فى قصيدته براعة فائقة وقد صب فيها كل عواطفه ومشاعره واستخدم فى صياغتها كل عبقريته وفنيته فجاءت المدحة رائعة فى : معانيها وصورها وخيالاتها فضلا عن أسلوبها القوى

---

١- ناطس : بطريق عمورية ، وفى نسخة أخرى : ياطس : ملك ، انتبذا : انتحيا عن الناس ، وناطس : حاذق عالم وأصله : العالم بالطب ، وقيل بطريق : ملطية .

المستقيم المستو الذى نأى به عن الخلل والاضطراب والتفاوت وقد زان قصيدته بأنواع البديع التى تأنق فى صناعتها وتألق فى صياغتها فبدت وكأنها لآلىء تزين المعانى والصور وترفع من نفاستها وجودتها ، وقد ظهرت فى المدحة ثقافة الشاعر الدينية والتاريخية ظهورا واضحا فضلا عن تأثره بعقائد الشيعة ويتجلى ذلك بوضوح فى آخر الأبيات .

وقد أشاد بها كثير من النقاد والأدباء ، فهذا " عمارة بن عقيل " يقول بعد أن سمعها : " لله دره لقد وجد ما أضلته الشعراء حتى كأنه كان مخبوءا له ، وقال محمد بن القاسم : فاعتقدت فى أبى تمام من ذلك اليوم أنه أشعر الناس وما كان ذا رأيى من قبل " . (١)

ومن مدائحه الرائعة أيضا التى خلت من المقدمة التمهيدية واقتصرت علَى شـعر المدح فقط : قصيدته " اللاميـة " التى مدح فيـها : الخليفة " المعتصم " و " الأفشين " معا وقد بدأها بقوله : (٢)

غدا المُلْكُ معْمورَ الحَرَا والمنازِلِ ... مُنَوِّرَ وَحْفِ الروضِ عذْبِ المناهلِ (٣)
بمعتصـمٍ باللــه أصبح ملجــأً ... ومُعْتَصَمـاً حِرْزًا لكـل مُوَائِــلِ (٤)
لقد ألبسَ اللهُ الإمـامَ فضائـــلا ... وتابعَ فيها باللُّـهَى والفضائــلِ (٥)
فأضحتْ عطايــاه نــوازعَ شُــرَّداً ... تُسائل فى الآفــاق عن كل سـائِلِ (٦)
مواهبُ جُدْنَ الأرضَ حتى كأنــما ... أخذن بآداب الســحاب الهواطــلِ

---

١ - ص ( ٩٤ - ٩٦ ) أخبار أبى تمام . للصولى .

٢- جـ ٣ ص ( ٧٩ - ٨٧ ) ديوان أبى تمام ، القصيدة من بحر الطويل .

٣- الحرا ومثلها : العرا : الساحة ، الوحف : الملتف من النبات .

٤- الموائل : الملتجئ . من وأل إليه وألا ووء ولا ووئيلا : أى لجأ .

٥- ألبسه الفضائل : خصه بها ، اللهى : العطايا .

٦- نوازع : من قولهم : ناقة نازع أى أنها تحن إلى العافين فتسير إليهم .

إذا كان فخـرا للممدّح وصْفُـه ... بيوم عقـابٍ أو نَـدًى منه هامــلِ
فكم لحظة أهديتَها لابن نكْبَـةٍ ... فأصبح منها ذا عقـــابٍ ونائـــلِ

حيث راح الشاعر يمدح الخليفة " المعتصم " فى أول القصيدة وأخذ يشيد به ويعدد صفاته ومثله الحميدة : فقد أصبح الملك معمورا به وأضحى الملجأ والملاذ لكل ملتجئ ، وأنه الإمام الذى خصه الله تعالى بالفضائل : من الجود والبأس والتقوى والعطايا التى عمت الآفاق وسارت إليهم عن رغبة وطيب نفس ، وإن عطاياه لمواهب تجود العفاة والمحاويج فتخصبهم فكأنها تأدبت بآداب السحاب المواطر وتخلقت بأخلاقها ، وأنه إذا فخر الممدوح بأن يوصف بأنه يعاقب أعداءه يوما فى الحرب ويجود على المقربين منه يوما آخر . فكم من فقير نظر إليه الخليفة نظرة رحمة وشفقة فأغنته حتى أصبح ممن يعاقب عدوه ويعطى وليه.

ثم انتقل الشاعر إلى مدح " الأفشين " وذكر أعماله وحروبه ووقائعه انتقالا متصلا وثيقا فقال :

شَـهِدْتُ أميرَ المؤمنين شهـادةً ... كثيـرٌ ذوُو تصديقهـا فى المحافـلِ
لقد لَبِس الأفشينُ قَسْطَلَةَ الوغى ... مِحَشاً بنَصْل السيف غيرَ مُواكِـلِ (١)
وسارتْ به بين القنابل والقنـا ... عزائمُ كانت كالقنـا والقنابـلِ (٢)
وجَـرَّدَ من آرائه حين أضْرِمَتْ ... به الحربُ حداً مثلَ حدّ المناصـلِ (٣)
رأَى بابكٌ منه التى لا شَوَىَ لها ... فترجَّى سوى نزع الشَّوَىَ والمفاصلِ (٤)

---

١ - القسطل : الغبار . وأنثه مثل تأنيث : عثير وعجاج فنقول : عثيره وعجاجة . أو أن القسطل : جمعا لقسطلة ، المواكل : الذى يكل أمره إلى سواه .

٢- قنابل : جمع : قنبلة وهى القطعة من الخيل ، القنا : الرماح : جمع : قناة .

٣- أضرمت : شبت وأوقدت .

٤ - لا شوى لها : لا إخطاء .

تراه إلى الهيجــاء أولَ راكبٍ وتحت صَبير المــوت أولَ نـــازلِ (١)

تسربل سِرْبالًا من الصبر وارْتدَى عليـه بعضْبٍ فى الكريهة قاصِـــلِ (٢)

وقد ظُلِّلَتْ عِقبانُ أعْلامِه ضُحَىً بِعقْبان طيرٍ فى الدمــاء نواهـــلِ (٣)

أقامتْ مع الرايات حتى كأنـها من الجيشً إلا أنـــها لم تُقاتــــل

فلما رآه الخرَّميـُّــونَ والقنَـــا بوبلٍ أعاليـــه مُغـيـثَ الأســـافلِ (٤)

رأو منه ليثاً فابْذَعَــرَّتْ حُماتُهمْ وقد حكمــتْ فيه حُماةُ العَـــوَاملِ (٥)

عشيَّةَ صَدَّ البابكىُّ عن القنـــا صدودَ المُقَـــالِي لا صدود المُجَامـــلِ

تحذَّر من لِهْيَبٍ يرجــو غنيمـــةً بساحةٍ لا الوانِي ولا المتخـــاذِلِ (٦)

فكان كشـــاةِ الرملِ قيَّضه الرَّدىٰ لقانصه من قبـــل نصْب الحبـــائلِ (٧)

وفى سَـنَةٍ قد أنفذَ الدهرُ عُظْمَهاَ فلم يُرْجَ منـــها مُفْـــرَجٌ دون قابِـــلِ

فكانتْ كنابِ شارفِ السِّنِّ طرَّقتْ بسَقْبٍ وكانت فى مَخيلَةِ حائِـــلِ (٨)

وعاذ بإطْراف المعاقل مُعْصِمـــاً وأُنْسِـــىَ أنَّ اللــــهَ فوق المعـــاقِلِ

فولَّى وما أبْقىٰ الردى من حُماتِه له غيرَ أســـآرِ الرماح الذوابـــلِ (٩)

أمـــا وأبيـــه وهْوَ منْ لا أبا له يُعَـــدُّ لقـــد أمســـى مُضِئَ المَقاتلِ (١٠)

---

١- الصبير : سحاب فوقه سحاب ، أو سحاب فيه بياض وسواد ، أو سحاب أبيض ، وقيل هو المتراكب . وجمعه : صبر .

٢- تسربل : لبس سربالا . وهو لباس الحرب .

٣- شبه البنود بالعقبان وجعل عقبان الطير آلفة لها لما تعودته من أكل لحوم الأعداء .

٤- أعاليه مغيث الأسافل : أى ما يثيره السنان من دم الأعداء يروى أسفل الرمح .

٥- ابذعرت : افترقت ، حماتهم : جمع حام : أى الذى يحميهم ، حماة العوامل : جمع حام كالسابق أو جمع : حمة ويراد بها : السم .

٦- اللهب : طريق ضيق فى الجبل ، وقيل : هو ما استقبلك من حائطه .

٧- شاة الرمل : البقرة الوحشية .

٨- الناب : المسنة من الإبل ، شارف السن : كبيره ، طرقت الأم بالولد : إذا ضاق مخرجه .

٩- أسآر الرماح : بقاياها .

١٠- أقسم بأبى المهزوم : استهزاءا به ، مضئ المقاتل : ظهرت مقاتله فهى مضيئة .

راح " أبو تمام " يمدح " الأفشين " فى نحو تسعة عشر بيتا بعد أن مدح " المعتصم " من قبل فى نحو سبعة أبيات وأخذ يشيد بشجاعته فى ساحات المعارك والحروب وبحنكته العسكرية ومعرفته لفنون القتال وأنه يباشر الحرب بنفسه ، وأنه صاحب عزيمة قوية وآراء سديدة ، ثم تعرض " لفتنة بابك الخرمى " وانتصار " الأفشين " عليه وهزيمته إياه هزيمة نكراء ، مصورا شجاعة " الأفشين " واصفا المعركة وصفا رائعا مجسدا لمشاهدها، مدققا فى أحداثها، مسميا الأشخاص والأماكن بأسمائها، ذاكرا تاريخ المعركة، واصفا فرار " بابك " وما لحق بجيشه من خسائر كبيرة مظهرا بهجته ونشوته بهذا النصر الكبير الذى حققه " الأفشين " على " بابك " وجنوده ، متدفقا مع المسلمين تدفقا عاطفيا مرسلا مع كل لفظة براكين نارية من براكين نفسه، محملا عباراته أكثر من طاقاتها من المعانى الحربية القوية ومن الأخيلة والصور الضخمة ، منتزعا صوره من الألفاظ انتزاعا ، مدققا فى معانيه غائصا وراءها مستخرجا للطائفها وبديعها ، معتمدا على بديعه - الذى أكثر منه - اعتمادا كبيرا فى تصوير صوره وإبراز معانيه فضلا عن الاستعارة الدقيقة والتشابيه المصيبة التى أشاعت الحركة والحياة فى أبياته وزادت معانيه دقة وعمقا وزانت أبياته جمالا وحسنا .

وبعد أن بدأ " أبو تمام " مدحته بمدح " المعتصم " ثم انتقل منه إلى مدح " الأفشين " نراه يختتم المدحة بمدح " المعتصم " مرة أخرى ؛ فهو قد بدأ المدحة وختمها بمدح " المعتصم " ثم مدح الأفشين فيما بين ذلك إلا أنه قد وصل بين أبيات المدحة اتصالا وثيقا وربط بينها ربطا محكما لصيقا ، فنراه بعد أن مدح " الأفشين " وراح يشيد بنصره وفتحه الذى قام به راح يمدح " الخليفة " وينسب النصر والفتح الذى حققه

أحد قواده " الأفشين " إليه باعتباره خليفة المسلمين وإمامهم وراح يهتز لهذا الفتح المبين ويعلن عن فرحته به وبالنصر الذى تحقق على أعداء الإسلام موضحا أن ذلك النصر عادة تعود عليها المسلمون من قبل ومازال أهل الحق من المسلمين يحققونها بتأييد الله وعونه وموضحا أنه إذا كان القرآن الكريم والعمل بما فيه دواء كل عالم فإن السيف دواء كل جاهل مهددا كل جاهل وخارج على الدولة بأنه سيلقى نفس المصير الذى آل إليه " بابك " وأعوانه :

فتـوحُ أميـرِ المـؤمنين تفتَّحَتْ ... لهن أزاهيرُ الربا والخمـائلِ (١)
وعاداتُ نصْـرٍ لم تـزل تستعيدُها ... عصابـةُ حـقٍ فى عصابـةِ باطـلِ
وما هو إلا الوحـىُ أوحدًّ مُرْهَفٍ ... تُميلُ ظُباهُ أخْدَعَىْ كلِّ مائـلِ (٢)
فهـذا دواءُ الداء من كل عالِـمٍ ... وهذا دواء الـداء من كل جاهِلِ
فيا أيها النُّـوَّام عن رَيِّقِ الهُدى ... وقد جادكم من ديمةٍ بَعْدَ وابلِ (٣)
هو الحقُ إنّ تستيقظوا فيَه تَغْنَموا ... وإنْ تغفُلوا فالسـيفُ ليس بغافـلِ

فالمدحة رائعة فى صورها ومعانيها، محكمة فى نسجها وصياغتها ، وصاغها "أبو تمام " بأسلوب قوى مستقيم مستو لا تفاوت فيه ولا اضطراب ، وقد اختار ألفاظه وانتقاها وجاءت ملائمة لمعانيه وغرضه الذى نظم فيه. وهى فى مجملها ألفاظ واضحة سلسة إلا قوله : " فابذعرت " فإنها نابية غير حسنة ، ولروعة المدحة فقد حازت إعجاب : " خالد بن يزيد الشيبانى " الذى طلب من" أبى تمام" إنشادها فلما أنشدها قال له "خالد": كم أخذت بهذه القصيدة ؟ قال : ما لم يرو الغلة ولم يسد الخلة

---

١ - الربا : جمع ربوة : وهى الأرض الخصبة المرتفعة .

٢- أراد بالوحى : القرآن الكريم ، وعصابة الحق : المسلمون ، وعصابة الباطل : غيرهم .

٣- الريق : مستعار من ريق السحاب وهو أوله ، والديمة : مطر متوسط يدوم يوما وليلة .

قال : فإنى أثيبك عنها ، فقال : ولم ذاك وأنا أبلغ الأمل بمدحك ؟ قال : لأنى آليت لا أسمع شعرا حسنا مدح به رجل فقصر عن الحق فيه إلا نبت عنه . (١)

ومن مدائحه الرائعة التى خصها للمدح دون تقديم أو تمهيد أو مشاركة غرض شعرى آخر : مدحته التى مدح فيها : " المعتصم بالله " والتى بدأها بقوله : (٢)

آلتْ أمورُ الشرك شَرَّ مآلِ ... وأقَرَّ بعد تخمُّطٍ وصيالِ (٣)
غضِبَ الخليفةُ للخلافة غضْبةً ... رَخُصتْ لها المُهْجَاتُ وهْىَ غَوالِي

وقد نظم " أبو تمام " هذه القصيدة الرائعة الطويلة التى بلغت ثمانية وثمانين بيتا وبناها على بحر الكامل ـ فى فتنة " بابك الخرمى " وبمناسبة انتصار المسلمين على " بابك " وأعوانه بعد أن عاث فى البلاد الفساد وسطا وتجبر على العباد،وعلى رؤوس الأشهاد،فقاتله " المعتصم " وجنوده وتمكن من " بابك " وجىء به مكبلا فقطع " المعتصم " يديه ورجليه وأمر بذبحه وشق بطنه وأنفذ رأسه إلى " خراسان " وصلب " بسامرا " فقال " أبو تمام " قصيدته بهذه المناسبة وسجل فيها كل الأحداث التى حدثت مفصلا القول تفصيلا مبينا كل صغيرة وكبيرة فى هذا الموضوع .

فبعد أن بدأ المدحة وبرع فى استهلالها وصرع مفتاحها فزاده جمالا على جمال وذكر غضب الخليفة لما حدث على أيدى " بابك " فى بلاد

---

١ - ص ( ١٦٣ - ١٦٤ ) أخبار أبى تمام . للصولى .

٢- جـ ٣ ص ( ١٣٢ - ١٤٥ ) ديوان أبى تمام ، القصيدة من بحر الكامل .

٣- التخمط : التكبر ، والتخمط : الهيجان والثورة ، الصيال : مصدر صال .

المسلمين ، راح يصور ما فعله " بابك " ويصف حال الناس القلقة من جراء بطشه وتعسفه فى بلاد المسلمين موضحا ما حل بالبلاد من خراب وما لاقى الشعب من مآسى وعذاب فيقول :

لما انْتَقَى جهْلَ السيوف لبابكٍ ... أغمدنَ عنه جهالةَ الجهّالِ
فلأذربيجان اختيالٌ بعْد ما ... كانت مُعَرَّسَ عَبْرةٍ ونَكالِ
سَمُجَتْ وَنبَّهنا على إسْتِسْماجِها ... ما حوْلَها من نَضْرَةٍ وجمَالِ
وكذاك لم تُفْرِط كآبةُ عاطِلٍ ... حتى يجاورَها الزمانُ بحالِي
أطْلَقْتَها من كيْده وكأنما ... كانت به معقولةً بعقَالِ
خَرَقٌ من الأيام مَدَّ بِضَبْعِه ... صُعُدًا وأعطاه بغير سُؤال
خاف العزيزُ به الذليلَ وغُودرَتْ ... نبعاتُ نَجْدٍ سجَدًا للضَّالِ
قد أُترِعَتْ منه الجوانحُ رهْبةً ... بَطَلَتْ لديها سَوْرَةُ الأبْطالِ

※ إلى أن قال :

جفَّتْ به النعمُ النواعمُ وانْثَنَتْ ... سُرُجُ الهدى فيه بغير ذُبالِ
وأباح نَصْلُ السيف كلَّ مرشّحٍ ... لم يَحْمرْ دمُهُ من الأطفالِ
ما حلّ فى الدنيا فُواق بكيّةٍ ... حتى دعاه السيف بالتَّرحالِ
لو عاين الدجالُ بعض فعَالِهِ ... لانْهلَّ دمْعُ الأعْور الدّجَّالِ

وبعد أن وصف " أبو تمام " ما فعله " بابك " بالمسلمين وبلاد الإسلام راح يصور ما قام به الخليفة من قصاص من الجانى الذى جنى على المسلمين وبلادهم وراح يصف ما حدث من هزائم " لبابك " وجنده فى " أرشق " و " موقان " و " البذ " ومحاولة هروبه وكيف انتهت نهايته المحتومة وأجله الدانى .

يذكر كل ذلك ويصوره محصيا كل صغيرة وكبيرة من أحداث المعركة متتبعا الموقعة محددا زمانها ومكانها بدقة ، واصفا تحركات الجيشين وقد اشتد القتال وعنف واستبسل الجنود استبسالا عظيما،متدفقا مع المسلمين تدفقا حارا بكل عواطفه ومشاعره،مرسلا مع كل عبارة وكل لفظة حمة بركانية من براكين نفسه محملا العبارة أكثر من طاقتها من المعانى والصور الحربية ومن الأخيلة القوية والموسيقى التهويلية آخذا بالمقارنات المعنوية واللفظية مدققا فى معانيه غائصا وراءها مهما عمقت مستخرجا لطائفها كاسيا أسلوبه المستقيم المستو البعيد عن التفاوت والخلل بكثير من أدوات البديع والاستعارة الدقيقة والتشبيه المصيب الجيد .

كل ذلك يصوره تصويرا صادقا واقعيا دون كذب أو غلو،مضفيا عليه من أحاسيسه الذاتية وما يعتلج فى نفسه من خواطر،مسخرا خياله لإبراز الواقع وتوضيح الحقيقة دون تحريف أو تزييف ، وإذا نحن أمام قصة رائعة بل ملحمة رائعة من ملاحم البطولة العربية الإسلامية التى تسجل انتصار المسلمين العظيم على " بابك " وأعوانه ، والتى تجسد البطولة العربية والإسلامية تجسيدا حيا يعد وبحق مفخرة لكل مسلم وكل عربى ، ومما قاله فى ذلك :

أعطى أميرُ المؤمنين سيوفَه ... فيه الرضا وحكومةَ المُقتالِ
فرماه بالأفشين بالنجم الذى ... صدَع الدجى صدْعَ الرداء البالي
لاقاه بالكاوى العنيف بدائِه ... لما رآه لم يُفِق بالطَّالي
يا يوم أرشق كنت رَشْقَ منيةٍ ... للخُرَّمِيَّة صائبَ الآجالِ
أسرى بنو الإسلام فيه وأدلجوا ... بقلوب أُسْدٍ فى صُدور رجالِ
قد شمَّروا عن سُوقِهمْ فى ساعةٍ ... أمرتْ إزارَ الحرْب بالإسْبَالِ
لما رآهم بابكٌ دون المُنَى ... هَجَرَ الغَوَايَةَ بعدَ طول وِصَالِ

تخذ الفرار أخا وأيقن أنه | صَرَّىٰ عزمٍ من أبي سمال
قد كان حزنُ الخطب في أحزانه | فدعاه داعي الحين للإسهال
ووردن موقانا عليه شوازبا | شعثا بشعثٍ كالقطا الأرسال
فنجا ولو يثقفنه لتركنه | بالقاع غيرَ موصَّل الأوصال
وانصاع عن موقان وهو لجنده | وله أبٌ بَرٌّ وأمٌّ عيال

❊ إلى أن قال :

يومٌ أضاء به الزمان وفتحت | فيه الأسنة زهرة الآمال
لولا الظلام وقلة علقوا بها | باتت رقابهم بغير قلال

❊ إلى أن قال :

نزلت ملائكة السماء عليهم | لما تداعى المسلمون نزال
لم يكس شخص فيئه حتى رمى | وقت الزوال نعيمهم بزوال

❊ إلى أن قال :

فالبذ أغبر دارس الأطلال | ليد الردى أكل من الآكال
ألوت به يوم الخميس كتائب | أرسلنه مثلا من الأمثال
كم صارم عضب أناف على فتى | منهم لأعباء الوغى حمال
سبق المشيب إليه حتى ابتزه | وطن النهى من مفرق وقذال
كرامة وسط المنية وحدها | لوامة الأعمام والأخوال
قاس حياة الكلب إلا أنه | قد مات صبراً ميتة الرئبال

❊ ثم راح يذكر سبي ١٠ ساء موضحا أثر الهزيمة عليهن ثم قال :

ونجا ابن خائنة البعولة لو نجا | بمهفهف الكشحين والأطال
خلى الأحبة سالما لا ناسيا | عذر النسي خلاف عذر السالي
لما قضى رمضان منه قضاءه | شالت به الأيام في شوال
مازال مغلول العزيمة سادراً | حتى غدا في القيد والأغلال

ما نِيلَ حتى طار من خوف الردى ... كلَّ المَطَـار وجـال كلَّ مَجَـالِ
لاقى الحِمَـامَ بِسُـرَّ مَنْ رَاءَ التى ... شـهدتْ لِمَصْرعـهِ بِصِـدْقِ الفَـالِ

ويمضى فى حديثه عما حدث « لبابك » من : قطع وذبح وشق بطن وصلب ، ثم يختم المدحة بالدعاء للممدوح مشيدا به وما قام به من أعمال وانتصارات رفعت راية الإسلام وسما بدره بعد أن أصابه المحاق وعاد كاملا بعد نقصان ، ولبس ثوب العز من جديد فى أيام « المعتصم » الذى فند مزاعم العذال الذين حاولوا أن يمنعوه من المسير لقتال « بابك » وجنده مشيدا برأيه وحسن تدبيره للأمور :

فاسْـلمْ أميـرَ المؤمنينَ لأمـةٍ ... أبدلْتَها الإمْـرَاعَ بالإمْحَـالِ
أمسى بك الإسلام بدراً بعد ما ... مُحِقَتْ بَشَاشَتُهُ مُحَـاقَ هِـلالِ
أكْملْتَ منه بعـد نَقْـصٍ كلَّ ما ... نقصتْه أيدى الكفـرِ بعدَ كمـالِ

* إلى أن قال :

والسـيفُ ما لم يُلفَ فيه صَيْقَلٌ ... مِنْ طَبْعِـهِ لم يَنْتَفِـعْ بِصِقَـالِ

وهكذا كان « أبو تمام » رائعا بارعا فى مدحته التى تتجسد فيها الملحمة الشعرية أتم تجسيد وأمثله ، وقد أجاد فيها « أبو تمام » وبرع براعة معدومة النظير ، فقد برع فى : موضوعها ، ومعانيها ، وصورها ، وأسلوبها ، ومطلعها ، وخاتمتها ، وأفكارها ، وموسيقاها حتى بدت وكأنها لوحة فنية أبدع فيها صانعها إبداعا ما له من نظير ، كما أنها نموذج حى رائع لما كان عليه فن المدح فى عصر « أبى تمام » وتمثل مذهبه الفنى وتظهر فيها ثقافته الدينية والتاريخية ، وتتجلى فيها براعته فى تحويل التاريخ إلى شعر رائع ، فضلا عن أن عواطفه الدينية والقومية تظهر ظهورا قويا فى القصيدة .

وللشاعر نماذج أخرى من هذا القبيل حيث خص القصيدة من أول بيت إلى آخر بيت فيها بالمدح دون أن يمهد لها بمقدمة أو يشرك مع المدح غرضا شعريا آخر ، ونهج فيها نفس النهج فى شكل المدحة ومضمونها ممثلا فيها مذهبه الفنى أتم تمثيل .(١)

ومن بين مدائحه الخالية من المقدمات مدائح أشركها مع أغراض شعرية متنوعة ، وذلك بأن يجمع بين : المدح والرثاء فى قصيدة واحدة أو بين المدح والهجاء أو المدح والاعتذار أو المدح والعتاب أو المدح والوصف أو المدح والشكر وغير ذلك من أغراض الشعر الأخرى . وإن هذا اللون من الشعر الذى يشتمل على غرضين مختلفين خاصة إذا كانا متناقضين كالجمع بين : المدح والرثاء أو الجمع بين المدح والهجاء من أصعب الشعر على الشاعر ولا يقدر عليه إلا شاعر موهوب ، فنان قد أعطى براعة فائقة للتعبير عن الشىء وضده فى وقت واحد .

و " أبو تمام " باعتباره شاعراً عملاقاً موهوباً ، يعد من أقدر الشعراء وأبرعهم فى هذه الناحية ، وديوانه يجمع بين ثناياه نماذج كثيرة من هذا اللون .

ومن أروع قصائده فى هذا الموضوع قصيدته التى مدح فيها "الواثق" وهنأه بالخلافة ورثى فيها أباه " المعتصم " والتى بدأها بقوله : (٢)

ما للدموعِ تَرومُ كلَّ مَرامِ ... والجفنُ ثاكلُ هَجْعَةٍ ومنامِ

يا حُفْرَةَ المعصُومِ تُرْبُكِ مُودَعٌ ... ماءَ الحياةِ وقاتِلُ الإعْدَامِ

---

١- ينظر ديوانه :
جـ١ ص ( ١٧٤ ) ، ص ( ٢٣٤ ) و جـ٢ ص ( ٢١٩ ) و جـ٣ ص ( ٥٣ ) ، ص ( ١٤٦ ) ، ص ( ٢٩٤ ) .

٢- جـ٣ ص ( ٢٠٣ - ٢٠٩ ) ديوان أبى تمام . القصيدة من بحر : الكامل .

حيث برع الشاعر فى مطلع القصيدة وأجاد فيه وزاده جمالا وروعة بتصريعه ، ثم مضى يرثى " المعتصم " أبا الممدوح متخلصا من رثائه إلى مدحه تخلصاً حسناً دون انفصال أو خلل ، بل استطاع أن يصل بين الموضوعين وصلاً وثيقاً ويربط بينهما ربطاً محكماً لصيقاً ، فيقول بعد أبيات رثى فيها " المعتصم " :

فلسورة الأنفال فى ميراثه ... آثارُها ولسورة الأنعام (١)
إنا رحلنا واثقين بواثق ... بالله شمسِ ضحىً وبدْرِ تمَام
لله أىّ حياةٍ انْبَعَثَتْ لنا ... يوم الخميس وبعد أىّ حِمَام

ومضى يعزى الممدوح ويدعوه للتأسى والصبر موضحاً أنه إذا كان قد فقد إمام فقد قام بعده إمام سد مسده وإن غربت شمس فقد ظهرت بعدها أخرى بظهور الممدوح ومضى يشيد بالممدوح ويمدحه :

ما إنْ رأى الأقوامُ شمساً قبلَها ... أفلتْ فلم تُعْقِبْهُمُ بظلام
أكرم بيومهمُ الذى مُلّكْتَهُمْ ... فى صَدْره وبعامهمْ من عام
لو لم يكن بدْعاً لقد نصبوا له ... سِمَةً يَبِينُ بها مِن الأعْوام
لَغدوا وذاك الحولُ حَوْلُ عِبَادةٍ ... فيهمْ وذاك الشهرُ شهرُ صيام
لما دعوتَهمُ لأخْذِ عهودهمْ ... طار السرور بِمُعْرِقٍ وشَآم
قُسِمَتْ أميرَ المؤمنين قلوبُهمْ ... بين المحبة فيك والإعظام
شُرِحَتْ بدولتك الصدورُ وأصبحتْ ... خُشَّعُ العيون إليك وهْىَ سَوَام
ما أحسبُ القمرَ المنيرَ إذا بدا ... بدراً بأضْوأَ منك فى الأوْهَام
هى بيعة الرضوان يُشْرَعُ وسْطَها ... بابُ السلامة فادْخُلوا بسلام

١- يريد قول الله عز وجل : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ... الآية » ، وفى الأنعام : قوله : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ... إلى قوله : ولوطا » ، فجعل لوطا من ذريته وهو ابن أخيه فأوجب بذلك ميراث الخلافة لبنى العباس على هذا الوجه .

إن الخـــلافةَ أصبحتْ حُجراتُها ضُرِبَتْ على ضَخْمِ الهموم هُمَـام
ملكٌ يرى الدنيـــا بأيْسَرِ لَحْظَةٍ ويرى التقى رَحِماً من الأرحـــام
لا قَدْحَ فى عُودِ الإمــامةَ بعد ما متَّتْ إليك بحُرْمةٍ وذمـــام (١)
هيهـات تلك قِــلادةُ اللــه التى ما كان يتركــها بغيــر نظــام
إرثُ النبى وجمْــرةُ المُلْك التى لم تَخْلُ من لَهَبٍ بكمْ وضِــرام

حيث راح " أبو تمام " يشيد بممدوحه مركزاً على أحقية الخلافة مظهراً فرحة الدولة بإمامها الجديد مؤيداً حق العباسيين فى الخلافة وأنها إرثهم الذى ورثوه عن النبى ( صلى الله عليه وسلم ) وأنها قلادة الله التى قلدها لهم ، فضلا عن وصفه للممدوح بصفات عديدة مثل : الرفعة ، والسمو ، والتقى ، والقوة ، والبأس ، وعزاقة الأصل ، والحسب ، والنسب الرفيعين .

والقصيدة رائعة بارعة فى صورها ومعانيها،محكمة فى أسلوبها المستو المستقيم الذى نأى به الشاعر عن التفاوت والاختلاف والخلل ، وكان أسلوبه عذباً رقيقاً سلساً واضحاً ، وابتعد عن الخفاء والغموض والألفاظ النابية والغامضة ، وقد اعتمد الشاعر على ألوان التصوير وأدوات البديع فى تصوير صوره وإبراز معانيه ، وإن لم يكثر منها كثرته المألوفة .

ومن قصائده التى جمع فيها بين المدح وغرض شعرى آخر : قصيدته التى جمع فيها بين المدح والهجاء ، والتى مدح فيها : " محمدا بن الهيثم بن شبانة " من أهل " مرو " وهجا فيها : " أبا صالح بن يزداد "

١- لا قدح : لا عيب . أى أن الله يقلدها الأفضل فالأفضل .

ويعرض به وكتب بها إليه ، والتى بدأها بقوله : (١)

سلام الله عِدَّة رَمْلِ خَبْتٍ ... على ابن الهيثم الملكِ اللُّبابِ (٢)
ذكرْتُكَ ذِكْرةً جذبتْ ضُلوعى ... إليكَ كأنها ذكرى تَصَابى
فلا يُغْببْ مَحلَّكَ كلَّ يومٍ ... من الأنواءِ ألْطافُ السَّحاب (٣)
سقتْ جُوداً نَوالاً منك جَوْداً ... وَرَبْعاً غير مُجْتَنَبِ الجَنابِ
فَثَمَّ الجودُ مشدودَ الأواخي ... ونَمَّ المجدُ مضروبَ القِبابِ
وأخلاقٌ كأن المسكَ فيها ... بصفو الراح والنطف العِذابِ
وكم أحييتَ من ظنٍ رُفاتٍ ... بها وعَمَرْتَ من أملٍ خرابِ (٤)
يمينُ محمدٍ بحرٌ خضمٌ ... طموحُ الموج مَجنونُ العُبابِ (٥)
تفيضُ سماحةً والمزنُ مُكْدٍ ... وتقطعُ والحسامُ العضبُ نابِ

فالشاعر يبدأ قصيدته بالمدح ويشيد بممدوحه ويعدد صفاته وخلاله الحميدة : من الكرم وحسن الأخلاق والشجاعة مركزاً على صفة الكرم منتزعا منه معانى كثيرة وصوراً متعددة رائعة معتمداً على التشبيه والاستعارة وبعض أدوات البديع فى تصوير صوره وإبراز معانيه ، ثم ينتقل إلى الهجاء انتقالا متصلا وثيقا فيقول :

فَداكَ أبا الحُسين من الرزايا ... ومن داجى حوادثِها الغِضابِ
حسودٌ قصَّرتْ كفّاه عنه ... وكفك للنَّوال وللضِّرابِ
ويحسبُ ما يُفيدُ بلا نوالٍ ... وتُعطى ما تُفيد بلا حسابِ
ويغدو يستثيبُ بلا نوالٍ ... ونيلك كله لا للثَّوابِ

---

١- جـ١ ص ( ٢٨٢ - ٢٩٠ ) ديوان أبى تمام . والقصيدة من بحر الوافر .

٢- خبت : موضع بعينه ، وأصل الخبت : كل موضع اطمأن وهو مع ذلك سهل .

٣- لا يغبب : دعاء .

٤- إستعار الرفات للظن .

٥- مجنون العباب : يشير به إلى : اهتياج البحر وارتفاع الماء والموج .

والهجاء عادى بعيد عن العنف والسباب والفحش ، حيث يفضل الشاعر ممدوحه على أبى صالح : فصالح حسود ، قصرت كفاه عن أن يجود على نفسه فكيف يجود على غيره ، وعن أن يحمى نفسه فكيف يحمى غيره ؟ وأن أبا صالح يطلب الثواب بلا نائل إلا أن الممدوح ينيل غيره ولا يرجو ثواباً لذلك .

ثم مضى " أبو تمام " بعد ذلك يشيد بممدوحه ويذكر أنعمه عليه معدداً لفضائله وخصاله مسدداً إليه شكره ، ثم يختم القصيدة بالحديث عن قصيدته والفخر بشعره ووصفه ـ كعادته ـ فيقول :

إليكَ أثرْتُ من تَحْتَ التَّراقى ... قوافىَ تسْتدرُّ بلا عِصابِ (١)
من القِرْطَاتِ فى الآذان تبْقىٰ ... بقاءَ الوحْىِ فى الصَّمِّ الصِّلابِ
عِراضَ الجاه تجزعُ كلَّ وادٍ ... مُكَرَّمَةً وتفتحُ كلَّ بابِ
مُضمنةٌ كَلاَلَ الركْب تُغنى ... غَناءَ الزاد عنهمْ والركابِ
إذا عارضْتَها فى يوم فخر ... مسحتَ خدودَ سابقةٍ عِرابِ
تصيرُ بها وِهَادُ الأرضِ هَضْباً ... وأعلاماً وتُثْلمُ فى الروابى
كتبتُ ولو قَدَرْتُ جوىً وشوقاً ... إليكَ لكنت سطراً فى كتابى

والقصيدة تتحقق فيها الوحدة العضوية إلى حد بعيد حيث جاءت أفكارها مرتبة مسلسلة لكل فكرة مكانها وتعقبها فكرة أخرى تستدعيها ولا يجوز تقديم بعضها على بعض ، وقد استهلها الشاعر بالسلام والتحية للممدوح ، ثم مضى يشيد به وينتقل إلى ذم خصمه وهجائه ورفع ممدوحه عليه ، ثم يذكر بعد ذلك أنعمه عليه ويشكره عليها ، ثم يختمها بالإشادة بالقصيدة والفخر بها .

---

١- العصاب : أن يعصب فخذ الناقة إذا لم تثبت للحالب ، أثرت : أثرتها من قلبى .

وقد صاغها " أبو تمام " بأسلوب مستقيم مستو بعيد عن التفاوت والاضطراب وظهرت فيها براعته فى إحكام أسلوبها وبراعة صورها ومعانيها التى دقق فيها وغاص وراءها حتى استخرجها من مكامنها. وقد اعتمد على أدوات البديع والاستعارة والتشبيه اعتمادا واضحا فى تصوير صوره وإبراز معانيه • وهناك قصائد أخرى جمع فيها الشاعر بين المدح وأغراض شعرية أخرى كالوصف والعتاب والاعتذار والشكر وكلها تنهج هذا النهج .(١)

كذلك جاءت المدحة عند " أبى تمام " فى شكل المقطوعة الشعرية التى قلت أبياتها عن عشرة أبيات وبناها فى أبيات محدودة ربما وصلت إلى خمسة أبيات أو أربعة أو ثلاثة بل جاءت فى بيتين اثنين فقط ، وهذا أكبر تطور وصلت إليه المدحة فى بنائها وهيكلها ، ومن هذا القبيل مدحته فى " إسحاق بن ابراهيم " : (٢)

ألا يا أيها الملك المُعلّىَ ... إذا بعْضُ الملوك غدا مَنيحاَ
أَعِرْ شِعْرى الإصاخةَ منك يرْجعْ ... طَوالَ الدهر بَارِحُهُ سَنيحاَ
أَنِلْهُ باسْتِماعِكهُ محَلاً ... يفوتُ عُلوُّهُ الطرْفَ الطموحا
فلم أمدحْكَ تفْخيماً بشِعْرى ... ولكنى مدحْتُ بك المديحاَ

ويمدح " أبا عبد الله بن أبى دواد " فى بيتين فقط ويقول فيهما (٣)

أَيَسْلبنِي ثَرَاءَ المَالِ ربِي ... وأطلبُ ذاك من كفٍ جمادِ ؟
زعمتُ إذاً بأن الجودَ أمْسَى ... له ربٌّ سوى ابن أبي دُوادِ

---

١- ينظر ديوانه : جـ٢ ص (١٦١) ، ص (٣٤٣) ، ص (٣٨٩) ، ص (٤٥٢) .
و جـ٣ ص (٥٥) ، ص (٦١) ، ص (٩٨) ، ص (٢٥٧) ، ص (٣٣٣) .

٢- جـ١ ص (٣٤٣) ديوانه . من بحر : الوافر .

٣- جـ١ ص (٣٨٣) ديوانه . من الوافر .

❋ ومدح " داو الطائى " فى ثلاثة أبيات فقال : (١)

يا أيها السائلي عن عَرْصَةِ الجُودِ ... إنَّ فتَـى البَـأْسِ دَواد بنُ دَاوُدِ

فتىً متى ما يُنِلْكَ الدهْرَ صالحـةً ... يَقُلْ لِأَمْثـالها من فِعْلِه عُـــودى

❋ ويمدح " عبد الله بن طاهر " فى بيتين فقط ويقول فيهما : (٢)

يقول فى قُومسٍ صَحْبِي وقد أخَذَتْ ... منّا السُّرىٰ وخُطَا المَهْرِيَّةِ القُـــودِ

أَمَطْلَعَ الشمسِ تنـــوِي أن تَؤُمَّ بِنَا ... فقلتُ كلا ولكن مَطْلِعَ الجُــــودِ

وهناك للشاعر نماذج أخرى من المقطوعات الشعرية التى ضمنها شعر المدح وحدد أبياتها فى أقل من عشرة أبيات . (٣)

وهكذا تنوعت قصيدة المدح عند " أبى تمام " وتعددت فى بنائها وشكلها ، فنرى المدحة التى أخذت شكلا تقليديا فى بنائها حيث مهد لها بمقدمة موروثة ، ونرى المدحة التى مهد لها بمقدمة تجديدية ، ونرى المدحة الخالية من المقدمة ، والمدحة التى ضمت مع المدح غرضا آخر ، ونرى المدحة الطويلة ، والمتوسطة ، والقصيرة ، والمقطوعة الشـــعرية .

---

١- جـ٢ ص ( ١٠٨ ) . من البحر : البسيط .

٢- جـ٢ ص ( ١٣٢ ) . ديوانه . من بحر : البسيط .

٣- ينظر ديوانه على سبيل المثال :

جـ١ ص ( ١٠٨ ) ، ص ( ٢٩٦ ) ، ص ( ٢٩٧ ) ، ص ( ٢٩٨ ) ، ص ( ٣٤٣ ) .

و جـ٢ ص ( ٥ – ٦ ) ، ص ( ٩٦ ) ، ص ( ٩٨ ) ، ص ( ١٥١ ) ، ص ( ١٦٤ ) ، ص ( ٢١٨ ) ، ص ( ٢٢١ ) ، ص ( ٢٢٢ ) ، ص ( ٣١٧ ) ، ص ( ٤٠١ ) ، ص ( ٤٠٤ ) .

و جـ٣ ص ( ٥٩ ) ، ص ( ١٤٩ ) ، ص ( ٢٤٧ ) ، ص ( ٢٧٠ ) ، ص ( ٢٧٨ ) ، ص ( ٣١٥ ) .

وقد وضح المذهب الفنى " لأبى تمام " فى مدائحه وضوحاً قوياً ممثلاً له أتم تمثيل وأوضحه ، حيث راح " أبو تمام " يغوص وراء المعانى مهما عمقت،وراح يستنبطها من أغوارها مهما دقت،إلا أن هذه الدقة وهذا العمق كانا يؤديان به أحياناً قليلة إلى الغموض " وهو غموض بهيج كغموض الطبيعة فى الصباح والغروب إذ يجلله دائما شفق يأخذ بالألباب وتعجب إذ نجد القدماء يحملون عليه من أجله كما حملوا على إكثاره من اللفظ الغريب ومن التصاوير وألوان البديع حتى قالوا إنه أفسد الشعر وهو لم يفسده بل هيأ له ازدهاراً رائعاً تسنده فيه ثقافته الواسعة بالفلسفة والمنطق وبالشعر العربى قديمه وحديثه كما تسنده قوة ملكاته التى جعلته يعد بحق حامل لواء الشعر العربى فى عصره بل جعلته صاحب مذهب مستقل بخصائصه العقلية والزخرفية " . (١)

وقد وضحت فى مدائحه واقعيته وسعة خياله حيث راح يستمد أفكاره من الواقع الملموس ، وكانت الفكرة المعول الأساسى والرئيسى لمدائحه ثم يأتى الشعور بعد الفكرة ، وقد تحول الشعر عنده إلى مادة لينة سهلة يصورها تصوير الصانع كيف يشاء محطماً قيود اللغة إن عاقته،مجددًا ثائرًا لا يتقيد بقيد بل يتعدى الحواجز والمألوف .

وقد تميزت مدائحه بشيوع الفن القصصى حتى أصبحت المدحة قصة شعرية بل ملحمة من ملاحم البطولة التى تتجسم فى شخص بطلها الممدوح وتتحول صورة ممدوحه بفضل هذا الفن القصصى إلى صورة بطل عظيم من أبطال الملاحم القديمة .

---

١- ص ( ٢٧٨ ) العصر العباسى الأول . د / شوقى ضيف . دار المعارف . الطبعة الخامسة .

كما ظهرت فى مدائحه أثر القرآن الكريم ظهوراً يلفت النظر ويشد الانتباه حيث نجد بين كل خطوة وأخرى اقتباساً من القرآن الكريم مما يدل على حفظ الشاعر للقرآن الكريم وشغفه به إلى حد بعيد .

كما يتضح فى مدائحه أثر العلم والتاريخ العربى والإسلامى وأخبار الجاهلية وأيامهم وعاداتهم وثقافتهم وأساطيرهم بما يدل على أنه ألم إلماماً كبيرًا بتاريخ العرب والمسلمين فى الجاهلية والإسلام على السواء فضلا عما تدل عليه مدائحه من إلمامه بقواعد النحو إلماماً جيدًا ومعرفته الجيدة للغة طىء التى أكثر من استعمالها فى شعره ، والاعتماد الكبير على الجمل الإسمية وكثرة الإضافات والاهتمام بالصفات والإكثار منها فى المدحة الواحدة .

ومن خلال مدائحه نرى أن الشاعر قد اعتنى بألفاظه ودقق النظر فى اختيارها ونصب وقته لتزيينها ونظر فى بديعه وتأنق فيه إلى أبعد مدى ، ونراه ينتقى ألفاظاً حلوة رقيقة عذبة وأحياناً يأتى بألفاظ غريبة .

كما تعد مدائح " أبى تمام " ظلا لعصره العباسى الذى عاش فيه حيث مثله وصوره وسجل أحداثه وتقاليده فيها بكل الدقة والواقعية .

وقد نظم " أبو تمام " مدائحه على كثير من بحور الشعر العربى المألوفة والتى عرفها " الخليل بن أحمد الفراهيدى " إلا أن البحر الغالب فى مدائحه كان بحر : " الكامل " حيث يحتل المرتبة الأولى بين بحور الشعر فى مدائحه ثم يعقبه : بحر " البسيط " ثم " الطويل " ثم " الوافر " ثم " الخفيف " ثم " المنسرح " ثم " السريع " ثم " الرمل " والمتقارب .

وهذا النهج يخالف ما عليه أكثر الشعراء السابقين والموجودين فى عصره حيث يحتل «البحر الطويل» المكانة الأولى فى أشعارهم يليه «البسيط» ثم «الكامل» وكأنه بذلك أراد أن يخالف ما عليه الشعراء كما خالفهم فى مذهب الشعر أيضا .

كذلك نظم " أبو تمام " مدائحه على معظم حروف الهجاء العربية فقد بنى قافيته على حروف : الهمزة والباء والتاء والثاء والجيم والحاء والدال والراء والسين والضاد والعين والفاء والقاف والكاف واللام والميم والهاء . إلا أن حروف : الباء والدال واللام والميم أكثر حروف الهجاء استعمالا عنده ، وتحتل القافية المطلقة النسبة العظمى بينما لا تحتل القافية المقيدة إلا نسبة ضئيلة جدا فضلا عن أنه كان يؤثر أن تكون قافيته محركة الروى لأنه كان يحب الحركة دائما فهو يرى الأشياء متحركة منطلقة دون حاجز يردها أو يمنعها . كما شاع استخدامه للتصريع فى مطلع المدحة وقلما خلت منه مدحة وبه مذهب الشعراء المطبوعين المجيدين ، " وكلما كان الشعر أكثر اشتمالا عليه كان أدخل فى باب الشعر " . (١).وعول النقاد على أهميته فى مطلع القصيدة لأنه يميز بين الإبتداء وغيره ويفهم منه قبل تمام البيت روى القصيدة وقافيتها " . (٢)

* * *

١- ص ( ٦٠ ) نقد الشعر . لقدامة بن جعفر ، تحقيق / كمال مصطفى ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الخانجى بمصر .

٢- ص ( ٢٢٢ ) سر الفصاحة . لابن سنان الخفاجى ، تحقيق : عبد المتعال الصعيدى ، القاهرة عام ١٩٥٢ م .

## " مصادر البحث "

============

١ - **القرآن الكريم** .

٢ - **أبو تمـــام الطـــائى** . تأليف : نجيب محمد البهبيتى ، طبع : دار الثقافة ، الدار البيضاء بالمغرب ، عام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

٣ - **أخبـار أبى تمـام** . **للصولى** . تحقيق : خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندى ، طبع : المكتب التجارى بيروت .

٤ - **الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى** . الجزء الحادى عشر والخامس عشر .

٥ - **جمهرة أنســاب العــرب** . **لابن حـزم** ، طبـع : دار المعارف ، الطبعة الثانية .

٦ - **ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى** . تحقيق : محمد عبده عزام طبع : دار المعارف بمصر .

٧ - **ديـوان أبـى نـواس** ، تحقيق : أحمد عبد المجيد الغزالى ، طبع : دار الكتاب العربى بيروت .

٨ - **ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى** ، الجزء الثانى ، مطبعة القدس بالقاهرة ، عام ١٣٥٢ هـ .

٩ - **سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى** ، تحقيق : عبد المتعال الصعيدى ، القاهرة عام ١٩٥٢ م .

١٠ - **الشـعر والشـعراء** . **لابن قتيبة** ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، مصر عام ١٩٦٦ م ، دار المعارف .

١١ - **الشهاب فى الشيب والشباب** . **للشريف المرتضى** ، مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ، عام ١٣٠٢ هـ .

١٢ - **العصـر العباسـى الأول** . **للدكتور / شـوقى ضيف** ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الخامسة .

١٣ - **العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده . لابن رشيق** ، جـ ١ ، جـ ٢ . طبعة : الخانجى .

١٤ - **الفخر والحماسة . بقلم / حنا الفاخورى** ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة .

١٥ - **المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر . لابن الأثير** ، تحقيق : د / أحمد الحوفى ، د / بدوى طبانة ، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ، عام ١٩٦٢ م .

١٦ - **مقدمة القصيدة العربية فى العصر العباسى الأول . د / حسين عطوان** ، طبع : دار المعارف بمصر .

١٧ - **مقدمة نقد الشعر . لقدامة** ، طبع : لجنة التأليف والترجمة والنشر .

١٨ - **الموازنة بين أبى تمام والبحترى . للآمدى** ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، عام ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

١٩ - **نقد الشعر . لقدامة بن جعفر** ، تحقيق : كمال مصطفى ، مكتبة الخانجى بمصر ، الطبعة الثالثة .

٢٠ - **الوساطة بين المتنبى وخصومه . للجرجانى** ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ، الطبعة الثالثة .

* * *

# " الفهـــــرس "

==========




رقم الإيداع بدار الكتب المصرية / ٧٣٢٨ / ٩٩

الترقيم الدولى : ٩٧٧ - ١٩ - ٨٧٧١ - ٢


❊ ❊ ❊

S . S .


مطبعة
حكاية
كفر الشيخ تقسيم القضاه